سادة القافلة 22

الرَّوضةُ الحادية عشرة

ذكريات «زهراء بناهي روا» زوجة الشهيد القائد علي تشيت سازيان

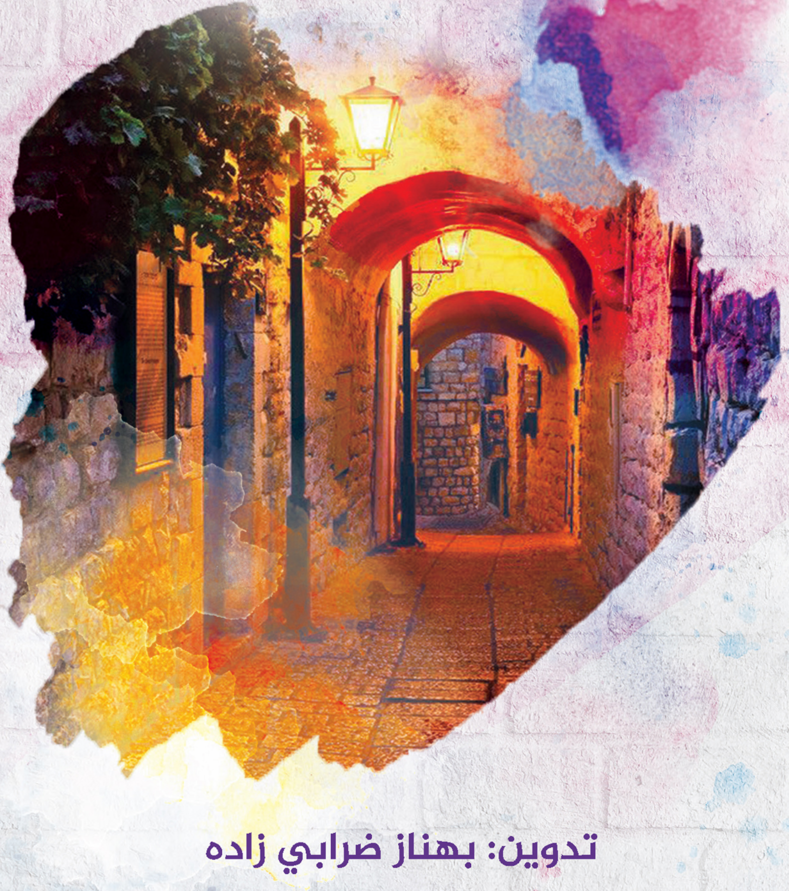

تدوين: بهناز ضرابي زاده

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الـكـتـاب: **الرَّوضةُ الحادية عشرة**

ذكريات زهراء بناهي روا - سادة القافلة 22

تـدويـن: **بهناز ضرابي زاده**

ناشر النسخة الأصلية: **سوره مهر**

إعـداد: **مركز المعارف للترجمة**

تـرجـمـة: **حنان الساحلي**

إصـدار: **دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة**

إخـراج فـنـي: **علي عليق**

تصميم الغلاف: eight press & production 009613 017565

طـبـاعـة: DBOUK 009613 336218

الطبعة الأولى - 2018م

ISBN 978-614-467-084-2

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سادة القافلة 22

الرَّوضةُ الحادية عشرة

ذكريات «زهراء بناهي روا» زوجة الشهيد القائد علي تشيت سازيان

تدوين: بهناز ضرابي زاده

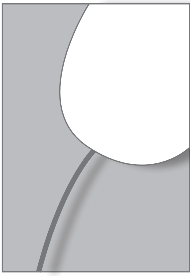

الاسم: زهرا بناهي روا.

الولادة: 1347/3/7 هـ.ش.(1968/5/28)

الزواج: 1365/1/7 هـ.ش.(1986/4/27)

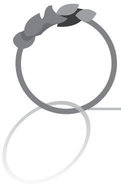

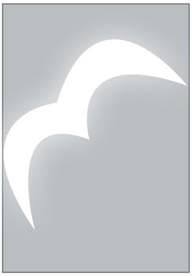

الاسم: علي تشيت سازيان

(قائد استطلاع وعمليات فرقة «32 أنصار الحسين» - محافظة همدان).

الولادة: 1341/9/20 هـ.ش،(1962/11/11) همدان.

الشهادة: 1366/9/4 هـ.ش،(1988/10/24)

منطقة عمليات (نصر 8) ماووت.

تعليق الإمام الخامنئي على الكتاب:

إنها رواية مشوّقة لحياة حافلة بالجهاد والإخلاص، لرَجُل نال في عنفوان شبابه مقامَ الرجال الربّانيين الكبار، وحاز العزّة على الأرض وفي الملأ الأعلى.. فهنيئاً له.

عبّرت الراوية - شريكة حياته القصيرة - في روايتها البريئة، بشفافيّة، عن الصدق والنقاء والإخلاص.

كما إنّ قلم الكاتبة المبدع وإنشاءها المفعم بالذّوق واللطف؛ بعثَا الحياة في كل هذا [السّفر]، فمرحى لكلا السيّدتين؛ راوية الكتاب وكاتبته. 1395/10/21ش.[10/1/ 2017م]

الفهرس

إشارة 9

المقدمة 13

1. **ذكرياتي تصبح فيلمًا** 17

2. **خاطب ذو عينين زرقاوين** 75

3. **رسالة العشق** 115

4. **شهر العسل الثاني** 129

5. **وردتي** 153

6. **الروضة الحادية عشرة** 155

7. **ليتنا لم نذهب مع السيّد سعيد** 177

8. **الستائر البنفسجية والوردية** 191

9. **التفاح الموشّح** 213

10. سبيل الشهادة هي الدموع 225

11. الحياكة 231

12. الرمان المشقوق 233

13. العيش مع رجل ذي مروءة 241

14. نجمة الوالد 269

15. الأمّ التلميذة 275

16. خلف صفّ الأشجار 277

17. جُرحُ الاثني عشر 281

إشارة

هو المحبوب

رغم انـزلاق الأعوام وتدحـرج السنين استطاعـت السيدة زهراء «فرشتـه» أن تسترجعها سرداً، عامًا بعام، فإذ بها تحملنا بعيداً؛ تارةً إلى «همدان» وتارة إلى «دزفول» حيث أمضت أجمل أيام حياتها.

تغـدو ذاكـرة «فرشتـه» حبلـى بالحكايـا والمغامـرات، وبينما هي تسردها نتحسّس معها أويقات الحرّ، والشتاء، ونعيش زمناً يتّسع لعام وثمانية أشهر؛ ويضيق ليصبح عمراً بقياس ليلة واحدة.

تدفعنـا روحيّتها في رواية «الروضة الحاديـة عشرة» لنجذّف معها في نفس القارب، يتقدّم لخطبتها شابٌ بعينين زرقاوين، لم تكونا سوى بحـرٍ متلاطمٍ في حراكٍ دائم، لا تكلّان ولا تملّان في رحلة البحث عن المحيط.

لا يجد صاحب هاتين العينين سبيلاً للوصول إلى ذاك المحيط سوى ذرف الدموع، فيذرفها في آناء الليل ليذيب أسلاك نفسه الشائكة، بينما يحـلُّ في أطراف النهار حارسـاً ثورياً، يجيد قطـع أسلاك تحصينات العدو في الخطوط الأمامية لينفذ إلى عمق تخومه وينجز المهمّات.

في الكتـاب؛ تحكي «فرشتـه» بِلُغة قلبها عن عشـقٍ لم يترهّل؛ رغم انبعـاث أجيالٍ وتعاقب سنين. فمـن كان يناديها «يا وردتي» لا يزال في انتظارها ليقدّم لها كل ورود الجنة.

هذا الكتاب..

لقــراءة القائد الكتاب وتعليقــه عليه أبعادٌ ومقاصــد؛ لا تقف عند حــدٍّ التشجيع على الكتابة والدعوة إلى المطالعة؛ ولا تنتهي عند تكريم الرّاويــة والكاتبــة.. إنمــا تتصل بساحــات العلم والجهــاد العريضة، وترسم آفاقَ مدرسة زاخرة بالنماذج والقدوات؛ ومحفوفة بالقيم؛ في عصــر طُرحت فيه المغريات بشتى ألوانهــا وقُدّمت فيه زخارف الدنيا بأجلــى حللها؛ عصرٌ أكثرَ ما يحتاج الشباب فيه إلى التعلم والاقتداء؛ وإلى العمل بلا سمعة أو رياء..

يســرُّ مركز المعارف للترجمة أن يقدّم للقرّاء الأعزّاء ولروّاد الأدب والنهضة كتاب «الروضة الحادية عشرة»؛ الإصدار الـ(22) من سلسلة «سادة القافلة» - مجموعــة أدب الجبهة؛ للتعرّف على حياة هامَة من هامــات الجبهة وإحدى ذخائرها النفيسة: سيرة الشهيد "عَلي تشًيت سازيان"، ترويها زوجته «فرشته».

نشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل؛ ونخصّ بالذّكر:

المترجمة والمحررة: الأخت حنان الساحلي.

المدقق اللغوي: الحاج عدنان حمود.

د. رضوان راغبي والحاجة إيمان صالح في مراجعة الترجمة.

المخرج الفني: الأخ علي عليق.

والشكر موصول للراوية والكاتبة، ولناشر النسخة الأصلية: مؤسسة سوره مهر ومكتب أدب وفن المقاومة. ولا ننسى ناشر النسخة العربية: دار المعارف الإسلامية الثقافية.

مركز المعارف للترجمة

ربيع الأول 1439هـ.ق

شكر

الشكر الجزيل للأخت القديرة، السيّدة فرزانه مردي، على الجهود التي بذلتها في إنجاز المقابلات الأولية، كذلك كلّ التقدير للأخ الكبير جناب السيّد محسن صيفي كار، على جهوده في إضافة الهوامش إلى الكتاب؛ والشكر موصول للأخ غلام رضا سليماني، صديق الشهيد علي تشيت سازيان لتوجيهاته ونصائحه الصادقة والمخلصة.

المقدمة

لثلاث وثلاثين سنة خَلَتْ، سكن هذا المنزل الذي تبينُ نافذته في الصورةً أفرادٌ هم اليوم ليسوا بيننا. عاش في هذا البيت السيّد «علي تشيت سازيان»[1] مع أبيه السيّد ناصر وأمه السيّدة منصورة وأخوَيه السيدَين صادق وأمير وأخته الوحيدة مريم.

مِن هذا المنزل كان علي يذهب إلى الجبهة. وفي إحدى غرفه عاش مدّة من الزمن مع زوجته. ستبقى قِصّة رجولة علي وشجاعته ومبادئه جذّابة وممتعة، ليس فقط لجيلنا هذا، بل وللأجيال القادمة.

منذ سنتَين عندما قرّرتُ أن أكتب مذكّرات زوجة أخرى من زوجات الشهداء، شعرتُ بالقنوط والحيرة من ذلك، ولم أدرِ أيّهن أختار من بين كلّ زوجات الشهداء.

مضت أسابيع، إلى أن توسّلت بالشهداء أنفسهم وقلتُ: فليتقدّم الشهيد الذي ينبغي أن أكتب عنه.

بعد أيّام، اتصلتْ صديقةٌ لي من طهران وأخبرتني أنّ زميلتها أجرت مقابلات لساعات عدّة مع زوجة الشهيد تشيت سازيان، وتمَّ تسجيل ذكرياتها في أشرطة كاسيت، وسألتني إن كنت مستعدة لإيصال هذه المقابلات إلى خواتيمها؟!

1- چيت سازيان: الحرف (چ) هو الحرف السابع في اللغة الفارسية ويلفظ ch (تش).

لم يكـن ثمّة مجال للنقاش والتلكّؤ والتسـاؤل. ها قد تقدّم الشهيد بنفسـه. وافقتُ، وبعـد يومـين أو ثلاثـة وصلنـي التسجيـل الصوتي للمقابـلات التـي أجرتها السيّـدة فرزانه مـردي مع السيّـدة زهراء بناهي روا[1]، فسُررت بذلك كثيرًا. تمّ تفريغ المقابلات، وبعد ذلك بدأنا بإجراء المقابلات التكميلية.

قصـدتُ طهـران مرّات عـدّة، كمـا أنّ السيّدة بناهـي جاءت إلى همدان مرّات؛ وذلك لتحكي مذكراتها التي لم تروِها بعد.

في أحـد الأيّـام، وبينما كنّا واقفتين في الزقاق يـودّع بعضنا بعضًا، قالت السيّدة بناهي: «يا لذكراه الطيّبة، لقد عشنا في هذا المنزل»، ثمّ أشارت إلى المنـزل مقابلنا وقالت: «المبنى رقم 6، الطابق الرابع، كان منزل السيّدة منصورة».

في ذاك اليـوم، انتبهـتُ ولم أصدّق بتاتًا أنّ تلـك النافذة البيضاء التـي تظهر مـن بـين أغصـان الشجـر الكثيفـة مقابـل نافذتنا هي إحّـدى نوافـذ شقّة الشهيد تشيـت سازيان، وأنّ تلـك الذكريات التي حدّثتني عنهـا السيّدة بناهي قد جرت في ذلك المنزل المقابل لمنزلنا!! أحسسـتُ بشعـورٍ غريب في داخلي، لا أعلم سببـه، جارٌ لم أره مطلقًا، ومنزلٌ شبيه لمنزلنا.

مـذّاك، أمَطْتُّ جانبًا ستارة النافـذة المقابلة لمنزل هؤلاء الجيران لأراه جيّدًا من خلف أغصان الأشجار وأوراقها الكثيفة.

في المساء، وضعت مكتبي خلف النافذة لأتحسّس ليلًا وأنا أنظر إلى منزلهـم، تلك الذكريات التي أكتبها، ذاك المنـزل الذي يشبه منزلنا بتصميمه.

1- روا؛ تلفظ: (رفا).

تارةً، كنت ألمح السيّد علي من خلف النافذة ينتظر أصدقاءه، وتارةً أخرى كنت أرى في ليالي الجمعة لوحة منصوبة على مدخل المبنى وعَلَمًا متدلّيًا من على النافذة مكتوب عليه: «هيئة نهج الشهداء».

لقد أمضيت وتلك النافذة أيّامًا ولياليَ، وعشنا معًا ذكرياتِ عام وثمانيةِ أشهرٍ من الحياة المشتركة للسيّد علي مع زوجته. كانت جارتنا السيّدة منصورة تعشق الحياة وتعشق أبناءها، مضافًا إلى شغفها بالتدبير المنزلي وتنسيق الأزهار والاعتناء بها.

عندما يُضاء المنزل، كنت أرى الأزهار والنباتات المنزلية المتسلّقة على الباب والجدار والنوافذ تنمو وتكبر على يدَي هذه السيّدة. لكم عاين هذا المنزل حلو الحياة ومرّها، وشهد رحيل أفراد هذه العائلة واستشهادهم واحدًا تلو الآخر.

يا لها من أيّام عصيبةٍ وقاسيةٍ مرَّت على هذا الزقاق؛ أيّامُ وداعٍ لساكني هذا المنزلِ الطيّبين.

أيُّ ليالٍ حزينة أضيئت فيها مصابيح ذلك المنزل حتّى الصباح.. أيُّ ليالٍ مريرة وطويلة..

في هذه الليالي، ها هي مصابيح هذه الشقّة، ومصابيح منزل الجيران، تُضاء ثانيةً حتّى الصباح.

خريف 2015

بهناز ضرابي زاده

همدان

1

ذكرياتي تصبح فيلمًا

كنّا نعبر من أمام مستشفى «أبو علي»[1]، فقلت: «عليّ[2]، سيولد طفلنا هنا بعد أشهرٍ عدّة».

سألني باستغراب: «هنا!؟».

قلت: «هذا مستشفى خاصّ، إنّه أفضل مستشفى في همدان».

عندها خفّف عليّ من سرعة السيّارة وقال: «لا، نحن نريد الذهاب إلى مستشفى يرتاده المستضعفون، هذا للأثرياء، وليس في وسع كلّ واحد أن يأتي إليه».

كنت حاملًا في الشهر الثامن، ولم تكن حالي جيّدة أبدًا. عصر يوم الخميس 31/ك1/1987م. توالت نوبات الألم، وأخبرتُ الجميع بوصية علي. في تلك الأيّام عجَّ منزل والدة زوجي بالضيوف وازدحمت أطرافه. أمّي أيضًا كانت هناك. ما إن قلت إنّي لستُ على ما يرام حتّى نقلتني بسيّارة إلى مستشفى «فاطمية» الحكومي.

1- أبو علي سينا.

2- دأبت الراوية في الكتاب على قول «علي آغا» عندما تذكر إسمه، وقد اكتفينا بذكر الإسم ليتناسب النص مع مزاج القارئ العربي. (المترجم).

لمّـا دخلنا المستشفى، انتشر الخبر في الأرجاء: «سيولد ابن الشهيد تشيـت سازيـان». هُـرع موظّفـو المستشفـى وغصّ المـكان من حولي بالممرّضات والأطبّاء. انتشر الخبر في المدينة كانتشار النار في الهشيم. صار الناس يتّصلون بالمستشفى للاطمئنان إليَّ وإلى الطفل. أمّي التي كانت طـوال الوقت تجلس فـوق رأسي، اضطُرّت أحيانًـا إلى الذهاب لتجيب على الهاتف. رغم تصريح الأطبّاء بعدم وجود علامات ولادة، إلّا أنّ مدير المستشفى أمر بأنْ أبقى هناك.

لم أشعر بالألم في تلك اللّيلة، لكنّه عاودني عند الصباح، فأحاطت بـي الممرّضات والطبيبة مـن جديد، إلّا أنّه بعد ساعـات تكرّر الكلام ذاته: «لا شيء يُذكر، لا تقلقوا، لا يُلحظ أيّ علامات لولادة مبكرة».

أصررت عليهـم كي يَدَعُوني أذهب إلى البيـت، لكنّهم لم يسمحوا لي بذلـك. بعـد ساعـات، ساءت حالي ثانيـةً، وقضّ الألم مضجعي. اضطربتِ أمّي واحتارت ماذا تفعل؛ تكرّر هذا الأمر، وكانت الممرّضات -في كلّ مرّة- يحضرن ويحطن بي، وبعد إجراء الكشف الطبّي يهززن رؤوسهن ويكرّرن يائسات ما قيل سابقًا.

في عصـر يوم الجمعة 1/ك2/1988م[1]، ليلة ميلاد نبي اللّٰه عيسى عليه السلام، عـاودني ألمٌ مميـت. لا أدري لماذا خفتُ وخجلـتُ من الجميع. ظننتُ أنّ مشكلةً ما قد حلّت بي، وقد لا أستطيع أن ألد طفلي!

ضاق صـدري غمًّا وحزنًا؛ إذ إنّ غصّة فراق علي لمّا تبارحني بعد. ظلّ ألم فراقه غضًّا بالنسبة إلى الجميع، وخاصّة إليّ أنا.

حلّ وقـت العصر مكـدّرًا. انكمشتُ على نفسي ورحـتُ أبكي بنحو متقطع وأحدّث «علـي». كنت خلال الأيّام السبعة والثلاثين المنصرمة

1 - (11دی ماه 1366 هـ.ش).

كلّما ضاقت بي الدنيا وقصرت يدي عن فعل شيء، أنادي «علي» وأقول في نفسي: «حبيبي علي ساعدني! لا قدّر الله أنّ يصيبنّ الجنين خَطبٌ ما؟! فأنا أخجل من الطبيبة والممرّضات، والناس ينتظرون قدوم ابنك. افعل شيئًا. إذا كان هذا الطفل سيولد فلينته الأمر بيسر وعافية، فأنا لا أريد أن يتكبّد أحد العناء بسببي».

اشتدّت آلام المخاض بعد أذان المغرب. نهضتُ، توضأت وصلّيت بمشقة. في البداية كانت نوبات الألم تنتابني كلّ ساعة، ثمّ تقلّصت الفواصل الزمنية لتصبح كلّ نصف ساعة. كانت أمّي واقفة قربي، فقلت لها: «لقد ساءت حالي». وكما في كلّ مرّة، اضطربتْ وأسرعتْ نحو الممرّضات، فجئنَ وتحلّقن حولي. قالت لي الممرّضة المعاينة: «بإذن الله؛ ستكون الولادة الليّلة». أتت الطبيبة وأمرت بالاستعداد للولادة. لبستُ ثوب العمليات بمساعدة الممرّضات اللواتي دفعنَ النقّالة صوب غرفة الولادة. كانت والدتي تذرف الدموع من دون إرادة منها. مددتُ يدي نحوها بقلق وتبعتني باكية. قالت الطبيبة المرافقة لإحدى الممرّضات: «أعطي الوالدة ثوب غرفة العمليّات أيضًا».

بعد قليل دخلت والدتي إلى غرفة الولادة وهي ترتدي لباس العمليات الأخضر، ووقفت بجانبي. في تلك اللحظات المليئة بالآلام كُنت أدعو للطفل فقط؛ كنتُ كسائر الأمهات قلقة عليه. فلكثرة ما بكيت خلال الأيّام الـ 37 الماضية، ولكثرة ما تجرّعته من غصّة الفراق ظننتُ أنّ الطفل سيولد نحيفًا ضعيف البُنية. في تلك الأيّام لم تكن الوسائل الحديثة[1] لفحص الجنين متوفرة كما هي الآن، فكان الأهل والأصدقاء والجيران يتنبّأون بجنس المولود قبل ولادته، من خلال بعض الوضعيات وشكل بطن الوالدة. وحسب تشخيص وتكهّن أغلب

1- أجهزة السونوغرافي.

النسوة سيكون المولود القادم بنتًا.

كنـت في شهري الثالث عندما استشهد أخـو علي «السيّد أمير». يا لها من أيّام صعبة! كنتُ أطوي أوقاتي بالبكاء والنحيب، إلى أن جاءت شهادة علـي. فبعد شهادتهما مضى أسبوعٌ مـن دون أن أتناول خلاله شيئًا سوى الماء، فهـزل جسمي ولم أبدُ على هيئة النساء الحوامل. في الأساس كثيرات هنَّ اللواتي لم يصدّقنَ أنّني حامل.

سرى الألم كما تسري الدماء في كلّ أنحاء جسمي. لم أشأ الصراخ. كتمـتُ ألمـي وعضضتُ علـى شفتَيّ وأمسكـتُ يد أمّي وصـرت أضغط عليها بكلّ ما أوتيت من عزم. كانت أمّي تذرف الدموع؛ كذلك انهمرت دموعـي بغـزارة من شدة الألم. صـارت أمّي تلثم يـدي وتقبّلها بشدة وحـرارة. تبلّلت يدي بدموعها، فصـرتُ أنادي «علي» من شدّة الوجع، وألتمس منه المساعدة والعون.

وضعـتُ يدي اليسرى علـى وجهي ورحت أقبّل خـاتم زواجي الذي تفوح منه رائحة علي. فجأة، رأيته يقف أمامي مبتسمًا، فأنستني رؤيته كلّ آلامـي. لم أصدّق، لقـد حضر علي، وها هو حـيٌّ حاضر، يضحك ويمدّني بالمعنويات.

قلـت له: «علي حبيبـي ساعدني كي لا أجزع ولأستمـدّ القوّة منك، فأنا لا أريد أن يسمع صوتي أحد، أرجوك ساعدني».

عضضتُ على شفتَيّ وضغطتُ على يد أمي. لم تتحمل أمّي مشاهدة آلامـي، فجلستْ علـى الأرض إلى جانـب السرير، وصـارت تدعو لي، ولساني يلهج بالذكر والدعاء، ولم أعد أسمع شيئًا؛ وكأنّي انقطعتُ عن هـذا العـالم؛ كان علي يضحك ويتكلّم همسًـا؛ دون أن أفهم من كلامه شيئًا. عندما علا صوت بكاء الطفل همدت قوة جسدي وأصبح خفيفًا.

يـا له من شعـور جميل! أحببـت أن أغفو وعلت أصـوات «الصلاة على محمد وآله». كنت جالسة نصف جلستي والطبيبة والممرّضات يضحكن مـن حولي. قالت إحدى الممرّضات بسرور وبهجـة: «إنّه صبي؛ إنْ شاء الله يَخْلُف والده لألف سنة قادمة!». كان بعض الممرّضات يبارك لبعض. رفعـت الطبيبة الطفل عاليًا وقالت: «ها هو طفلك الجميل، أرأيتِه؟ كم هو بهي الطلعة!!».

وُلِـدَ ابني صغير الحجـم ممتلئ الجسـم، ورديّ الوجنات، وشعره كثيف سابل[1] يضرب إلى السواد بشدّة.

كان علي لا يـزال واقفًا هناك، قريبًا إلى حدٍّ أنّني شممت رائحته. وقف مبتسمًا، ووجهه الجميل يشعّ نورًا، كما في لحظات وداعه الأخير، همستُ قائلة: «علي حبيبي، شكرًا لك».

وضعت الممرّضات الطفل على طاولة بجانب السرير، وقمنَ بوزنه. سمعتُ حينها أنّه يزن «2.50كلغ».

تحلّقتْ بضعُ ممرّضات حول الطفل. انحنت والدتي وقبّلت وجهي؛ كانـت لا تزال تذرف الدموع؛ لكنّ وجهها كان ينضح بالفرح والبهجة. همست في أذني قائلة: «يبدو كمَلاكٍ سماويّ».

نظرتُ إلى الجهة المقابلة حيث كان يقف علي، ألفيته ما زال واقفًا؛ وقلبي لا يزال يخفق لأجله كما في الأيّام الـ 37 الماضية.

تمنيّت أن ينزل من مكانه ويدنو من ابنه فيحتضنه ويقول: «عزيزتي فرشته، وردتي، سلّمكِ الله، يا لهذا الطفل اللطيف الذي أنجبتِه».

خرجـتْ أمّي كـي تتصل بوالدة زوجـي وتأخذ منها بشـارة الوليد الجديـد. غـادرت الطبيبـة والممرّضـات وأخـذْنَ ولدي معهـن. أتت

1 – ناعم كثيرًا كريش الغراب.

الممرّضـات ووضعنني على النقّالـة ودفعنني نحو قسم النساء. همدت أطرافي، لكنّ الألم لم يبارحني. التفتُّ إلى الخلف ونظرتُ إلى الجدار المقابـل حيث كان يقـف علي. قلت له والعبرة تخنقنـي: «علي حبيبي، شكـرًا -لا أصدّق كم شعـرت بالراحة بهذه السرعــة- تعالَ معي أنت أيضًا، أرجوك لا تدعني وحيدة! لقد اشتقتُ إليك!».

خرجنا من غرفة العمليات. شعرتُ أنّ علي ليس بجانبي، اغرورقت عينـاي بالدموع وأجهشت بالبكاء وقلت: «حبيبي علي، لقد تحمّلت كلّ هذا العناء بعد رحيلك، تجرّعـت الغصص وحبست الدموع، كلّ ذلك مـن أجل أن يولد ذِكْـراكَ سالمًا. اُنظر! لقد أتممـتُ مهمّتي على أكمل وجـه، لا تتركنـي وحيدة! لا تذهـب! خذني معك! علـي، أريد الذهاب معـك! لقد أتعبني فراقك ورحيلك باكرًا. علي، لا طاقة لي على تحمّل فراقـك. ليتك لم تعاملني معاملة حسنة إلى هذا الحدّ! لو أنّك آذيتني على الأقلّ!!».

تذكّـرت يـوم أردنـا الذهــاب إلى دزفـول، قــال لي: «ثمّــة حــرب دائـرة؛ القصـف لا يتوقّـف ليـل نهـار، وأنا لسـت إلى جانبـك دائمًا. ستبقين وحـدَك هنــاك، أتتحملين ذلـك؟!». أجبته بسـرور: «ما تقوله صحيـح، لكنّنـي سأتمكّن مـن رؤيتك أكثر ولـن تطول فـترة غيابك». إذا كان لدي أيّام حلوة وأوقات طيّبة، فلا شكّ في أنّ تلك الأشهر الخمسة التي قضيتها مع علي في دزفول هي أجملها في كلّ مراحل حياتي.

كنّـا في شهـر دي في العـام 1365 هـ.ش (ك2/1987) في ذروة القصـف الصاروخـي على دزفول والأهواز، عندمـا سألني علي: «هل تأتين معي؟!».

أجبته من دون تردد: «أويمكننـي ذلك؟!».

جمعت أغراضنا الضروريّـة ليلًا (ماكينة الخياطة، مكواة، قدورًا

وصحونًـا وأدوات طبخ)، مضافًا إلى حقيبة الألبسة، وبعض الأغراض الأخرى.

في الصبـاح الباكـر، وضعنا الأغراض في صنـدوق السيّارة التي كانت بحوزته، واتجهنا صوب دزفول.

خـلال هـذه السنـوات الـ27[1] لطالمـا استذكـرت تلـك الأيّام. في الأسـاس، كنـت كلّما أشتـاق إلى علي أتذكّر شهـر دي من ذلك العام (ك2/87) ودزفول من دون إرادة منّي. في الحقيقة، لم نشعر أنا وعلي بطعم الحياة إلّا في تلك الأيّام. لغايةٍ الآن، ما زلت أشعر بلذّة مشاهدة أشجار البرتقال والليمون وعطر أوراقها المنعش، كذلك أشجار الكينا، والجـوّ الممتع البهيج لذلك الشتاء. حتّى في هذه اللحظة وأنا أروي لكم هذه الذكريات، ما زالت ذكراها تضجّ في أعماقي.

لقد اعتـدتُ في الأشهـر الأولى بعد شهادة علـي أن أضع البطانية لساعات على وجهي، أغمض عينيّ، وأتذكر تلك الأيّام وأكرّر مشاهدة تلـك الذكريات في ذهني كفيلم سينمائي، مـن دون زيادة أو نقصان، وإذا قطع أحد ما خلوتي مع هذا الفيلم كنت أكمله في وقت لاحق، مثلما حـدث معي في تلك اللّيلة في مستشفـى «فاطمية»، كنت ما بين اليقظة والنـوم نتيجة المسكّنات التي تناولتها بعـد الولادة، قلت في نفسـي: يودّ قلبـي لو أنّ «علـي» إلى جانبي، ككلّ النساء اللواتي يضعْنَ حملهنّ فقد غمـرني الشـوق إليه. أحببت أن يكـون بجانبي. في تلـك اللّيلة ولشدّة اشتياقـي إليه ألقيت على وجهي غطـاء السرير الذي تفوح منه رائحة البتاديـن والسبيرتو والدواء، وأغمضت عينيّ وبدأت أستذكر تفاصيل دخولنا إلى دزفول.

1- السنـوات الـ27 التـي مضت من حياتها حتـى عام (2014م)حينما كانـت تروي سيرة حياتها للكاتبة. (المترجم)

إنّي أعشق هـذا المقطـع من ذكرياتـي. كانت ليلـة السبت 20 دي (10ك2) عندمـا وصلنا. وجدت أنّ المنزل الـذي تخيلته وتصورته في ذهني خلال الطريق من همدان إلى دزفول، يشبه المنزل الذي وصلنا إليـه. كان منزلًا مؤلّفًا من طابق ونصف في مبنى حديث البناء في حي «بانصـد دستكاه» الواقع في ضواحي مدينـة دزفول. لم يكن في المنزل أيّ تجهيزات أو إمكانيات للعيش فيه. وصل قبلنا إلى هذا المنزل هادي فضلي[1] مع زوجته وابنته الصغيرة زينب.

كم كنتُ متعبة تلـك اللّيلة؛ إلى حدّ لم أعرف كيف وضعنا الفراش على الأرض وكيف نمنا.

استيقظنا في الصباح الباكر على صوت علي؛ إذ إنّه ذهب بعد صلاة الصبـح واشترى خبـزًا طازجًا وصـار يُحدِثُ جَلَبَةً محـاولًا إيقاظنا. اتخذنا من البهو مكانًـا للنوم، بينما أسرة صديقه «هادي» كانت تنام في الصالـون. نهضت ورتّبت الفراش بسرعة. جاء هادي ليساعد علي في إعـداد الفطـور، وبقيت زينـب نائمة. بعد تناول الفطـور لبس علي وصديقه بدلة الحرس الرسمية. سألته وهو يودّعنا: «ستعودان؟!».

أجاب علـي بلهجة همدانية غليظة: «لا أعرف، سيأتي أحد الجنود يوميًّـا ليتفقّدكـم. اطلبوا منه ما تحتاجون إليـه». عندما أقفلا الباب خلفهمـا وغادرا شعـرتُ حينها بغربة في ذاك المنـزل، لم يكن لديّ ما أفعله، وبدافع الفضول ربما صرت أجول في زواياه وأستكشف تفاصيله.

1- ولـد هـادي فضلي في 14 خرداد 1341 (62/6/4) في منطقـة مريانج من توابع مدينة همدان، استشهد في عملية مرصاد بتاريخ 1367/5/7(1988/7/29)، في منطقة تشارزبر اسـلام آباد. كان هادي من أوائـل منتسبي وحدة استطلاع العمليات، و كان حين شهادته مسؤول استطلاع عمليات «لواء 2 أنصار الحسين» في محافظة همدان، وهو من أصدقاء علي المقرّبين.

تقع المرافق الصحية إلى يسار فناء المنزل[1] الصغير الذي لا تتجاوز مساحته الـ 50–60م. كانت الجدران حديثة البناء، وأشعة الشمس القوية تؤذي العين. مشيتُ قليلًا في الفناء ثمّ صعدت الدرجات الخمس التي تصل الباحة بشرفة صغيرة تقع في مدخل المبنى. كان البهو كبيرًا نسبيًّا، وكذلك غرفة الاستقبال التي تبلغ مساحتها قرابة 24م. أمّا المطبخ فلا توجد فيه أيّ وسائل وإمكانات ولا حتّى خزائن، وجدرانه لم تكن قد رصفت بالسيراميك بعد. كان الغبار والتراب والأوساخ المتدلية منه تُرى كيفما جُلْتَ بنظرك في حيطانه وزواياه.

في آخر البهو درج يتألف من 14 درجة تقريبًا، وينتهي بطابق سفلي غارق في الظلام، مؤلّف من غرفتين، الغرفة الأولى كبيرة، لها نافذة صغيرة، والغرفة الثانية صغيرة ضيّقة مربّعة الشكل، لها نافذتان، إحداهما قريبة من السقف تطلّ على فناء صغير (منور) محاطٍ بسورٍ مرتفع؛ والأخرى تطلّ على فناء المنزل. تتدلّى من السقف لمبة (W100) بالية؛ تضيء الغرفة الخالية بصعوبة بمساعدة نور الفناء الصغير. بعد أيّام صارت هذه غرفتنا أنا وعلي. لم يكن بناء المنزل قد اكتمل بعد.

بما أنّ زينب بقيت نائمة ولم تستيقظ، قرّرت أنا وفاطمة أن ننظّف المنزل. كانت زينب تبلغ من العمر آنذاك سنة ونصف السنة. خلعنا عباءتينا وعقدتْ كلّ واحدة منّا منديلها إلى الوراء. جمعنا مائدة الطعام، وبينما نحن نبحث عن المكنسة ارتفعت في الأجواء أصوات المضادات الأرضية، هرعتْ فاطمة نحو زينب، حَمَلَتْها ونزلنا إلى الطابق السفلي بسرعة. حدّقت زينب التي أفسدنا عليها نومها بنا

1- يُطلق عليها في إيران اسم «حياط»، وهي باحة مسوّرة توجد في العمران القديم، أحياناً تكون من الجهة الخلفية. (المترجم)

مدهوشة مضطربة وبدأتْ تبكي. حاولنا إسكاتها فلم تهدأ. اشتدّ القصف واهتزّ البيت. جلسنا على الأرض المغطاة بالأتربة. صارت زينب تبكي وتصرخ مرعوبة، وسيطر القلق والخوف علينا؛ لأنّنا لم نكن نعرف ماذا يجري في الخارج. مضى أكثر من نصف ساعة ونحن على هذه الحال. سكتت زينب، لكنّها راحت تتململ جوعًا.

عندما هدأت أصوات القصف قليلاً عدنا إلى الطابق العلوي. كانت فاطمة تغسل زجاجة الحليب، وكنت أنا أُشعل النار تحت إبريق الشاي لمّا علت أصوات القصف هذه المرة، كان خوفنا أقلّ من السابق، ورغم ذلك هرعنا إلى الطابق السفلي.

مضى نصف ساعة، ولا خبر عن الجندي الذي وَعَدَنَا علي بمجيئه أثناء غيابه. في هذه المرة صعدنا إلى الطابق العلوي قبل أن يتوقّف القصف.

أعدّت فاطمة زجاجة الحليب لزينب وشرّبتها إياها، ثمّ لبست كلّ واحدة منّا تشادورها (عباءتها)[1] وخرجنا إلى الشارع، فدُهشنا عندما رأينا الناس يتردّدون في الزقاق من دون خوف.

لم نصدّق أنّه مع كلّ هذه الأصوات والجلبة، يعيش الناس هنا براحة بال إلى هذا الحد، فعلى بعد أمتار، اصطّف الناس أمام مخبز «لواش[2]» لشراء الخبز.

بدا الخبّاز رجلًا طويلًا نحيفًا ذا بشرة سمراء داكنة. كان يتحرّك بليونة فائقة إلى هذا الاتجاه وذاك، ثمّ يمدّ العجين بمهارة فيعلو ويهبط، ويقترب من التنور، وبقفزة احترافية واحدة يحمل رقائق

1 - تشبه العباءة العربية قليلا.. والمقصود في كلمة العباءة الواردة في الكتاب هو التشادور، أي العباءة الإيرانية.

2- يطبخ في التنور يشبه الخبز المرقوق في بلادنا. (المترجم)

العجين ويلصقها على حائط التنور المتأجّج بألسنة اللهب الحمراء.

رأينـا قبالـة المخبـز مزرعـة بقـر يبيعـون فيهـا الحليـب واللبن والزبـدة البلديـة. انفرجـت أسارير فاطمة لما رأت ذلـك، وانتابني الشعـور نفسـه عندمـا رأيت علـى رأس الشـارع دكانًا يبيـع الآش[1]. قلت لفاطمة: «غداً صباحًا أنت ضيفتي، سنتناول الآش معًا».

* * *

دخـل الغرفـة ممرّضات عـدّة، نَحَّـيْنَ الغطاء عن وجهـي ففتحتُ عينـي. سألتنـي الممرّضـة الواقفـة في الأمـام: «هـلْ أنـتِ بخير؟!». نظرتُ إليها مدهوشة وكأنّني قُذفتُ من عالم آخر وأُلقي بي إلى هذا السرير.

أتـتْ الممرّضة الثانية، ورفعت كُمَّ القميـص الرقيق الزهري اللون الذي ألبسوني إياه في غرفة الفحص وسألت:

- ألديكِ مشكلة؟ هل تشكين من شيء؟

لم أعـرف بمـاذا أجيـب. عندمـا رأت الممرّضـة عـدم إجابتـي ثبّتـت آلـة قياس الضغط حـول عضـدي اليمنـى ووضعـت السماعة في أذنيهـا وشرعـت في نفـخ الهـواء في آلـة الضغـط. ثـمّ حدّقـت بمؤشر الزئبق. رفعت السماعة عن أذنيها وقالت: «ضغطها 8».

نظرت الممرّضة الأولى إليّ بدهشة وقالت: «أين المصل الخاصّ بك؟». لا أعرف لماذا كنّ يسألنني أنا عن هذه الأمور. لم أجب.

ذهبت الممرّضة الأولى، وبعد قليل رجعت مع شاريو التمريض المليء بالأدويـة وأدوات الطبابـة، وشرعت في إعـداد المصل. أمّـا الممرّضة

1 - الآش: حسـاء شعبي يحتـوي على أنواع مـن الخضار والمعكرونة وحبـوب الفاصولياء الحمراء. (المترجم)

الثانيــة فأخذت الدفتر المعدني المعلــق على طرف السرير وقالت: «ألم تعاينكِ الدكتورة؟».

تبسّمت الممرّضة الأولى وهي تثبّت المصل في يدي وقالت: «من شدّة انشغالنا وسرورنا بابنك نسينا الأم!».

عندمــا وصلــت الممرّضة المصل بيــدي وحقنت فيه بعضــ الأدوية تبسّمــتُ قليلًا. ذكّرتنــي مشاهدة الحقــن باللوحة التــي رسمها علي عندمــا كان جريحًا في مستشفى ساسان؛ حيث رســم فراشة أُصيبت برصاصة في جناحها والدم ينزف منه.

سألــتُ: «كيــف حال الطفــل؟». وضعت الممرّضة يدهــا على كتفي، وأجابــت بابتسامة مُطَمْئِنَة: «حاله جيّدة! يا له من مشاغب! فقد شغل كلّ مــن في المستشفــى، ووالدتُــك الآن في غرفة حديثــي الولادة تحمل الطفل حتّى يتمكن الجميع من رؤيته من خلف الزجاج».

جمعــت الممرّضة أدوات الطبابــة ووضعتها على شاريــو التمريض وقالــت: «سيستغرق المصل مدّة ساعــة، لقد حقنّا فيه المسكّن، وسوف يغلــب عليــكِ النعاس». بعد خــروج الممرّضة، رحتُ أتأمــل الغرفة من جديــد، الساعــة المــدورة البيضاء الموجــودة على الحائــط تشير إلى الواحدة والنصف. أردتُ النهوض لإطفاء لمبة الفلورسانت المستقرة في السقف.حاولــتُ فلم أستطع. شعرت بالملل. لماذا لا تأتي أمّي؟! لماذا لم أَنَم؟ صــرتُ أتأمّل قطرات المصل التي تسقط بهدوء في الأنبوب لتصل إلى يــدي. كلّ شيء هادئ وساكن. نظرتُ إلى السرير الخالي الموضوع علــى يساري، لو كان «علــي» موجودًا؛ هل كان سيبقــى بجانبي اللّيلة؟ وينام على هذا السرير مثلًا؟ أو سيكون في الجبهة والعمليات؟ تمنّيت أن يعود الزمن إلى الوراء. يا لها من أيّام عشناها في مدينة دزفول!

تذكّــرت ذلك اليوم: الثلاثاء 24 دي (14ك2). كنتُ وفاطمة نكنس

المنزل وننظّف الجدران والسقف ونمسح الغبار والتراب. مهما حاولنا لم يأخذ المنزل شكله كبيت عادي. كان ينقصه الكثير من الأشياء فلا ستائر، ولا سجادَ كبيراً يغطّي أطراف وجوانب الغرفة، لا أدوات للعيش فيه. قمنا بأمور كثيرة، ومهما فعلنا لم يجدِ نفعًا.

قرابة العاشرة صباحًا طُرق الباب. ظننتُ أنّه الجندي الذي يأتي يوميًّا لتفقّدنا. تأزّرت بالعباءة وتوجهت إلى الباب. سألتُ: «من؟». كان صوتًا لا نعرفه:

– «أنا مساعد علي، سعيد صداقتي».

ما زلت عندما أتذكر ذاك اليوم وأتذكر أحداثه، أقول في نفسي: ليتني لم أذهب إلى الأهواز! ليتني لم أكن في البيت ولم أفتح الباب، لسارت أوضاعنا على نحو مختلف، لكن، وا أسفاه! فتحت الباب، ورغم أنّني لم أكن أرغب في الذهاب وأحسست بضرورة رفض ذلك ومقاومته إلّا أنّني قبلت وذهبت إلى الأهواز مع سعيد صداقتي.

* * *

وقفتْ ممرّضة عند رأسي تنظر إليّ مبتسمة، ثمّ حلّت عقدة المصل، فنزلت قطراته الأخيرة متسارعة في الأنبوب. رفعتِ الممرّضة الغطاء عنّي ووضعته جانبًا. شبكت أصابع كفّيها على شكل كمّاشة وراحت تضغط على بطني بقوّة وإحكام. شعرت بألم شديد يعتملُ في بطني. مرّة أخرى ومن دون أن تلتفت الممرّضة للألم الذي أقاسيه، راحتْ تضغط على بطني بكلتا يديها بنفس الطريقة التي يحاولون فيها إنعاش قلب المريض. صرختُ من دون إرادة منيّ. وضعت الممرّضة الغطاء على صدري وقالت: «لقد انتهى. أعتذر منك، لكن كان ذاك ضروريًّا».

هززْتُ رأسي بالإيجاب. نزعت المصل من يدي ووضعَته في سلّة المهملات. دخلت أمّي الغرفة وبيدها باقة زهور ووضعتْها على الطاولة

بـين السريرين، ووقفت بجانبي وقالت: «حبيبتي فرشته، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟».

كان بطنــي يؤلمنــي بشــدّة؛ أجبتها وأنــا على هذه الحــال: «نعم أنا بخير».

انهمكـت أمّــي بترتيب ما حولي مـن سرير وغطـاء، كذلك عدّلت مقنعتــي وقالت بسرور: «يا له من صبيّ! ما شاء اللّه! كالوردة! والناس يتصلـون للاطمئنـان عنـكِ، لقـد اتصلـوا مـن مكتب إمـام الجمعة والبلدية، ومسؤولون آخرون من أمكنة أخرى و...».

نظرتُ إلى أمّي وأنا أكتم غصّة في صدري. تمنيّت من أعماق قلبي لـو أنّ علي حاضرٌ أيضًـا ويتّصل عبر الهاتف. ليته كان بيننا. خنقتني العـبرة، كـم وددتُ لو أنّ أمّــي تطفئ الأنوار وأنــام وأرى علي في عالم الرؤيا، أو أن أغمض عينيّ وأعاود مشاهدة ذكرياتي معه.

حملـت أمّي ورود زنبق الكلايـون الأبيض من على المنضدة وقالت: «تنشّقي».

تذكّـرت يـوم وداع وتشييع جنازة علــي. كان وجـه التابوت مغطى بالــورود، وحديقــة الروضــة مليئة بأكاليـل الزنبق الأبيـض. بدا علي كفراشة تطير وتتنقل بين كلّ تلك الورود وباقات الزهور.

فتحــت أمّي برّاد الغرفة الصغير وقالت: «حبّــذا لو يوجد إبريق أو أيّ شيء نضع فيه هذه الورود كي لا تذبل».

سألتُها: «هل يتساقط الثلج في الخارج؟».

تقدّمت أمّي إلى حافة النافذة ونظرت إلى الخارج والورود بيدها.

– لا، لكـن إذا لم تتساقـط الثلوج اللّيلة، ففي الصبـاح ستتساقط وتكسو الطبيعة ثوبها الأبيض.

تذكّـرت ثلوج السنــة الماضية القاسيــة. قلتُ: «أمّــي، هل تذكرين الثالــث من بهمن السنــة الماضية؟ كان يوم جمعة. جـاء أصدقاء علي وأحضروه معهم من أصفهان، يا له من يوم سيّئ!».

لم أرَ الـورود في يد أمــي. لم أعرف ماذا فعلت بها! جاءت واستلقت على السريـر الآخر وقالت: «ألن تنامي؟» أجبتهـا بشيء من الاستياء: «أمي!».

التفتت إلى استيائي، وقالت:

- روحي، عزيزتي!

- هل تذكرين؟

- كيف لا أتذكر يا عزيزتي! بالتأكيد أذكره يا ابنتي الحلوة! يا لها من ثلوج كثيفة تساقطت على الأرض ويا له من صقيع يجمّد الدم في العروق. جاؤوا به إلى بيتنا. مددتُ له فراش النوم قرب المدفأة حتّى لا يصاب بالزكام، وأعددتُ له مرق الدجاج. كان يأكل ويقول: «سيّدة وجيهة، يا له من حساء لذيذ! سلمت يداك». انهمرت دموعي بشكل لا إرادي.

- أمّــي، لقد قاســى علي الكثير من الشدائــد، ففي ذلك الوقت لم أكن أخبرك حتّى لا تنزعجي ولا تغتمي. لكنّني عانيتُ كثيرًا.

وضعتْ أمّي رأسها على الوسادة مستديرة نحوي ويدها تحت خدها الأيمن.

قالــتْ: «أَجرُكِ مع الإمام الحسين عليه السلام، أَجرُكِ مع إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف إن شاء اللّه».

حدّقــتُ بالسقف وبلمبــة الفلورسانت فوق رأســي. فكرتُ في حجم هــذا الكم الهائل من الأحــداث التي تسارعت. نظـرتُ إلى أمّي، وقد

غلب عليها النعاس وهــي مستلقية على جانبها الأيمن من دون غطاء. احترق قلبي لأجلها. نزلتُ عن السرير بمشقة وغطيّتها، قبّلتها كالعادة في رقبتهــا، يا لها من رائحــة طيبة تفوح منها. أطفأتُ نور الغرفة. بدأ الثلج يتساقط شيئًا فشيئًا.

عندمــا استيقظتُ صباحًا نظرت إلى سرير والدتي فوجدته خاليًا، ولفت انتباهي الغطاء الملقى على أرض الغرفة حيث كانت تصلّي. قلت بصوت خافت: صباح الخير.

عندمــا أنهت صلاتها، حملت السُبحــة وتقدّمت نحوي ووقفتْ إلى جانب السرير. أخذت بيدي وقالت:

- صباح النور يا عزيزتي، هل أنتِ بخير؟؟

- الحمد لله، أنا بخير.

بــدا لي وجه أمّــي ضجرًا مغمومًــا. ظننتُ أنّ ذلــك بسبب المقنعة والثوب الأسودين اللذين ترتديهما، أو لأنّها لم تنزع الشعر الزائد عن وجهها وحاجبيها؛ أو ربما كانت منزعجة من شيء آخر.

- سألتها: أمّي، كيف حال الطفل؟

ضحكتْ:

- إنّه بخير! في الصباح الباكر ذهبتُ وألقيتُ نظرة عليه. كان نائمًا كالملاك، وماذا عنكِ؟ كيف حالكِ؟ ألستِ بخير؟!

أومأتُ برأسي وقلت: «لا، أنا بخير» سألتها: «أبي، رؤيا، نفيسة، هل هم بخير؟!».

افترّ ثغرها عن ابتسامة لطيفة وقالت:

- الجميع بخير! سأتصل بهم بعد ساعة أو ساعتين لتتحدّثي إليهم.

تريّثتْ قليلًا، وكأنّها تذكّرت شيئًا، وقالت: «الحمد لله، لدينا هاتف الآن، وهذا الأمر سيريحنا».

في دزفول، كنت أذهب إلى مركز الاتصالات كلّما اشتقت إليهم، واتصل بمنزل السيّدة «سكينة روغني»، الواقع في أول الزقاق الذي يفصله عن بيتنا 8 منازل. كان الأمر يستغرق وقتًا طويلًا حتّى تأتي والدتي، أو أيّ أحد من أسرتي ليجيبوا على الهاتف، لكن، في النهاية تعلّمت أنّه عندما أريد محادثة أهلي أتصل بمنزل السيّدة «سكينة» وأقول لهم: «لو سمحتم أخبروا والدتي أنّني أريد التحدّث إليها»، ثمّ أقطع الاتصال لأعاود ذلك بعد نصف ساعة.

جلستْ والدتي على السرير وفي يدها سبحة تشتغل فيها بالذكر والتسبيح.

قلتُ لها: «أتذكرين عندما كنت أتصل بمنزل سكينة؟ كدتُ أستشهد في إحدى المرات!».

أوقفت أمّي تحريك السُبحة في يدها ونظرتْ إليّ بوجلٍ. ضحكتُ وقلتُ:

- لا تخافي! ها أنا لم أستشهد.

أومأت أمّي برأسها وهي تحرّك السُبحة بيدها:

- داهيةٌ أنت!! لطالما قلتِ إنّك بخير ومرتاحة البال والأمور تجري على أحسن ما يرام، وإنّكِ تمضين أوقاتك مع رفيقاتك، تستضفن بعضكن بعضاً بالتناوب.

- لم أكذب عليكِ. كنّا نجتمع معًا، ويستضيف بعضنا بعضًا، لكن، هذه الأمور المقلقة كانَت موجودة أيضًا. ففي أحد الأيّام مرضتُ، وقضّ ألم بطني مضجعي، وكان علي قد غادر المنزل منذ أسبوع. استفقتُ

صباحًا على ألم في بطني واستمرّ حتّى المساء. لم تتوانَ فاطمة المسكينة عن القيام بأيّ عمل لأجلي، لكن من دون جدوى. كنّا في منتصف الأسبوع وانقطع أملي بشأن عودة علي في ذلك اليوم. لمّا حلّ اللّيل؛ قلتُ في نفسي: إذا انتصف اللّيل وساءت حالي أكثر فماذا سأفعل؟! تمنيتُ في لحظة أن ليته كان يوم خميس أو جمعة ويأتي علي. أقسم لكِ يا أمّي أنّه في تلك اللحظة نفسها سمعت صوت سيارته في الزقاق. أظن أنّ الساعة كانت 2:30 بعد منتصف اللّيل. عندما دخل الغرفة ورآني على تلك الحال دُهش مع أنّه كان في حال يرثى لها، ووضعه أسوأ من وضعي؛ كان معفّرًا بالوحل والتراب، والتعب باد عليه؛ عيناه متورمتان ووجهه منتفخ وكأنّه لم يذق طعم النوم أسبوعًا كاملًا. سألني: ما بك؟ أجبته: «منذ الصباح وبطني يؤلمني بشدّة». كان سائقه قد غادر. رجع علي عن الباب فورًا وذهب إلى أحد الجيران «السيّد صدّيق». أخذ سيارته، وأخذنا أنا وفاطمة إلى المستشفى. قال لي أمام المستشفى: «عزيزتي، أنا متعب جدًّا، أتذهبين وحدك؟». أطفأ محرّك السيّارة وألقى برأسه على المقود وقال: «إذا واجهتكِ أيّ مشكلة أخبريني». قام الدكتور المناوب بفحصي وقال: «يحتمل أنّه عارض الزائدة الدّودية». كتب بعض الفحوصات المخبرية وطلب إجراءها فورًا. أُجريت الفحوص، بعدها رأى الدكتور النتيجة وقال: «الحمد للّه لا شيءَ مهمًّا». كتب وصفة أدوية: حبوب وشراب. رجعت بعد ثلاث ساعات ومعي كيس أدوية. عندما وصلتُ إلى السيّارة وجدتُ علي نائمًا بالطريقة نفسها التي تركته فيها، فدته نفسي! كان رأسه على المقود وقد غطّ في النوم. أيقظته، فأدار محرّك السيّارة وانطلقنا. ولأنّني شعرت بالارتياح، صرتُ أرى الشوارع وكأنّني أراها لأوّل مرة. كانت ليلة 15 شعبان. رغم أنّ المدينة كانت خالية ولم يبقَ في دزفول

إلّا القليل، فقد زينوا الشوارع ببهجة ونشاط استثنائيين ووضعوا وسط الطريق زهريات الـورود وعلب الحلوى احتفـاءً بالعيد. كانت الحلوى تقتحـم نوافذ السيارات، وازدانت أغصان الأشجار بالشرائط الملوّنة. شعرت بسعادة عارمة، وأومأت لعلي: «اُنظر هناك، اُنظر هنا؛ كم هي جميلـة!». عندما لاحظ سروري وابتهاجـي، جال بالسيّارة في الشوارع رغـم تعبه وهو يقـول: «إن أعجبـكِ، فانظري أكثر». طـال بنا الوقت كثـيرًا ونحن نجول بالسيّـارة. وعندما رجعنا إلى البيـت رأينا السيّد هادي واقفًا في أول الزقاق، أمام الباب، فزينب قد أفسدت عليه نومه.

نهضت أمّي لتجمـع سجادة الصلاة. كنتُ جائعة. شعرت أنّ بدني بتمامـه يرتجف وهنًا وضعفًا. رفعتُ الغطاء عنّـي بصعوبة حتّى أنزل عـن السرير. أحسست بدوار عجيـب وأنّ قلبي قد توقّف والغرفة تدور بـي. كنـت أبحث عـن الخفّ الموجـود على الـدرج المعـدني الصغير. أحسسـتُ أنّ قلبي لم يعد ينبض. زاغـت عيناي، وبصعوبة بالغة قلت: «أمي...»، فهرعت وأمسكت بيدي:

- ماذا حدث فرشته؟! لماذا انخطف لون وجهك؟! ماذا حلّ بكِ؟!

فقـدتُ الإحساس بـكلّ جوارحي. كنت كمن لا يـرى شيئًا. مدّدتني علـى السريـر وأسرعتْ إلى الخارج. بعد قليل عُـدت إلى وعيي. كانت بضـع ممرّضات يقفن إلى جانبي، وصـرتُ أسمع صوتَ أمّي: «افتحي فمك حبيبتي، عزيزتي فرشته».

فتحتُ فمي، فـإذا بعصير الفاكهة الحلو المـذاق يجري في بلعومي جرعـةً بعـد أخرى. شربتـه بنهم شديـد، فدبّت الروح مـن جديد في عروقي وبـدني. قالت الممرّضـة لوالدتي: «ضغطها مُتـدنٍ جدًّا. ليس الأمر مهمًّا، لديها ضعف. شجّعيها لتأكل فطورها».

أدنـت أمّي طاولة الطعـام (المخصّصة للمريضـ) منّي وأطعمتني قطعة خبـز ومربى. كانت شفتاي ترتجفان كالجائعين المنكوبين، وكأنّني لم أتناول شيئًا منذ سنوات. وضعت اللقمة الثانية، فالثالثة ثمّ أدنت كوب الحليب من فمي. سرت رائحة الحليب الساخن المغلي في مشامّي فقالت:

– لقد حلّيته.

كانـت يد أمّي ترتجف وهي تضع كوب الحليب على شفتيّ. أمسكتُ الكـوب بكلتا يديّ، وهمـا ترتجفان، فصار الكـوب يصطك بأسناني، أمسكتْه أمّي بإحكام لأشربه على مهل.

قالـت أمّي: «نسيت أن أخبرك، لقـد اتصلت البارحة فاطمة والدة زينب، وسألت عنك وعن أوضاعك».

كلما سمعت باسم فاطمة تذهب بي ذاكرتي إلى دزفول. مع أنّنا كنّا تحت القصف والنار إلّا إنّها كانت أجمل أيّام حياتنا.

وضعـت أمّي لقمة مربّى في فمي على مهـل وقالت: «هل تحسّنتِ يا ابنتي؟».

كنـت عاجزة عن قول شـيء، فجسمي كان ما يـزال يرتجف، وكل مـا كنت أرغب فيه هـو أن ألتهم طعام الفطور الموضـوع على الطاولة بأكملـه. لم تجبْ أمّي بشيء، وتابعت عملهـا بهدوء في تحضير اللقمة التالية.

ضحكتُ؛ فقالت أمّي: «ماذا جرى؛ لماذا تضحكين؟!».

– «تذكّرت دزفول؛ يا لها من أوقات جميلة!».

قالـت أمّـي وهـي تطعمني ما تبقى مـن طعام الفطـور: «كما كنتِ تخبرينني في السابق ها؟!».

– «كلّا، أقسم لكِ إنّني صادقة في ما أقول».

ابتسمت أمّي وقالت: «حسنًا، لا تقسمي فأنا أصدّقك، دزفول مدينة جيّدة. عندما زرناك السنة الماضية أمضينا وقتًا ممتعًا. يا لذكرى علي الطيبة!...».

مضغتُ اللقمة.

- يا لذكراه الطيّبة يا أمّي! حسنًا فعلتِ أنّك ذهبت إلى هناك. لقد أمضينا وقتًا ممتعًا حقًّا. عند الغروب جلستُ وفاطمة على الدرج في فناء الدار، كنّا ضجرتين نفكر ماذا نعدُّ للعشاء.

قالت أمّي: «لقد أعددْتِ يومها يخنة الفاصولياء».

- صحيح، فأنا أحبها. لكنّ فاطمة قالت إنّها ثقيلة على المعدة ليلًا. قلتُ لها: لا بأس.

- مسكين علي فهو لا يحب يخنة الفاصولياء!

- وضعتُ كوبًا من حبيبات الفاصولياء في الطنجرة، ثمّ ضحكتُ في نفسي وقلتُ: يا لسوء حظي إن أتى علي هذه اللّيلة تحديدًا. مسكين، لم يكن يكره طعام الفاصولياء وحسب، بل كان يكره كلّ طعام يصيبه بالنفخة. كانت معدته تتأذى، ويتألم كثيرًا. يا لذكراه الطيبة.. قطّعت فاطمة ثلاث أو أربع بصلات كبيرة، فانهمرت دموعنا ونحن نتكلّم. حمّرت فاطمة البصل بالزيت على النار بينما قليت أنا اللحم المفروم. كنت أطهوه على موقد غاز ذي شعلة واحدة[1]، بينما كانت فاطمة تطهو على موقد الغاز الخاصّ بها.

عندما فتحت غطاء القدر رأيت عجبًا! كانت حبّات الفاصولياء قد انتفخت وتضاعف حجمها. قلت ضاحكة: «فاطمة، هل سنأكل أنا وأنتِ كلّ هذه الفاصولياء؟!».

1-غاز التخييم أو غاز الرحلات.

سمعنـا من ناحية الزقاق ضجيجًا وجلبـة؛ كانوا ضيوف الجيران. قالت فاطمة بحزن: «ليت أحدًا يأتي إلينا!». كنّا نمزح ونخطط لسرقة ضيوف الجيران حين وصلتم أنتم.

ردّت أمّـي: «لقـد كانت الكهربـاء مقطوعة. أتينا بسيّـارة والدك. عاشـر أيّـام عيد النوروز. لقـد قررنا المجيء فجأة. جـاء عمك أيضًا معنـا. جلسنـا أنا، نفيسـة ورؤيا في المقعد الخلفـي وسرنا، لم نكن قد ذهبنـا إلى دزفـول من قبل فطفنـا وجُلنا كثـيرًا حتّى وجدنـا حي الـ «500 جهـاز»، كذلك وجدنا ميدان «الفتح المبـين»، أمّا شارع «كلستان يازدهم (الروضـة11)» فلـم نعـثر عليه أبـدًا. كنّا ندور حـول أنفسنا ونسـأل كلّ من نلتقـي به عن «الروضة 11» مبنـى 215؟». كان الظلام يلـفّ المـكان، ولم نستطـع رؤية شـيء، لم يجـرؤ والدك علـى إضاءة مصابيـح السيّـارة. فجأة، رأينـا سيّارة مضـاءة المصابيح تتبعنا من الخلف. توقّف والدك فرأينا أنّ تلك السيّارة تعود لعلي.

– كنّا نجلس في الفناء نسمع ضجيجكم، لكنّنا لم نصدّق.

قالت والدتي: «ما أجمل تلك الأيّام!».

– عندمـا فتحت باب المنزل ورأيتكم اجتاحتني فرحة كبيرة، وكأنّ الدنيا قد أعطيت لي! فيخنة الفاصولياء لن تُرمى هدرًا.

ضحكت والدتي وقالت: «أيتها المشاكسة! هل تذكرين كيف انهمكت في إعداد الأرز واليخنة لصهري».

جمعت أمّـي صينية الفطور وقالت: «غداة ذلـك اليوم ذهب أبوك وعمُّك وعلي إلى الجبهة، ونحن ذهبنا إلى مقام سبز قبا[1]».

1- آقـا سبزه قبا: أخو الإمام علي بن موسـى الرضا‎‎. وقد خرج من المدينة إثرَ الظلم والجـور الذي قاساه من الحكومة العباسية وبهدف تبليـغ وترويج تعاليم الدين والإمامة. توفيَ غريبًا عن الوطن عن عمر 19 سنة. وما زال قبره في دزفول إلى الآن.

تنهدّتُ لسماعي هذا الكلام.

– بعــد مغادرتكــم في يــوم الطبيعــة[1] ، شعــرتُ وكأنّ حــزن الدنيا وغمومهــا قد صُبّتْ علــى رأسي. عندما رأى علي شدّة كآبتي لم يذهب إلى الجبهة، وبقي يسلّيني حتّى وصلتم إلى همدان.

في اللّيــل توجّــه علي إليّ قائــلًا: «أظــنّ أنّ والدَيك قــد وصلا إلى همــدان، انهضي واتصلي ببيت السيّدة سكينــة، وتحدّثي إلى والدتك قدر ما ترغبين».

بعــد أن جمعت أمّــي صينية الفطــور شعرتُ بتحسّــن. نظرتُ نحو النافــذة؛ حيــث يتساقــط النفنــاف مخلفًّــا منظــرًا جميــلًا. تنفسّ الصبــح وأضــاء السمــاء. كنــت أشعر برغبــةٍ شديدة في رؤيــة ابني. صــرتُ أتمتــم: «علــي، هــل رأيــت ابنــك؟!»، وتفطّــر قلبــي لذلــك. كلمــا راودتني فكرة أنّ علي لن يكــون بيننا، وأنّ طفلي يتيم الأب، كان ينتابني حزن عميق، وتخنقني العبرة ويرتجف جسمي. هل يمكنني أن أربّي طفله وحدي؟ احترق قلبي لأجل الطفل! مرّة أخرى رأيت علي في الغرفة وهو يضحك. كنت أراه أينما يجول نظري: إلى جانب سرير أمّي، قرب النافذة، أمام سريري، خلف النافذة. تحت الثلج الجميل المتساقط، وكأنّ علــي قــد تكاثــر بحجم قطع الثلــج. تجمّع الثلج قــرب النافذة، وفاحــت رائحة عطــره في الغرفة، رائحة شبيهة بعطــر شجر الليمون. فاحت رائحة الربيع في الغرفة. كانت رائحة جسد علي. ناديته: «علي، عليك أن تهتمّ بنا نحن الاثنين؛ أنا لا أستطيع ذلك وحدي».

شعــرت أنّ علي يضحك، ويومئ برأسه كالعادة ويقول: «على عيني

1- يوم الطبيعة: يطلق عليه في إيران «سيزده به در» وهو اليوم الثالث عشر من شهر فرفردين الشهر الأول في التقويم الشمسي. في هذا اليوم تخرج العائلات إلى الطبيعة.. (المترجم).

وردتي، على عيني». تنشقتُ مع هذه الأفكار نَفَسَ الراحة والانشراح، ارتحتُ قليلًا وسُرِرْتُ.

* * *

أشارت الساعة إلى الـ 11:30 صباحًا. لم أصدّق أنّني نمت كلّ هذا الوقت. لم تكن أمّي في الغرفة، رأيت ورود زنبق الكلايون الأبيض موضوعة على البراد في وعاء بلاستيكي، والثلج قد توقّف. أمّا السماء فلا زالت ملبّدة ومكفهرة. كانت ستائر الغرفة البنفسجية قد نُقشتْ بالأزهار الناعمة البرتقالية والوردية والصفراء؛ وقد جُمعت أطرافها بإحكام. بدت الغرفة نظيفة ومرتبة تعبق فيها رائحة طيبة. نهضتُ وجلست على السرير. شعرت بحال جيّدة؛ فلم أعد أشعر بالنعاس وزال الألم عني. حدّقتُ بالنافذة وستارتها الجميلة. يا لهذه الستارة كأنّي رأيتها سابقًا! يا لذكرى تلك الأيّام! لقد اشترينا لمنزلنا في دزفول ستائر مشابهة لها.

نزلتُ من على السرير وتقدّمت نحو النافذة، أمسكتُ الستارة بيدي وشممتها، هي رائحة دزفول تنبعث منها.

رجعتُ ووقفت على باب الغرفة. بدا ممر المستشفى الطويل والنظيف أمامي خاليًا من أيّ أحد. كانت أمّي واقفة إلى جانب قسم الممرّضات وتتكلّم عبر الهاتف. عندما رأتني تبسّمت ولوّحت إليّ بيدها. كان قميصي الطويل الزهري اللون يُجرّ خلفي على الأرض. وضعت أمّي سماعة الهاتف وأقبلت نحوي. ما إن اقتربت حتّى قالت: «عزيزتي، ها استيقظتِ من النوم؟!». تبسّمتُ وقلت: «نمتُ كثيرًا». أخذت بيدي وقالت: «منذَ الصباح وأنا أجيب على المكالمات. قلت لهم إنّك نائمة، ولا تحوّلوا المكالمات إلى الغرفة». سألتها بدهشة: «لماذا يا ترى؟!».

أخذتني إلى حيث المرحاض وقالت:

- اغسلي وجهك، لتستعيدي نشاطك؛ هل غسلته؟

لم أكن قد غسلتُ وجهي بعد. فتحت أمّي باب المرحاض. كان كلّ شيء فيه نظيفًا لامعًا. فتحتُ صنبور الماء. قالت: «تَرِدنا مكالمات من العائلة والأصدقاء والجيران والمعارف، حتّى إنّه تردنا مكالمات من أفراد لا نعرفهم؛ كذلك اتصل عمك، زوجته، وخالك.. وكلّهم يريدون الاطمئنان عنكِ».

رأيتُ نفسي في المرآة باهتة اللون، والوهن بادٍ عليّ، وقد تجوّف تحت عينيّ. غسلت وجهي. ظننت أنّ الوقت قد طال لقرن من الزمن، وأنا ذاهلة لا أعرف شيئًا. خرجت من المرحاض وسألتُ أُمّي:

- مع من كنتِ تتكلّمين؟

- مع وحيد، ابن عمك.

ما إن سمعت اسم «وحيد» حتّى تمتمتُ بشكل لا إرادي: «وحيد؟ مسكين!».

جلستُ على السرير. تذكّرت تلك اللّيلة عندما أتى علي بوحيد إلى دزفول. أمسكتْ أمّي بيدي وقالت: «تمدّدي فرشته».

- «إلى متى سأبقى هنا؟ لماذا لم يأتوني بالطفل بعد؟!».

- «إلى صباح الغد».

اعتراني قلق، فسألتها: «هل هو بصحّةٍ جيّدة؛ هل أصابه مكروه لا قدّر اللّه؟! قولي الحقيقة؟».

ألقت أمّي الغطاء عليّ وقالت:

- ها قد عدتِ إلى الدلال مجددًا! أقسم باللّه إنّني أخبرتك

الحقيقة. أتريدينني أن أكذب؟!

أغلقتُ جفوني. نشّفتْ أمّي الماء عن وجهي بالمنشفة، وعدّلتْ مقنعتي وأنزلتْ كُميَّ القميص إلى الأسفل. احتضنتها وقبّلتها في عنقها. يا لها من رائحة طيبة!

– سيأتون بعد الظهر لزيارتك.

انشغلتْ أمّي بترتيب السرير. شعرت بإحساس سيئ ولحظات قاسية. لم أكن أتصور لحظةً واحدة أن أنام على هذا السرير من دون أن يكون علي موجودًا. كلّما تذكرت تلك الأيّام رأيت علي إلى جانبي أيضًا..

يا لتلك الأيّام السعيدة التي كنت أتخيّلها وأرسمها. لم أكن أتصوّر أبدًا أن يكون الجميع في عزاءٍ عندما يولد طفلي. فهل يوجد أقسى من هذه الأيّام؟ قالت أمّي: «فرشته؟ هل أنتِ مستيقظة؟».

كم نفتقدك يا علي. كم أشتاق إليه! لكم أنا بحاجة إلى يديه الدافئتين. كم التاع قلبي، وكم كنت بحاجة إلى البكاء، البكاء طويلًا من كلّ أعماق وجودي!

قالت أمّي: «أبهذه السرعة استسلمتِ للنوم؟».

لم أفتح عينيّ؛ ولم أُجبها حتى. مع أنّ عينيّ مغلقتان، شعرت أنّ والدتي تجلس على السرير. سمعتُ صوت سحّاب حقيبتها. منذ اللحظة التي أصبحتُ فيها أمًّا ازداد عشقي وحبي لأمّي أكثر. فقد تفطّر قلبي لأجلها. كنت أكره أن أرهقها، أو أن أزعجها ولو للحظةٍ واحدة.

فتحتُ عينيّ ونظرت إليها خلسة بنحو لا أثير انتباهها. رغم أنّها لم تكن تجلس قبالتي إلّا أنّني رأيتها كيف كانت تتأمل صورة بين يديها وكتفاها تهتزان من البكاء. وضعت الحقيبة على صدرها، وكأنّها تُتمتم شيئًا ما. ظننتُ أنّها صورة لعلي. لقد ضاق صدري واكتوى قلبي

شوقًا إليه. انتابني شعورٌ عجيبٌ وثقيل، كأنّي لا طاقة لي على تحمل غيابه لحظة واحدة. كنت أشعر أنّني سأموت حتمًا ما لم أره في تلك اللحظة. وددتُ أن آخذ الصورة من بين يديها بأيّ طريقة. سألتها: «أمّي، ماذا تفعلين؟».

ارتعدتْ فرائصها وأخفت حقيبتها تحت وسادتها بسرعة. قلتُ: «كانت تلك صورة علي؟ هاتِ لأراها».

لم تجبْ ومسحت دموعها بسرعة. قلتُ والعبرة تخنقني: «أمّي، أقسم بربي أنّ قلبي يحترق شوقًا إليه!».

التفتت نحوي وتظاهرت أنّها لم تفهم كلامي ثمّ قالت: «صورة؟ أيّ صورة؟!». بدت عيناها حمراوين من البكاء. كانت تحمل في حقيبتها على الدوام «ألبوم صور» متنقلًا؛ تضع فيه صور: رؤيا، نفيسة، أنا، أبي، خالي ووالداها. منذ حوالي السنة أضافت صورة علي إلى ألبومها. قلت: «أمي؛ بالله عليكِ أعطنيها لأراها!».

وكأنَّ قلبها قد تفطّر عليّ. أخرجتْ حقيبتها من تحت الوسادة مكرهة ووضعتها قربي. كان علي يضحك من خلف لحيته وشاربيه الشقراوين، كانت هي الصورة نفسها التي وقف فيها إلى جانب زملائه في الجبهة بشالات سوداء حول أعناقهم. قصّت أمّي جوانب الصورة ليصغر حجمها ويظهر علي وحده في الصورة، ووضعتها إلى جانب صورتي. قلت: «هذه الصورة التقطت السنة الماضية في شهر شباط، في مناسبة الأيّام الفاطمية؛ عمليات «كربلاء 5». في تلك اللّيلة جاء علي إلى المنزل، ومعه لفافة من القماش الأسود وقال: فرشته، هل يمكنك أن تخيطي شالًا؟ أخذت لفافة القماش من يديه. سألته بدهشة: «أكلُّ هذه اللفافة من أجل شال؟!». أجاب: «اتفقنا أنا وشباب الوحدة أن نضع هذا العام شالًا أسود احترامًا للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام». فتحتُ اللفافة

وقلت: «حدّد لي طول الشال». قصصنا أول شالين معًا في البداية، ثمّ جاء السيّد هادي وفاطمة أيضًا. قاموا هم بقصّ الشالات، ورحت أنا أحيكها. في تلك اللّيلة بقينا نعمل حتّى طلوع الفجر تقريبًا. عند الصباح، بعد أن غادر علي والسيّد هادي، خطت أنا وفاطمة الشالات بالتناوب، لكنّ ماسورة الخيطان فرغت قبل إتمام العمل. فتشت عن خيطان في كلّ أزقة المحلّة، فلم أجد. في النهاية اضطررت إلى شراء مجموعة من خيطان الغزل اليدوي. كان عملًا شاقًّا. صارت الخيطان تنقطع والإبرة تتكسر باستمرار. خطنا الشالات بعد جهد جهيد. حينما عاد علي ليلًا فرح كثيرًا. أخذ شالًا ووضعه على رقبة السيّد هادي.

كنت أتحدّث إلى أمّي وأنا أذرف الدموع، بينما كانت تمسح دموعها بأصابعها. قالت لي وأنا مستلقية أتأمل في الصورة: «كفى فرشته!».

وضعتُ الصورة على صدري وقلت: «أعدكِ لن أبكي!»، لكنّني لم أستطع الوفاء بعهدي للحظة واحدة حتى. ثمّ أخذت أمّي الصورة منّي. دخلت الممرّضة وهي تدفع عربة الطعام، وقالت والبِشر يعلو وجهها: «سيّدة بناهي؟ هل أنتِ بخير؟».

مسحتُ دموعي بسرعة. نظرت إليّ بتعجب وسألتْ: «هل حدث مكروه؟!».

قالت أمّي بغصة وهي تدخل المحفظة إلى حقيبتها: «يا سيّدة، بالله عليكِ قولي لها كم سيتضرر الطفل إن أرضعته حليب الأحزان». نظرت الممرِّضة إليّ وقالت بلوم: «ستلحقين الأذى بالطفل ويسوء طبعه»، ثمّ ربّتتْ على كتفي وقالت: «سيّدة بناهي! والآن أصبح لزامًا عليكِ أن تعتني بشخصين!».

أجبتها: «لا شيءَ مهمًّا؟ اشتاق قلبي قليلًا وحسب».

مسحتُ دموعي وحاولت أن أبدو هادئة. وضعت الممرّضة طعام الغداء على المنضدة أمامي. كان عبارة عن الشوربا والأرز بلحم الكباب، ثمّ قالت: «الآن عليك أن تتناولي غداءك بشهية، وأن تأخذي قسطًا من الراحة، سيبدأ موعد الزيارات من الساعة 2:00، أنا متأكّدة من أنّك ستشعرين بروحية أفضل».

* * *

في 2 كانون الأول كانت عيني تحدّق في الساعة الدائرية الشكل على الحائط، وددتُ لو أنّ الزمن يُسرّع الوقت قليلًا وتصبح الساعة الثانية، لقد اشتقت إلى الجميع، فأنا لم أرهم منذ مساء البارحة.

دخلت السيّدة منصورة والسيّد ناصر الغرفة ومعهما باقة ورد كبيرة. عندما نظرا إليّ علت البسمة وجهيهما، لكن بدت عيونهما منتفخة وحمراء كالجمر. أدركت مدى صعوبة أن يريا حفيدهما ويفقدا ولدهما. عندما رأيتهما خنقتني العبرة، وأبت الدمعة أن تخرج أو أن تعود إلى مجراها.

شعرت بالحزن لأجلهما، كانا لا يزالان يرتديان ثوب الحداد، وحرقة افتقاد ولدهما أمير كانت ما زالت حَرّى، ناهيك عن لوعة افتقاد علي التي تلهب قلبيهما. تفطّر قلبي لأجلهما، فأنا أعرف أنّ رؤيتهما لي وأنا على هذه الحال ستؤجج أوار حزنهما وستضاعفه. يا لصبرهما!! لقد اشتقت إلى ولدي الذي لمّا يمضي يوم واحد على ولادته بعد، فكيف بهما؟! وأنّى لهما أن يتحملا فقد ولديهما؟!

جلسا على كرسيّين بلاستيكيّين بجانب السرير. وكعادته استعاد السيّد ناصر مرحه بسرعة فقال: «لقد ذهبنا ورأينا ابننا، إنّه نسخة طبق الأصل عن طفولة علي، إنّه توأمه».

كانت السيّدة منصورة قلقة بشأن جوع الطفل فقالت: «طلبتُ أن يحضروه لترضعيه. عزيزتي انتبهي، لا تدعي الصمغ الذي يدرّ في أول مرّة يذهب هدرًا، أرضعيه إيّاه رغمًا عنه ليقوى عظمه ويغدو كعليّ».

بعد قليل عجّت الغرفة بالزائرين. جلس معظمهم على سرير أمي. زارني الجميع غبًّا للاطمئنان إلى أحوالي وأحوال الطفل، ومن ثمّ ذهبوا لرؤيته في غرفة حديثي الولادة. قام والداي ورؤيا بواجب الضيافة وقدّموا الحلوى للزائرين. أمّا نفيسة التي كانت تعشق الأطفال، فمنذ وصولها ما انثنت عن الوقوف بجانب نافذة غرفة حديثي الولادة لمشاهدة الطفل.

امتلأ البرّاد والطاولة بالحلوى والورود وعلب العصير. كان العديد من الزوار يعودون إلى الغرفة بعد مشاهدة الطفل، ويروون ما شاهدوه في غرفة حديثي الولادة.

بعد سماع وصفهم إيّاه تاق قلبي كثيرًا إلى رؤيته في أقرب وقت. قرابة الساعة الرابعة أُذيع من غرفة الاستعلامات أنّ موعد الزيارة أوشك على الانتهاء. ودّعنا الحاضرون واحدًا تلو الآخر وغادروا. وبقي في الغرفة والداي والسيّد ناصر والسيّدة منصورة فقط. كان السيّد ناصر حسن العشرة، مرحًا ومزوحًا. روى لوالديّ قِصّة سفره إلى دزفول وزيارتنا هناك. فانجذب الجميع إلى حديثه وذكرياته التي سردها بدعابة.

قال: «كان لديّ موعد في المستشفى لإجراء تحضيرات عملية المياه الزرقاء في العين، لكنّ الحاجة منصورة صارت تلحُّ عليّ منذ الصباح الباكر حتّى المساء بقولها: «مسكينة فرشته، إنّها تقبع تحت القصف والصواريخ. سيّد ناصر، هي أمانة الناس بين أيدينا، اذهب وأتِ بها إلى هنا». ظلّت تلحّ وتلحّ حتّى أُرغمتُ على الذهاب إلى دزفول بدلًا

مـن الذهاب إلى المستشفى، ومهما قلت لها يـا عيني يا عمري لم يعد باستطاعتي الرؤيـة جيّدًا، وإنّ بصيص النور المتبقي في عيني هو منّة منّها اللّه على هاتين العينين لم يجدِ نفعًا.

في نهايـة الأمر قلنا يا علي[1] وانطلقنا. وصلتُ دزفول ليلًا، حيث لم أكن أرى شيئًـا بعيني. وجدني أصدقاء علي في الزقاق فأرشدوني إلى بيتـه. طرقتُ الباب. فتحـت السيّدة فرشته البـاب وسلّمت عليّ. قلت لها: من أنتِ؟ أجابت: «أنا فرشته يا عمي،كنّتكم». قلت لها: «إذا كنتِ كنّتنـا فمـاذا تفعلين هنا؟». أجابت: «يا عمي هـذا منزل ابنك علي!». قلـت: «هـراءٌ أن يكون بيت ابني هنا!». هيـا انهضي، نحن همدانيون. أحضـري أشياءك وأغراضك لنذهب إلى همدان. أمّا فرشته هذه!! لا أعرف كيف خدعتني وانطلـت حيلتها عليّ حتّى دخلت المنزل وجلست إلى مائـدة العشـاء. ثمّ حان وقت النوم. لم يكن هـذا البيت بيتًا، كان أشبه بجهنم!! قلت: يا عزيزتي، أنا في عزّ الشتاء أنام في الفناء فكيف في الصيـف؟!! الطقس حـارّ جدًّا! فقالـت كنّتي: «يا عمّـاه لا يمكنك النـوم في الفناء. فالمكان غير آمن، قـد يقصفون المنطقة في منتصف اللّيل». قلت لهـا: «لا أبدًا، لن يقصفوا». تجادلنا، وفي النهاية رضختُ للأمر ونظّفت الفناء. لكنّها أردفت: «يا عمّاه توجد عقارب في الفناء». أجبتها: «بُعٌ بُعٌ أتخيفينني من العقرب؟!!». لن أطيل عليكم أكثر. نمت في اللّيل. وعندما أفقت في الصباح الباكر، صلّيت وذهبت إلى مزرعة بقـر في الزقاق المجاور، اشتريت الحليـب والقشطة مع الخبز الطازج وانقلبـت عائدًا. عندما وطئت قدمي أرض الفناء وجدت فرشته كنّتنا تقـف عند طـرف الفراش حيث كنـت نائمًا تحمل بيدهـا خفًّا، ما إن رأتني حتّى قالت: «اُنظر، قلتُ لك لا تنم هنا يا عمّي، يا له من عقربٍ

1- أي الشروع في العمل بالتوكل على اللّه العليّ. (المترجم)

كبير!». قلتُ: «لاااا يا عزيزتي لا تقتليه. إذا كان المسكين في فراشي اللّيلة الماضية ولم يؤذني فلماذا نؤذيه نحن؟! هل أنتِ من أعطاه الحياة حتّى تسلبيها منه. وهكذا وجدتني في الجبهة بدلًا من أن أعيد فرشته إلى همدان».

دخلتْ إحدى الممرّضات الغرفة، وأعلنت انتهاء وقت الزيارات مرّة أخرى. غادر السيّد ناصر مع أبي والسيّدة منصورة وهو ما زال يروي حكايته من دون أن يتوقّف عن الكلام والمزاح.

عبقتْ في الغرفة رائحة الورد الزكية. أينما ترسل نظرك في الغرفة تجد أكاليل ورد وباقات زهور الزنبق والقرنفل والكلايون...

في تلك اللّيلة نمت براحة أكثر من سابقتها.

عند الصباح، وبعد تناول الفطور، ساعدتني أمّي في ارتداء ملابسي. قالت: «لقد جاء أبوك وهو ينتظرك الآن في الصالة». وقفتْ إلى جانبي ممرّضتان تحملان معهما سلّة ورود وعلبة هدية ونسخة من المصحف الشريف. وطلب منها مدير المستشفى أن ترافقنا الممرّضتان إلى المنزل تقديرًا لنا كعائلة شهيد وتبريكًا بالمولود الجديد. جلست على كرسي نقّال، وتولّت الممرّضتان دفعه باتجاه الصالون. تقدّم والدي نحوي، وذهبت أمّي لتحضر الطفل.

في الخارج، سرت قشعريرة في جسدي بسبب البرد رغم أنّني كنت أرتدي ثيابًا سميكة. غطّى الثلج والجليد كلّ شيء، ولفحنا الهواء ببرده القارس. نزلتُ عن الكرسي بمساعدة الممرّضات، وركبتُ سيّارة كُتِبَ على بابها: «مستشفى فاطمية». رأيت أمّي من خلف زجاج النافذة تنزل على مهل من على درج المستشفى محتضنة القماط بين يديها. تريّث السائق لتنطلق سيّارة أبي فيتبعها. بدت الأشجار والأسطح والأرصفة والساحات في المدينة كأنّها قد طُليت بطلاء أبيض خفيف.

كان الطقس باردًا جدًّا.

مررنـا بمحطة عباس آباد، ودخلنا شارع «ميرزاده عشقى»، فرأينا قناديـل الثلج تتدلّى من الميازيب، والناس يمشـون على الجليد والثلج بحـذر. عندما عبرنا شارع «ميرزاده عشقى»، نظرت ثانية إلى زقاقنا بشـكل لا إرادي. عـبرت السيّـارة الشـارع بسرعـة، وقطعنا منعطف «السجـن». راقتني أصوات اكتساح إطـارات السيارات لطبقات الثلج، وأصوات تكسّرها وتحوّلها إلى مياه، وتطايرها إلى جانبي الطريق.

دخلنا شارع «ديباج»، ومررنا بجانب معهد «شهداء ديباج»[1] للتعليم المهني. دخلت سيّارة والدي بصعوبة محيط مجمع المهنية السكني؛ إذ إنّه لم يكن قد تمّ جرف الثلج بعد.

توقّفت السيّارة أمام المبنى رقم (6). ترجّل أبي من سيارته وتقدّم نحـو سيارتنـا، كان الجيران ينتظروننـا أمام شقّـة والد زوجي تحت الثلج في هذا الطقس البارد. وكان قصّابٌ يمسك برأس خروف يصدر ثغـاءً، وقد قطّع ثغاء الخروف نياط قلبـي. نُصِبت على جانبي البوابة لافتتـان، وصورة علـي بوجهه الضاحك ظاهـرة في كلّ واحدة منهما. رشّ أحد الجيران حبيبات البخّـور على الموقد فتصاعد دخانه بهدوء في الجـو البارد. تقدّمت الجـارات وسلّمن علـيّ وحضنّني، وانفجرت

1- الشهيـد رضـا ديباج، ولد فـي 1327/2/1 (22/4/1958) في همـدان، طالب جامعي في السنة الرابعة اختصاص علم النفس–جامعة شيراز، متأهل وله بنت. كان من المجاهدين الثوريـين. بتاريـخ 1351/4/17 (8/1972) اعتقل واستشهد تحـت التعذيب الوحشي لنظام الشاه في سجن عادل آباد شيراز بتاريخ1351/5/4. ودفن سرًّا في بهشت زهراء في القطعة (33) الصف الثالث.

الشهيـد السيّد حسين ديبـاج مواليد 1330/2/1 (22/4/1951) فـي همدان. طالب جامعي سنـة ثالثـة هندسة طرق وبنـاء في جامعة أمير كبيـر، اعتقل فـي 1353/2/20 على أيدي السافاك واستشهد بتاريـخ 1353/2/28 (11/5/1974) على أثر التعذيب القاسي في سجن (اوين) بطهران. ضريحه في القطعة (33) بهشت زهراء – الصف الثالث.

إحداهـن باكية عندما رأتني. تلاشى ثغاء الخروف. ألقيت نظرة على الثلج فرأيت أثرًا أحمر اللون يجري ويتصاعد منه البخار.

تقع شقّة عمي (والد زوجي) في الطابق الرابع. فكّرت في نفسي كيف سأستطيع صعود كلّ هذه الدرجات. أمسكت إحدى الممرّضتين بساعدي ورفع الجيران أصواتهم بالصلاة على محمد وآل محمد. أُلصق على المصطبة[1] الأولى للدرج إعلان أربعينية «علي»، الذي بدا في الصورة ضاحكًا. توقّفتُ وقرأتها: «الاثنين، 14/10/1366 (4ك2/1988) من الساعة 8 إلى 11:30، مسجد مهدية. ويقام مجلس للنّساء في القسم المخصّص لهن».

كُتب في أسفل الإعلان: وحدة استطلاع عمليات فرقة أنصار الحسين عليه السلام محافظة همدان، وعائلة الشهيدين أمير وعلي تشيت سازيان.

تابعتُ صعود الدّرج بتأنٍّ بمساعدة الممرّضتين. كان الجميع يصعد على مهل مراعاةً لوضعي. انتظرت «علي» كي ينزل من درج الطابق الرابع مسرعًا ضاحكًا وهو يردّد: «زهراء وردتي! عافاكِ الله. وردتي!.. وردتي!.. وردتي!..». لكم أحببتُ عبارته المعهودة هذه. مرّة أخرى توقّفت الغصّة في حلقومي، فلم تخرج ولم تهدأ. وبسبب برودة الطقس أسرعت أمّي في صعود الدرج، بينما الجارات اللواتي كنّ يَتُقْنَ إلى رؤية ابن علي تقدّمنَ أمامي. سألتُ الممرّضة: «في أيّ طابق نحن؟».

- الطابق الثاني.

أُلصق أيضًا على جدار مصطبة درج الطابق الثاني إعلان أربعينيّة علي. كان علي في هذه الصورة بلحية طويلة شقراء ينظر

1- سفرة الدرج.

إلينــا مبتسمًا. ارتجفت قدماي ولم يعـد باستطاعتي الصعود. عندما وصلنا إلى مصطبة درج الطابق الثالث توقّفتُ. فتحت إحدى الجارات باب بيتها.

– تفضّلــوا، سيّدة فرشته، تفضّلي إلى الداخل، استريحي قليلًا ثمّ نصعد معًا.

أجابتهــا إحدى الممرّضــات نيابةً عني: «لا داعــي إلى ذلك، ها قد وصلنا، لم يبقَ أمامنا سوى طابق واحد، سنصل بكلّ الأحوال».

ارتفعت أصوات الصلـوات في الطابق الرابع وعبقت رائحة البخور في الأجـواء ومـلأت فضاء الأدراج. ارتجفت قدمـاي من شدّة الوهن. لم أصدّق أنّنــي سأصل وأذهب إلى الغرفةِ وأجلس. عندما وصلت إلى مصطبة درج الطابق الرابع شعرتُ وكأنّ أُمْنِيّاتي كلّها قد تحققت.

كان البيـت مضيئًـا ودافئًا؛ إذ جُمعت الستائـر إلى جانبيّ النوافذ وأرسلـت الشمس ضـوءاً خجولاً منهـا على السجّاد. مُـدّ فراش قرب جهاز التدفئة، وساعدتني الممرّضة لأتمدّد عليه إلى جانب ولدي حيث وضعوه. أزحتُ القماط عن وجهه، فبدا وجهُهُ متورّدًا، وهو يغطّ في نومٍ عميـق. ما أجمل ذاك الشعـور! جلست الجارات والممرّضتان حولي في الغرفة، وقد عُلّقت فيها صورتان: واحدة لأمير والأخرى لعلي. قلت في نفسي: «عمّو أمير، هل رأيت طفلنا؟ أرأيتَ كم هو جميل؟!».

خنقتني العبرة مرّة أخرى، لكنّني كنت أسيطر على نفسي كي لا أبكي.

كانـت السيّدة منصـورة تعشق أولادها: أمـير، علي، الحاج صادق وأيضًــا مريم. وضعتُ زهرتَيّ زنبق كلايون أبيض على كلتا الصورتين. كذلـك كانت تعشق الـورود. أحضرت مريم صينيـة الشاي ودارت بها علـى الضيوف. وزّعت منيرة زوجة الحاج صـادق الصحون، ووضعت

الحلـوى أمامهم. أيّ أيّام توالت على هــذه الدار خلال الأشهر القليلة الماضية!! إذ امتلأت تارةً بالمعزين وتارةً بالمهنّئين.

ففي اليوم الذي استشهد فيه ابنها أمير، هنا على أرض هذا المطبخ هوت السيّدة منصورة في حضن علي. راحت تشمّه وتقبّله وتقسم عليه: «علـي حبيبي، هـل رأيت أمـير؟!». كان علي يبكي بصمـت، ولن أنسى بكاءه ذاك أبدًا.

ودّعتنا الممرّضتان وانصرفتا، وكذلك الجيران، احتست كلّ واحدة مـن السيـدات فنجانًا من الشـاي وتناولـت قطعة حلـوى وباركن لي وغـادرن. كنت مرهقة، أشعر بدوار ووهن أصاب كلّ بدني. تمددتُ في فراشي. كانت المرة الأولى التي يعلو فيها صوت بكاء الطفل، فأسرعت أمّي وحملته قائلة:

- إنّه جائع؛ يلوي شفتيه، ماكرٌ يبحث عن مكان طعامه.

قالـت أمّـي ذلك وجلسـت بجانبـي، تناولت قطعة حلـوى من أحد الصحون ووضعتها في فمي. سرت نكهة الحلوى تحت لساني، فشعرتُ أنّ ما فقدته من نشاط قد عاد مجدّدًا وانتشر في أطرافي.

جـاءت السيّدة منصورة بكـوب عصير حلو المـذاق، ووقفت قربي قائلة:

- اشربي هذا العصير ليطيب لبنك.

أخذت أمّي كأس العصـير وصارت ترشفني إيّاه رشفة بعد أخرى. أحسسـت بشعور أفضل. احتضنـتُ طفلي، كان يبحث بفمه عن شيء. بـدا من داخل ثنيـة القماط الأبيضـ أصغر حجمًا وأكـثر حمرةً. بدا صغـيرًا إلى حدٍّ خفتُ أن أحمله. مـا إن انشغل الطفل بالرضاعة حتّى تحلّق الجميع حولي وصاروا ينظرون إليه بدهشة وسرور. أغلق قبضتَي

يديه، ففتحتهما على مهل، بانت أظفاره وردية اللون وطويلة.

قالت السيّدة منصورة: «ماشاء اللّه، نسخة عن علي؛ إنّه شبيه علي. عندما كان علي حديث الولادة كان هكذا، ابني المسكين!».

أسندت ظهري إلى حائط المطبخ قبالة صورتيّ أمير وعلي. ولشدة جوعه صار طفلي يرضع بنَهَم. وضعتُ يدي على قبعته البيضاء وصرتُ أتأمل صورة علي وقرأت ما كتب أسفل الصورة بالخط الأحمر: «**الشخص الذي يستطيع تخطي أسلاك العدوّ الشائكة هو الذي لم يعلق بأسلاك نفسه الشائكة**».

غصّ الطفل بالحليب فحضنته أمّي ووضعت سبابتها بين حاجبيه وضغطت على الموضع. ازداد الطفل احمرارًا فقلقت، ثمّ ضربت بيدها على ظهره بهدوء ووَضَعَتْهُ في الفراش، وجعلته يغطّ في نوم هنيء. كانت قبضتا يديه مشدودتين إلى ما فوق رأسه وقد أغلقتا ثانية. فاحت في المنزل رائحة الطحين الذي يتمّ إعداد القيماق[1] منه. دخلت أمّي إلى المطبخ، وانهمكت كلّ واحدة بعملها.

في 18 أو19تشرين أول، قبل ذهاب علي إلى الجبهة بأسبوع، كان بطني يؤلمني، فأعدّت لي السيّدة منصورة «كاتشي»، وجلستُ في ذلك المكان نفسه. كان الوقت ظهرًا عندما جاء علي وقال: «أمّي ناوليني كاسة قيماق لعلّ طفلي يولد في غيابي».

جاءت أمّي وبيدها وعاء صغير مصنوع من الخزف قد وضعته على طبق من الستانلس وجلستْ بجانبي. كانت رائحة السمن الحيواني قويّة وحادّة.

1- قيماق (كاتشي): نوع من الحلوى يشبه المهلبية في بلادنا ويصنع من الدقيق والزيت والسكر والزعفران، يقدّم للمريض والنفساء بعد الولادة. (المترجم)

قلت بغصّة: لا أريد أن آكل.

استاءت أمّي منّي فقالت:

- ماذا تقصدين؟

كانـت الغرفة خالية، فبكيـت بصوتٍ عالٍ. تملمـل الطفل في نومه وشرع في البكاء. ارتسمت على جبهته بضعة خطوط. حرّك قبضة يده مرّات عدّة. سألتْ أمّي بقلق: «ماذا حدث؟».

دخلـت السيّـدة منصـورة مضطربـة وفي يديهـا ملعقـة ومقبض قماشـي[1] شطرنجي الشكل باللونين الأصفـر والأحمر كنتُ قد خطته بنفسـي لها في مـا مضى. نظرتْ إليّ بقلق. فلم أرغب في إخبارهم بمّا يجول في ذهني، وأيّ أفكار تراودني وما الّذي ألهب فؤادي!

جلسـت السيّـدة منصـورة إلى جانبي مـن دون الملعقـة والمقبض القماشـي، وترقرقـت الدموع في عينيهـا. نظـرتْ إلى صورتي ابنيها الشهيديـن وقالت: «حتى لو لم ترغبـي في الأكل؛ عليكِ أن تأكلي، هذا مقـوٍّ ومفيد لـكِ يا ابنتي. يا لذكـراه الطيبة، كان علـي يحب القيماق الذي أعدّه».

أرادت أمّي أن تلطّف الأجواء فقالت: «صلوات على النبي وآله».

قلتُ باكية: «أمّي، حتّى لو مضى على غيابه 40 سنة سأبقى أذكره، لـن أنسى علي، وسأبقى أشتاق إليه، وتضطرم النار في أحشائي لأجله حتّى قيام الساعة».

تأوّهـت السيّدة منصـورة وناحت. شحـب لونها، وغـارت عيناها وارتخـت أجفانهـا. سألتْ أمّـي: «سيّـدة منصورة هل أنـتِ بخير؟».

1- المقبض القماشي ويقصد به الشيّال بالعاميـة، وهو ما يوضع في اليد لحمل الأوعية الساخنة. (المترجم)

هــزّت السيّــدة منصــورة رأسهــا مجيبــة وكأنّهــا أرادت أن تنتحــب وتبكــي من أعماق قلبهــا وصميم روحها. وضعت أمّــي الملعقة في وعاء القيماق -كان في الوعاء شعيرات من الزعفران جميلة اللون- وقالت: «أتأكلينها أم أعطيكِ إيّاها؟».

لم أكــن أشتهي الطعام، فرائحــة الدقيق المقلي والزعفران القابعة في الغرفة جعلتني أتهوّع وتذكّــرت الحلواء[1] ومجلس الفاتحة ومراسم عــزاء أمير وعلي. لقــد هاجت هذه الذكريات في فــؤادي فقلتُ باكية: «لقد اشتقت إلى علي كثيرًا».

نهضــتِ السيّــدة منصورة وخرجــت بصمت. قالت أمّــي: «اسمعي فرشته حبيبتي، إن بكيتِ ثانية فلن أكلّمكِ! لقد اتفقنا أن لا تبكي أمام النـاس، عليكِ أن تكوني قويّة. غدًا يوم أربعين علي. قد يندسّ المنافقون بــين المدعوّين، فإذا لم تتصبّري سيشمــت الأعداء بنا، عليكِ بصلابة الرجــال. أنَسيتِ كيف كان «علي» عند استشهــاد أمير. يجب أن تكوني مثلــه تمامًا. ابنكِ ليس يتيمًــا. إنّه ابن شهيد، وأنــتِ زوجة شهيد! وأنا لا أسامحكِ إن أظهــرتِ ضعفًا. نحن قد اخترنا هذا الطريق بأنفسنا. هل نسيتِ عندما كان يأتيكِ خاطبٌ، ويطلب يدك كنت تقولين سأتزوج من شخص يكون من أهــل الجبهة والحرب. أريد القيام بتكليفي تجاه الثــورة. والآن ألا تريديــن أن تفي دَيْنك تجاه الثورة؟! حسنًا، حان وقت ذلك، أوفي بعهدك. ألم تقولي إنّ زوجك المستقبلي ينبغي أن يكون رجلًا شجاعًا ومؤمنًا! أليس علي كذلك؟! الآن جاء دوركِ أنتِ!! يجب أن تكوني شجاعة ومؤمنة فلا داعي إلى البكاء، البكاء دليل ضعف، والمسلم ليس بضعيــف! خاصّة فرشته ابنتي!». أجبتهــا: «أمّي، أعرف ذلك كلّه، لكن

1- الحلــواء: نوع مــن الحلوى الإيرانية يُعدّ مــن الطحين والزعفــران والعقدة الصفراء. (المترجم)

ماذا أفعل؟ لقد اشتاق قلبي إليه! فهل يمكن خداع القلب!».

نادت السيّدة منيرة أمّي من المطبخ.

نهضت أمّي وقالت لي: «هيّا كُلي حتّى أرجع. عندما تتحسّنين سنذهب إلى روضة الشهداء، وسيزول عنكِ الهمّ».

سحبتُ الصينية إلى الأمام. كانت ستارة النافذة قد أُزيحت جانبًا؛ الثلج يتساقط على مهل، وكل شيء هادئ وساكن في الخارج. كان النفناف يتناثر بهدوء فيضفي على الأرض روعة وبهاءً، فتخيّلت أنّ صفحة بيضاء قد تشكلت على قبرَيّ علي وأمير.

اشتقت إلى دفتري، فقد مضت أيّام من دون أن أدوّن فيه شيئًا. أحببت أن أكتب رسالة لعلي وأقول فيها: «حبيبي علي، لقد أبصر ابنك النور، ترى ماذا أسميه «مصيب» أم «أمير»؟! ثمّ بكيتُ وقلتُ: يا إلهي قلبي مغموم، حبيبي يا الله، ماذا أفعل؟ قلبي حزين مغموم!».

واستسلمتُ للبكاء كالأطفال.

عصرًا، جمعوا الفراش ونقلوا أغراضي إلى غرفة النوم. ففي المساء سيعجّ المنزل بالضيوف، ويوم الغد هو «ذكرى أربعين استشهاد علي». ومن المؤكد أنه سيحضر الكثير من الناس لتقديم المساعدة لنا، لذلك بقيت أنا وابني في تلك الغرفة. وبينما أنا على تلك الحال، كان المدعوون يقولون لي: «لا تبكي، لا تحزني». أويمكنني أن لا أبكي أو أن لا أحزن وقد أمضينا ذكريات كثيرة معًا في هذه الغرفة؟! الله وحده يعلم لمَ يحترق قلبي إلى هذا الحدّ ولا يقرّ لي قرار. الله وحده يعلم أيّ شخصَ افتقد. لا يزال ألبوم صور علي موجودًا داخل خزانة الحائط.

في المرة الأولى التي دخلت فيها الغرفة، لفت نظري خزانة حائط طويلة إلى الجهة اليسرى من الغرفة بتمامها، والجهتان اليمنى

واليسرى منها مخصّصتان للملابس. أمّا وسط الخزانة فله ديكور خاصّ مصنوع من طبقات عدّة مع جوارير وأدراج، مليء بالكتب والأغراض الشخصية لعلي وبينهما ألبوم صور. كم كان علي يحب هذا الألبوم الذي يضم صور رفاقه الشهداء! عندما كان يفرغ من العمل يقول لي: «فرشته، آتيني بذلك الألبوم لنشاهده معًا». أما باب الخزانة من الجهتين اليمنى واليسرى وكذلك جانبا الحائط فزُيّنت بصور الشهداء وكتاباتهم، وقلاداتهم وعصبات رؤوسهم. في ذلك الحين أدهشني هذا العدد الكبير من أصدقائه الشهداء! تنهّدتُ وفكّرتُ: «في نهاية المطاف فعلتَ ما تريد يا علي؛ وضعتَ هذه الصور على الكومود والجدار ورحلت. لقد التحقت بصور الشهداء».

دخل السيّد ناصر إلى الغرفة وقال: «سيّدة فرشته، ماذا ستسمّين ابن علي في نهاية الأمر؟».

- «لا أعرف يا عمّاه، أيّ اسم تتفضّلون به؟».

وكالعادة قال بدعابة ومرح: «لقد أوصاني علي بكل شيء، بدءًا من السمن والحلوى والعسل المصفّى إلى ألعاب الأولاد وحاجياتهم؛ لكن، نسي الشيء الأساس». قلت بخجل: «لكنّه أخبرني بذلك». سأل السيّد ناصر بحماسة وفرح: «أخبرك!؟ وبماذا أخبرك؟!».

- كان يردّد دائمًا: إنّه إذا كان المولود بنتًا سمّها «زينب»، وإن كان صبيًّا أسموه «مصيب»[1]. انعقد حاجبا السيّد ناصر:

- لا يا عمّاه! كان هذا الكلام حين استشهد مصيب حديثًا، وأمير وعلي كانا ما يزالان على قيد الحياة.

1- مصيب مجيدي؛ ولد في 30/6/1960 م، في بلدة دره مراديبك-همدان. كان نائب وحدة معلومات عمليات فرقة 32 أنصار الحسين - محافظة همدان. ومن أصدقاء علي القدامى، وقد نال شرف الشهادة في 17/3/1986م /في الفاو - العراق.

لم أنبس بأيّ كلمة. تنهّد السيّد ناصر تنهيدة هادئة:

– لمصيب محبة كبيرة في قلب علي، في الحقيقة كانا كالأخوين دومًا.

مشى السيّد ناصر ووقف قبالة صورة «مصيب مجيدي».

– السيّد مصيب يرحمك الله وأخيرًا دللت ابني على الطريق أيضًا.

ثمّ استدار ونظر إليّ، ثمّ رجع مرّة أخرى وتأمل في الصورة، ثمّ تنهّد:

– آ آ آه..! لقد قلتَ له وأخبرته **بأنّ سبيل الشهادة هي الدموع**.

جاء السيّد ناصر وجلس إلى جانبي.

– بعد شهادة مصيب، ظلّت عينا ابني علي حمراوين على الدوام.
نظرتُ إلى صورة أمير، كان بين مجموعة صور الشهداء.

أحنى السيّد ناصر رأسه على وجه الطفل وقال: أنا سمّيت أبنائي، صادق، علي، أمير. أمير كان اسمه محمد أمير. ولد علي في 13 رجب ذكرى ولادة الإمام علي عليه السلام».

بقيت صامتة ولم أردف بشيء. دخلت السيّدة منصورة إلى الغرفة. وكأنّها سمعت كلّ شيء، فقالت: «سيّد ناصر، يجب أن يبقى اسم علي حيًّا!».

تنهّدت السيّدة منصورة، ونظرتُ إلى صورتيّ علي وأمير.

– برأيي أنّ نسميّه «محمد علي»؛ تيمنًا بمحمد أمير وعلي. أجيدٌ هذا؟

قلتُ: «محمد علي! جيّد، اسمٌ رائع يا أمّاه».

انحنى السيّد ناصر مسرورًا وقبّل جبهة «محمد علي». كانت عينا محمد علي مفتوحتين؛ لكن من دون بكاء. حمله السيّد ناصر وقال: «هيا لنذهب يا حبيبي، هيا لنذهب كرجلين. كم أنت نؤوم!!».

خـرج السيّـد ناصر وتبعتـه السيّدة منصـورة، بعد قليـل ارتفعت الأصوات بالصلوات، ثمّ فاحت رائحة البخور وملأت الأجواء. نهضتُ مـن مـكاني، وتقدّمتُ قليلًا، حدّقـتُ بصور الشهـداء: الشهيد حميد نظـري[1]، علي دانـا ميرزائـي[2]، حجت زمـاني[3]، محمد شهبـازي[4].. أمـررت يدي على الصور. بـأيّ عشق وبهجة أَلْصـقَ علي هذه الصور علـى الجـدار مستخدمًا دبابيس البينيز، كانت آثـار أصابعه لا تزال ظاهـرة على بعض الصور. كانـت الصور زيتيّة لامعـة؛ وصورتا أمير وعلي فقط كانتا داخل إطار.

وضعت جبهتـي على واجهة صورة أمـير الزجاجية؛ فانبعثت منها رائحـة يد علي. فقد ثبّتهـا في الحائط بيده، قلـتُ: «أصبح اسم ابننا «محمد علي»؛ لكنيّ تيمّنًا بذكر اسمك سأناديه علي، علي حبيبي».

خنقتنـي العبرة من هذه الأفـكار. كانت رائحة يديـه تفوح من كلّ الصـور، الغرفة أساسًا تعبق برائحته. لكمْ سعيتُ أن أحفظ شكل تلك اليديـن البيضاوين والدافئتين في ذاكرتـي، ذاك الطول وتلك القامة، شعـر لحيتـه الأشقر والطويـل والعينـين الزرقاوين، خطـوط جبهته

1- ولـد حميـد نظري في 1 تيـر 1346 هـ.ش(1967) فـي قرية دره مرادبيـك – محافظة همـدان. واستشهد فـي 20 شهريور 1365هـ.ش (1986)عندما كان غوّاصًـا وعضواً في الفريق الإستطلاعي للوحدة في جزيرة مجنون.

2- ولـد علي ميرزائي فـي 10 فروردين1344هـ.ش (1965) في ملايـر وفي 31 اردبهشت 1363 هـ.ش(1984) نال الشهادة في مضيق حاجيان.

3- حجـت إلـه زمانـي، ولـد فـي 1فروردين 1338 هـ.ش. فـي قريـة كوهيـن، قضـاء كبودرآهنـك. واستشهـد في 15 مـرداد 1362هـ.ش(1983) أثنـاء مشاركتـه في عملية (والفجـر2) في منطقة الحـاج عمران– العراق. استشهد أخوه نجات علي أيضًا في الفاو بتاريخ 1364/11/28هـ.ش(1985).

4- محمـد رضا شهبازي، ولد في 30 خرداد 1343 هـ.ش(1964). في قرية آبرومند قضاء بهـار– همدان. وفي16 اسفنـد 1363هـ.ش(1984) شرب كأس الشهـادة على أثر القصف الجوي الذي تعرضت له ثكنة أبوذر سربل ذهاب. وقد استشهد أخوه صمد في شلمشة أيضًا.

وتجاعيدها، شعره وحاجبيه الشقراوين المبعثرين.

في تلك اللّيلة نام في هذه الغرفة نفسها؛ لا، بل كنّا في منزل الحاج صادق. لم يكن على ما يرام. كان من المقرّر أن يذهب الساعة 2:30 فجرًا. قال: «فرشته، أتوقظينني إن نمت؟!». أجبته: نعم.

ليتني لم أوقظه! ليتني نمتُ وبقي كلانا في سُبات عميق! شعرت في داخلي أنّه إن ذهب هذه المرة فلن يعود. من أخبرني بذلك؟! كأنّ طنينًا كان يلازمني دائمًا: فرشته، انظري إليه جيّدًا، تأمّليه بدقة. يجب أن تبقى هذه الطلعة، هذا الشعر، وهذان الحاجبان وهذه الهيبة في ذاكرتك كلّ العمر، كذلك تلك القدمان ووقع خطاه الهادر حين كان يمشي على الأرض.

من سماته الحماسة والتأهب للذهاب إلى الجبهة على عجل. لم تنل تلك العينان الزرقاوان نصيبهما من النوم والراحة بشكل كاف، وكأنَّ إحدى عينيه لا تغفو. أمّا في تلك اللّيلة؛ فيا له من نوم عميق غطّ فيه! وراح يتنفس أنفاسًا عميقة متواصلة.

أيا فرشته لمَ أيقظته؟! لمَ لم تغطّي في ذلك السبات أيضًا!! أنتِ التي كنتِ تسمعينَ ذاك الطنينَ في أذنك: «هذه آخر مرّة سترينه فيها! هذا هو الوداع الأخير! هذا اللقاء الأخير! هذا آخر توديع!..».

عندما نمتَ، جئتُ إلى البهو[1]. لماذا جئتُ؟! لماذا لم أقف وأتأمّلك بشغف؟ أما كنتُ أعلمُ أنّ لقاءنا سيضرب أجله إلى يوم القيامة!

نادتني أمي:

- فرشته، فرشته حبيبتي. آتيك بطعام العشاء أم تأتين أنتِ إليّ؟

مسحتُ دموعي بسرعة، نظرت إلى نفسي من خلال زجاج إطار

1- هال بالفارسية؛ بهو واسع في مدخل البيت؛ تتوزع الغرف حوله. (المترجم).

صورة علي، بدت عيناي وأنفي مُحمَرّينَ . ذهبت إلى غرفة الاستقبال رغم أنّني لم أكن أشتهي الطعام. وجدت مائدة كبيرة مبسوطة. لا غرباء بين الحاضرين، كان الجميع من الأهل والأقارب: مريم وزوجها وابنتهما، الحاج صادق وزوجته وأولادهما، السيّد ناصر والسيّدة منصورة وأخويها، الخال محمد الذي عاش سابقًا خارج البلاد، لكنّه منذ سنوات ترك زوجته وأولاده هناك وعاد إلى إيران ليعيش مع والدَيه، كذلك الجدّ والجدّة. تفطّر قلبي، كم كنّا عائلة سعيدة!! لو أنّ أمير وعلي حاضران معنا الآن؛ لعمّ المرح والمزاح والضحك. لماذا صرنا فجأة هكذا؟!

يا لهم من ضيوف هادئين صامتين. كانت حال السيّدة منصورة على غير ما يرام؛ إذ جاءها الوجع عصرًا في كُليتها، فأخذها الحاج صادق إلى الطبيب. الجميع يجلسون حول المائدة بصمت ما خلا السيّد ناصر الذي ما انفكّ يتمتّع بلطافته، فقال: «يا له من صبي! لقد قضى علينا، سيّدة فرشته، لماذا لا يبكي هذا الطفل؟!». أردفت نفيسة: «فرشته عزيزتي، إنّه وبدلًا من أن يبكي يتورّد وجهه».

كان العشاء عبارة عن أرز مع يخنة قيمة[1]. مرّت مريم بجانبي وبيدها صينية الطعام، فعبقت رائحة الحامض المجفّف في مشامّي.

جلستُ إلى جانب السيّدة منصورة. سألتها:

– هل تحسّنت حالكِ؟ ماذا قال الطبيب؟».

كان وجهها شاحبًا وعيناها غائرتين. قالت: «لقد تكيّست كُليتاي، وينبغي إجراء عملية لهما». نظرتُ بحزن وغمّ وسألت: كيف أتمالك

1- يخنة القيمة: وهي نوعان، النوع الأول يحتوي على اللحم والباذنجان وحبوب اللبّة، والنوع الثاني يحتوي على شرائح البطاطا المقلية بدلاً من الباذنجان. وتختلف عن القيمة العراقية من حيث الشكل؛ إذ إن القيمة العراقية تطحن مكوناتها طحناً. (المترجم)

نفسي ولا أغدو سريعة التأثّر والانفعال؟!

كان محمد علي لا يزال في حضن السيّد ناصر الذي قال: «خذي ابنكِ يا كنّتي. يا له من ولد! لقد فعلت كلّ شيء: صفعته، قرصته، عضضته، لم يبكِ!».

قلت بشفقةٍ ورقّة: «عمّاه!!».

قالت السيّدة منصورة وهي على تلك الحال من الإجهاد والتعب: «ما أشبهه بعلي، أطال الله في عمره. هكذا كان علي، يمرض ويتألم من دون أن يشتكي».

ضحك السيّد ناصر وقال بلهجته الهمدانية: عندما كان علي رضيعًا كان هادئًا كثيرًا، لكنّه ما إن شبّ قليلًا حتّى أخجلنا أمام الناس من شقاوته وشيطنته!! كان يتسلّق الجدران بمهارة.

أجابته السيّدة منصورة بصعوبة بالغة:

– مَنْ؟ ولدي أنا؟! أنسيت قبل شهادته، فدته أمه، أصيب بالإنفلونزا ولم يقل إنّه مريض! وقد عرفنا ذلك من خلال وجهه وعينيه. همس السيّد ناصر وكأنّه تذكّر ذلك: «إن لون الوجه يُظهر أسرار الباطن.. صحيح ما قلتِ، عندما عاد من الجبهة عاد بحال سيّئة، ولكنّه لم يتفوّه بشيء. سألته: ما بك عزيزي؟

أجاب: لا شيء.

سألته: هل أصبت بالزكام؟

– أظن ذلك.

– نذهب إلى الطبيب؟

– لا، ستعطيني فرشته الدواء.

أحضـرتُ له من الـبـرّاد استمينوفن[1] وأقراصـ ASA، وأجبَره أخوه صادق على الذهاب إلى الطبيب. أعطوه حقنة، ثمّ عاد إلى البيت وهيّأنا له الفراش. تدثَّر باللحاف ونام حتّى منتصف اللّيل. استيقظ ليلًا، رأيته يدلف إلى المطبخ، تبعته قائلةً: حالك سيّئة؟ أجاب: لا، أنا جائع.

قالـت السيّدة منصورة: «استيقظت عند منتصف اللّيل على صوت الجلبـة التي أحدثها، رأيت علي، فدته أمـه، جالسًا على أرض المطبخ يـأكل ويقول: «كم هو لذيـذ! فيما بعد علمتُ أنّ ولـدي لم يتناول شيئًا منذ أيّام متواصلة».

أردف والـدي: «أنتم على حق، كانت قدرة علي على التحمّل كبيرة، أخبرني أصدقاؤه أنّه خلال المرّات السبع التي جرح فيها جراحًا بليغة لم نسمع أنينه ولو مرة واحدة».

نظر إليَّ والدي وقال: «أتذكرين بعد يومين من عقد القِران دعوناه على العشاء في منزلنا؟ كانت قدمه قد رُضّت خلال التدريب في النادي على «الكونغفو» عصر ذلك اليوم. بدا غير مرتاح خلال تناول الطعام وعدّل جلسته باستمـرار، وانتفخت أدواجه لشدّة كظمه الألم من دون أن يخبرنا بذلك. لم أنتبه إلى أنّه يتألم».

هزّت أمّـي برأسها وتابعـت: «السابع من خرداد العـام المنصرم. أتذكّر هذا اليوم جيّـدًا؛ لأنّه كان يوم عيد ميلاد فرشته. أردتُ إعداد الحلوى لهذه المناسبة، لكنّها لم تقبل، وقالت: «لا أريد أن أُتعب أحدًا»، وأنـا وافقتها على ذلك. الحـاج محقّ، لقد رأيت علي تلك اللّيلة منتفخ الأوداج، وعدّل جلسته مرّات عدّة، جلس القرفصاء في إحدى الزوايا، فظننته يفعل ذلك خجلًا».

1- استمينوفن: مركب أساسي في أقراص خفض الحرارة.

سألتني أمّي: «فرشته، ماذا أسكب لك: الكبسة أم القيماق؟». بكيت ثانية، وددت الذهاب إلى الغرفة الأخرى وأبكي بقدر ما أستطيع. أجبتها بغصّة: «القليل من الكبسة».

أقيمت في يوم الاثنين (14 /كانون2/ 1988م) ذكرى أربعين علي في مسجد مهدية همدان.

بقيتُ أنا في المنزل، وبقي معي عدد من الجيران كي لا أبقى وحدي. كان الوقت المحدد للمراسم من الساعة التاسعة صباحًا حتّى الساعة الحادية عشرة والنصف، لكن، عندما عاد الجميع من المراسم كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر. قالوا لي إنّه أقيم ستون أو سبعون حفل تأبين لأربعين علي في جميع قرى وبلدات المحافظة، وذهبت جموع غفيرة إلى مسجد مهدية فعجّ المكان بالمشاركين كيوم الحشر، ولهذا، كان لدينا على الغداء عدد كبير من الضيوف، ولأجل ذلك أوصى الحاج صادق على الطعام مسبقًا.

في المسجد، سأل الأصدقاء والأقارب عن أحوالي، وكل من لم يعلم بولادة محمد علي علم هناك. عصرًا، كانت سيدات العائلة وزوجات الأصدقاء والأقارب يحضرن للاطمئنان إليّ، وجلّهن تكبّدن عناء شراء هدايا لي ولمحمد علي. تنوعت الهدايا ما بين أغطية، جهاز طفل وألعاب (سيّارة،طائرة وما شاكل)، وأهداني بعض الأقارب قطعة قماش، كنزة، مقنعة ملوّنة، وصاروا يوصونني من باب العطف بأن أخلع السواد وأخرج من الحداد. أصرّت بعض النسوة عليَّ كي أسمح لهن بأخذ موعد لي عند صالون التزيين النسائي. جلست إلى جانبي سيّدة من عمري، بشرتها بيضاء اللون، وعيناها ملوّنتان، وحاجباها بنيّان، وراحت تهتم بي طوال الوقت. حدست كثيرًا لأتذكر من تكون، لكنّني لم أفلح، قلت في نفسي قد تكون زوجة أحد أصدقاء علي.

أخيرًا تكلّمتْ وقالتْ: «سيّدة بناهي ألم تعرفيني؟». أجبتها: «آسفة، كلّا، حاولت ذلك لكنّني لم أستطع».

– معك حقّ في أنّكِ لم تعرفيني، لكنّ الجميع يعرفكِ، حسنًا فأنت زوجة علي تشيت سازيان، من ذا الذي لا يعرف الشهيد تشيت سازيان في همدان؟!».

– هذا من لطفكم، شكرًا لك.

– أتذكرين، في السنة الماضية بعد العيد أجرينا دورة رماية معًا في مسجد مهدية، أنت لم تلتفتي لنا، ولكننا نحن السيدات جميعًا كنّا نشير إليك بإشارات الحواجب وأطراف العيون، كنتِ قد عقدتِ قرانك حديثًا، فأومأ بعضنا لبعض: «إنّ هذه السيّدة المشوقة القامة تكون زوجة السيّد تشيت سازيان. لا أدري لماذا كنت أظنّ أنّه لأنّكِ زوجةُ قائد فسيكون رميك أفضل من رمي الجميع». ضحكت السيّدة وتابعت: «لكنّك كنت تطلقين كلّ طلقاتك خارج الهدف». ضحكتُ كذلك من قولها.

انحنت مريم، وفي يدها صينية كبيرة عليها أقداح الشاي، طافت على الضيوف لتقدّم لهم واجب الضيافة. كذلك تبعتها نفيسة وفي يدها القندان[1].

أردفت المرأة: «سيّدة بناهي، نحن بصدد إعداد مجلّة في مسجد مهدية مع أخوات أُخريات. إذا كان لديك ذكرى مميزة عن السيّد علي، تفضّلي بسردها. فنحن نريد نشرها في المجلة»، ثمّ فتحت حقيبتها وأخرجت دفترًا وقلمًا.

1- قندان: السكرية، وعاء يوضع فيه مكعبات السكر. ويشتهر في إيران أن يُوضع مكعب السكر تحت اللسان قبل احتساء الشاي. (المترجم)

غرقتُ في التفكير: ذكرى!! ذكرى عن علي. في تلك اللحظة لم أستطع أن أتذكر شيئًا.

فقلتُ لها: «أنا لم أكن مع علي في الجبهة. لقد كانت لعلي مآثره الخاصّة؛ إذ لم ينقل أخبار الجبهة والحرب إلى المنزل بتاتًا».

سألت المرأة بتعجب: «أتقصدين أنّه لم يكن يخبرك شيئًا عن العمليات، أو عن أصدقائه الشهداء والجرحى؟!».

- كلّا. لا شيء. وإذا ما سمعت شيئًا فمن أصدقائه أو المحيطين به. أمّا بخصوص الأمور التي تتعلّق به شخصيًّا فلم يكن يحدّثني شيئًا عنها».

شدهت المرأة فاهها وسألتني: «المعذرة، متى تزوجتِ؟».

- في شهر نيسان 1986م عقدنا القران.

بدأت السيّدة بالعدّ على أصابع يديها الاثنتين وقالت: «لقد عشتما معًا قرابة السنة والثمانية أشهر، صحيح؟».

- نعم، تقريبًا.

- بالتأكيد سيكون لديك خلال هذه الفترة ذكرى عنه. تفضّلي لو سمحتِ اذكري واحدة لافتة.

غرقتُ في التفكير، تُرى أيّ ذكرى ينبغي لي سردها، إحدى ذكريات حياتنا في دزفول، أو سفرنا إلى مشهد وقم، أم ذكرى زفافنا، أو قِصّة مستشفى ساسان. سألتها: معذرةً، ما هو الهدف من هذه المقابلة؟!».

- جيّد، أظنّ أنّ الناس يريدون التعرف إلى قادة الحرب، أيّ أناس هم. خاصّة في قضايا حياتهم الشخصية، مع زوجاتهم وأبنائهم، وأسرهم.

تبسمتُ وقلت: «أظنّ أنّ الناس يعرفون علي أكثر منّي ومن عائلته.

علـي معـروف بشجاعته ومحبتـه للإمـام، واهتمامـه الشديد بكلام الإمام. ففي كلّ خطبه كان يقول لا تدعوا كلام الإمام على الورق وبلا تطبيق. علي شخصٌ نشيطٌ، مقدامٌ، صاحب نخوة ومروءة أيضًا».

نظـرت المـرأة نظـرة يائسة. وضعـت القلـم في الدفـتر وأغلقته. وسألت: «أفهم منك أنّه ليس لديكِ أيّ ذكرى عنه؟».

كان لديّ الكثير مـن الذكريات عن علي؛ منذ اليوم الأول للخطوبة وحتّـى لحظة الوداع. بالمناسبـة، فكل هذه الذكريات كنـت قد دوّنتها في روزنامـة عامَـي 1365 و1366* . كان لـدي رغبة شديـدة في تدوين بعض الذكريات والحـوادث في حياتنا؛ وإذا لم تتح لي فرصة كتابتها، كنـت أشـير إلى الأحداث المهِمة أو أقوم بكتابة كلمـة عنها، أو توضيح مختصر على المفكّرة نفسها وأَسِمُها بعلامة معيّنة. كنت أجمع الكثير من الأحداث تحت عنوان ذكـرى، واحتفظتُ بكلّ رسائله وكل الأشياء التـي أعطاني إياهـا: سجدة تربـة حسينية، سجادة صـلاة، سُبحة، قطعـة قماش مباركـة من يد حضرة الإمـام، وزجاجات عطر صغيرة الحجـم كان يتطيّب بها عند الصلاة، ويدهن منها خلف أذنيه. لكن، فكّرت ماذا تفيد الناس ذكريات حياتنا الخاصّة معًا!

عندمـا رأت المـرأة أنّني توقّفت عن الكلام، بـادرت لسؤالي ثانية: «أليس لديكِ ذكرى؟».

ضحكـتُ وقلت: «أرجو المعذرة ففـي ظروف كهذه ليس لدي حضور ذهن».

انقطعـت المرأة عـن الإصرار. وضعت القلـم والدفتر في حقيبتها. احتسـت الشاي وتناولت الحلوى، ثمّ شدّت من قامتها، وقالت إنّها قد

* (1987و1988م).

تأتي في وقت آخر لإجراء المقابلة، ودّعتني وانصرفت.

* * *

في اللّيل، عندما انصرف الضيوف، عاد والتأم مرّة أخرى هذا الجمع الصغير من الأقارب وأهل الحُزانة.

لم تكن حال السيّدة منصورة على ما يرام. كانت تتذرّع بتجهيز مريم لأغراضها واستعدادها للذهاب مع زوجها إلى طهران في الصباح الباكر. أمّا السيّد ناصر والبقية فقد جلسوا في زوايا الغرفة وقد ران عليهم الصمت واستولى عليهم الحزن والغم. كانت أمّي أيضًا تهيئ محمد علي. قالت: «فرشته، أنتِ أيضًا اجمعي أغراضك في الحقيبة كي نذهب غدًا إلى البيت، فوالدك هناك وحده، وأختاك لديهما مدرسة، ولا أعرف كيف أمضوا هذه الأيّام القليلة من دوني!».

وضعت أمّي محمد علي في سريره، فعبقت رائحة الطفل في الغرفة، رائحة الصابون، البودرة، والحليب. نهضت وطويت ملابسي وملابس محمد علي ووضعتها في الحقيبة، كذلك البطانيات، وعلبة الحليب وبراد الماء، جمعتها كلّها ووضعتها في مكانٍ واحد كي لا أنسى منها شيئًا عند الصباح. كان محمد علي مستيقظًا ووجهه كان ما يزال متورّدًا، لكنه بدا أكثر نحافة. كان هادئًا يحدّق بعينيه الرماديتين في السقف.

وقعت عيناي على صورة علي في الإطار وهو ينظر إلينا حزينًا. خاطبته: علي حبيبي، لمَ أنت مستاء؟ إنّ شأن المرأة ومكانتها يرتبطان بحضور زوجها؛ كنت أَستمد الشأنية من وجودك زوجًا لي. والآن أنت لست هنا، ويتملّكني شعور مختلف. لعلّي أصبح عبئًا وحملًا!!

تهيّأت للرحيل فربما لن أعود في القريب العاجل. كنت أغادر تلك الغرفة المليئة بالذكريات، غرفة كانت تتحوّل إلى غرفة خاصّة بنا

كلّمـا عاد علي من الجبهـة، غرفة تنبعث منها رائحة علي. كانت ثيابه معلّقـة في الخزانة، وكتبه منضودة على رفـوف المكتبة، كذلك رسائله ومخطوطاتـه وألبوم صور رفاقه الكثيرة. وأنا أهـمّ بالمغادرة، ارتأيت أن آخـذ صورته معي. شددتُ قامتـي لأنزع الصورة عن الحائط، لكنّ يـدي التصقت بإطارها، ومهما حاولت إفلاتها لم أفلح. سمعت صوت السيّد ناصر يناديني من الخلف:

- فرشته، ماذا تفعلين؟

رفعتُ يدي عن الصورة.

- عمّـاه، سأذهب غـدًا إلى بيت أمي، أستأذنـك بأخذ صورة علي معي أيضًا.

اعتراه التعجب فسألني: «تريدين الذهاب؟!».

ثـمّ نظـر إلى جهة البـاب ونادى: «يـا سيّـدة منصورة، يـا سيّدة منصورة، تعالي وانظري فرشته ماذا تقول. تريد المغادرة!».

بعـد قليل، دخلـت السيّدة منصورة ومعها أمّـي والجدّ والجدّة. لم تتحمّـل السيّـدة منصورة مشهـد الأغراض المجموعـة، واستسلمت للبكاء. بقيتُ حائـرة ماذا أفعل، فاستسلمت أنـا أيضًا للبكاء. اختنق السيّد ناصر بعبرته. جاءت مريم أيضًا، وحينما رأت أمّها تبكي سألت متعجبة: أمّي ماذا حدث؟!

كان بـكاء السيّدة منصورة يُبكي الحجـر ويفتّته. احتضنتها مريم وبـدلاً من أن تواسيها وتهدّئ من روعها راحت تبكي هي أيضًا. تبدّلت أحوال الغرفة، وصار كلّ من يدخلها ويرى هذا المنظر لا يتمالك نفسه عـن البكاء. أعـرف أنّه خلال الأيّـام القليلة الماضيـة وخلال مراسم العزاء كان الجميع يمسكون أنفسهم عن البكاء كي لا يشمت بنا العدو

ويفرح، ونعطي المنافقين ذريعة في أيديهم للاستغلال.

الشخص الوحيد الذي لم يبكِ كان السيّد ناصر، فتوجّه إلينا قائلًا: «إن روحَيّ علي وأمير ها هنا، ولسرور روحيهما صلّوا على النبي وآله».

رفع الجميع أصواتهم بالصلاة على النبي وآله. كان الخال محمود جالساً بجانب محمد علي يداعبه. تابع السيّد ناصر قوله: «أنا على يقين من أنّ روحَيّ علي وأمير تنظران إلينا وتريان تصرفاتنا؛ إذاً بحق مولانا الأمير كفّوا عن البكاء».

عندما كان السيّد ناصر ينطق بهذه الكلمات، سرى اختلاج رجفة في صوته تمامًا كلوح زجاج تلقّى ضربة، وصدر منه صوت تشقق، وقد يهوي مع أيّ وكزة إصبع عليه.

هدأت السيّدة منصورة وسكتت مريم وأمي. التفت السيّد ناصر إليّ وقال: والآن يا سيّدة فرشته؛ هيّا قولي إنّكِ تريدين المغادرة؟ أمللتِ منّا وتعبتِ؟! هل أساء إليكِ أحد؟!

أجبته على الفور: «كلّا، أبدًا يا عمّاه، أيّ إزعاج؟! أيّ أذى؟!».

مرة أخرى استرسلت السيّدة منصورة في البكاء.

- إذاً لماذا تريدين الذهاب؟!

- أريدُ أن أرفع الزحمة، صرت عبئًا عليكم، لقد أتعبتكم معي.

التفتُّ ناحية أمّي وقلتُ:

أمّي أيضًا تريد الذهاب إلى منزلها، فوالدي وأختاي وحدهم.

أخذت السيّدة منصورة محمد علي، احتضنته وضمّته إلى صدرها وقالت نائحة: إلى أين ستأخذين حفيدي الجميل؟ أمير حبيبي فديتك نفسي، علي حبيبي فديتك نفسي! علي يا عمري إلى أين تريد الذهاب؟

ارتجف صوت السيّد ناصر مجددًا وقال لي: «لا يا عزيزتي! لا تقولي مثل هذا الكلام، هذا كلام الغرباء. أنتِ ابنتنا ومحمد علي ابننا. ماذا يعني أنّكِ مصدر إزعاج لنا؟! فهذا البيت بيتك، ثمّ رفع يديه إلى السماء وقال: «الحمد لله، فإذا ما استشهد ابناي فلأنّهما جديران بالشهادة، وأنتَ أيضًا قبلت شهادتهما. حمدًا لك يا رب أنّ ولدَيَّ لم يكونا مبعث عار وهوان. شكرًا لك يا رب أن صار ولداي مبعث عزٍّ وفخار. ألف شكر لك ربي على ما أعطيت، وألف شكر لك على ما أخذت».

بعد دقائق ما لبث أن جنح السيّد ناصر إلى الدعابة والمزاح ليعدّل أمزجتنا فقال: «هيا خذي ابنك هذا واذهبي، لقد قتلنا بصمته وعدم بكائه، كم أتعبتُ نفسي وقرصته لأجعله يبكي، لكن من دون جدوى!! أصلًا إن الطفولة هي طفولة أيّام زماننا.. كنّا بمجرد أن نضرب الأطفال يصل صوت بكائهم إلى بيوت الجيران القريبة والبعيدة!!».

ومع كلام السيّد ناصر وبكاء السيّدة منصورة وجدتُ أن لا مناص من البقاء، بالرغم من أنّ الانسلاخ من هذه الغرفة بات صعبًا عليّ. ففي كلّ يوم كنت أتمنى أن يدبر النهار بسرعة ويقبل اللّيل لأنام أنا ومحمد علي في غرفة علي. كان لتلك الغرفة حالٌ عجيبة. كنت أتحسّس وجود علي فيها، وأراه في منامي حتّى الصباح.

في تلك اللّيلة مكثت في تلك الغرفة وتلتها كذلك ليالٍ أُخر.

بلغ محمد علي الشهرين من العمر. كنّا أحيانًا نحلّ ضيوفًا على بيت الحاج صادق لعدّة أيّام، وأحيانًا أخرى ننزل في بيت أمي، لكنّ بيتنا الأساس كان منزل الحاج ناصر.

ساءت حال السيّدة منصورة من جديد؛ إذ تكيّست كليتاها واختلّ نظامُ جسمها. قرّر السيّد ناصر نقلها إلى طهران لتبقى فترة هناك

للمعالجة. ولهذا السبب، توجّهتُ أنا ومحمد علي مع بعض الأكياس والحقائب إلى منزل أمي، لكن منذ ذلك الحين، قرّرنا أنّه عندما يعودون من طهران أن أبقى يومَي الخميس والجمعة في منزل السيّد ناصر، وباقي الأيّام في منزل والديّ.

تغيّرت أحوالي وظروفي هناك وكثُرت أوقات وحدتي، ففي كلّ صباح كان والدي يذهب إلى عمله. كان والدي حلّاقًا مشهورًا، ويقع محل عمله (صالون2000 للحلاقة) في تقاطع شريعتي في همدان، وكان لديه زبائنه الخاصّون؛ بينما أمّي كانت تذهب إلى مشغل الخياطة صباحًا وعصرًا برفقة عدد من النسوة، كنّ يخطن بدلات خاصّة بالمجاهدين مجانًا.

كان المشغل يقع في شارع «بابا طاهر»[1] قرب مسجد ميرزا داوود في الطابق الثاني لأحد الدكاكين.

أما أختاي فكانتا تلميذتين تذهبان إلى المدرسة يوميًّا، لهذا السبب، كان المنزل يخلو كلّ صباح وأبقى أنا ومحمد علي وحدنا. كان محمد علي طفلًا هادئًا وقليل الإزعاج.

قاسيتُ في تلك الأيّام الكثير من أوقات الشدّة، كانت أصعب أيّام وحدتي وعزلتي وانكماشي على نفسي، فأمضيها بكتابة المذكّرات، أو باستحضار الذكريات من تقويم عامَي (1986–1987).

كانت أمّي الشخص الوحيد الذي سعى إلى إخراجي من وحدتي. في أكثر الأوقات كانت تذهب إلى المشغل غبًّا لترتيب الأمور هناك، ومن ثمّ تعود بسرعة إلى البيت، وأحيانًا لم تكن تذهب إلى دوامها المسائي. في بعض الأوقات كانت تقيم مجالس عزاء في المنزل، أو

1- بابا طاهر: عارف وشاعر ايراني الاصل عاش في أواخر القرن الرابع وأواسط القرن الخامس الهجري في زمن طغرل بيك السلجوقي؛ له مقام في مدينة همدان.

تأخذني معها لسماع التعزية.

أحيانًا كان أبي يلزم المنزل، فنوكل إليه مهمة الاعتناء بمحمد علي، ونذهب لنتمشّى مدّة نصف ساعة، فنجول في السوق، وتشتري لي أمّي شيئًا، ثمّ نعود إلى البيت.

كنت أمضي معظم أيّام آخر الأسبوع[1] في منزل السيّدة منصورة، عشت مع الوحدة والغُمّة أصعب فصول حياتي.

في النهارات كنت أركّز نظري في الباب، وأتمنى مجيء صديقة لي. لم يعد يزورنا إلّا نفر قليل. غرق الجميع في حياتهم اليومية، وكأنّي مع شهادة علي قد مُحيت أنا أيضًا من الذاكرة.

تلك الأيّام وما استتلاها، حوت الكثير من المتاعب والمآسي وما لا يُحكى أو يُقال، ولولا عشق الإمام والثورة وتمسّكي بالمبادئ والمعتقدات، لما تحمّلت تلك الصعوبات أبدًا.

وهكذا ولجت مرحلة صعبة من التحدّيات، تحتّم عليّ اتخاذ قرارات أصعب وأكبر. لقد مضى علي في سبيل أهدافه ومُثُله، وأنا بقيت في أثر اكتشاف أهدافي ومُثُلي والبحث عنها..

في العام التالي، وضعت الحرب أوزارها، وعاد المقاتلون من الجبهات إلى المدن، وانغمسوا في حياتهم الاعتياديّة، وشيئًا فشيئًا تغيّر الكثير من الأشياء.

في العام 1988م، وبتشجيع وإصرار من أمّي ومتابعتها، انتسبت إلى معهد «التهذيب» وللمرة الثالثة انشغلت في دراسة سنة ثانية حادقات الأطفال.

ربما كانت الأعوام الأولى من أصعب سنوات فراقي لعلي، ولكن مع

1- الخميس والجمعة. (المترجم)

وجود التقاويم والمذكّرات التي كنت أخطّها على صفحاتها، كنت أعيش معـه فأتحسّس وجـوده بشكل عجيب. ما زلت أحتفـظ بتلك التقاويم، ومن خلال النظر إليها وقراءة كلمتين أو ثلاث كلمات مشفّرة كنت قد كتبتهـا على شكل مذكّرات علـى رأس الصفحات تحيا من جديد أمام ناظري كلّ الذكريات منذ اليوم الأول للخطبة حتّى لحظة الاستشهاد.

2

خاطب ذو عينين زرقاوين

في شهر آذار من عام1986م، رحت أنظر من خلف نافذة الحافلة إلى الأشجار العارية واليابسة جنب الرصيف، والثلوج التي غطّتها طبقة من الغبار والتراب، وقد أخذت تذوب شيئًا فشيئًا. كانت السماء صافية زرقاء، وأحيانًا كانت جوقة عصافير تخرج إلى الطيران وسط السماء.

ضغط السائق على مكابح الحافلة ونظر في المرآة مناديًا بصوت عالٍ «هنرستان»؛ أيّ المهنية.

ترجّلت من الحافلة فتاة ذات وجه دائري أبيض اللون، وعينين خضراوين جميلتين، بدت لي أنّها أجمل من كلّ الفتيات اللواتي رأيتهنّ. كانت تجلس دائمًا في آخر الحافلة وتتحدّث مع صديقاتها بصوت منخفض. كنت أعلم أنّها مثلي في السنة الثانية وتُدعى «مريم». سمعت ذلك من صديقاتها، لكنّنا لم نكن في الصف نفسه.

توقّفت الحافلة مقابل مهنية «شهداء ديباج». عدّلت مريم عباءتها، وغطّت بها طرف وجهها وترجّلت منها، ثمّ راحت تلوّح بيدها لصديقاتها من الخارج مودّعةً إيّاهن.

كان أغلب ركّاب الحافلة تلامذة في مهنية التهذيب، كانت تعبر من شارع «ميرزاده عشقي» حيث يقع منزلنا، وكل يوم كنت أنزل أمام مستشفى الإمام الخمينيقدس سره. أطلق على زقاقنا في تلك الأيّام اسم

«مهرغان» الواقع مقابل زقاق «قاضيان». بعد أن عبرت الشارع ودخلت الزقاق رأيت شاحنة صغيرة متوقّفة أمام منزلنا. دخل بعض الرجال إلى باحة المنزل، وبعد قليل خرجوا حاملين أوعية كبيرة ووضعوها في الصندوق الخلفي للشاحنة. عندما وصلت إلى الباحة وقفتُ جانبًا كي يخرج الرجال الذين وضعوا ثانيةً بعض الأوعية من المخلّلات في صندوق الشاحنة. غصّت باحة منزلنا بالجموع، وامتلأ فضاؤها بالروائح المختلفة، وانشغلت كلّ مجموعة من النسوة في أنحاء الباحة بعمل ما، جلوسًا أو وقوفًا. بينما وقف عدد من النساء إلى جانب موقد الغاز لإعداد المربّى داخل قدر كبير، وراح عدد آخر يسكب عصير السكنجبين[1] المبرّد داخل القوارير. جلست بعض النسوة على بساط كبير لتعبئة المكسّرات الموضوعة على صينيّة وسط البساط داخل أكياس النايلون الصغيرة وأغلقنها بشرائط صغيرة خضراء. عندما عبرت من أمام السيّدة «حميد زاده» سلّمتُ عليها، فهي صديقة أمّي، وتعمل في خياطة بدلات المجاهدين في المشغل التعبوي «في سبيل الله». ردّت سلامي ببشاشة وجه، وهمست شيئًا في أذن إحدى النساء الجالسات قربها. اعتراني الخجل وشعرت بحرارة وجنتيّ وأسرعت إلى البهو.

في البهو، جلست 7 أو 8 نسوة، ومُدّ خوان[2] أبيض كبير على السجادة، وجبل من قوالب السكّر[3] قد تكوّم وسطه. دخلت ذرّات السكّر المنتشرة حلقومي، فشعرت بمذاقها الحلو. كانت إحدى النسوة تقرأ دعاء التوسل غيبًا، بينما راحت باقي النسوة وهنّ يكسّرن قطع السكر الكبيرة في

1- سكنجبين: شراب خاص يعدّ من النعناع والعسل أو السكر. (المترجم)

2 - مائدة، سفرة.

3- قالب السكر معروف في إيران بشكله القاموعي؛ وقد يعد بطرق أخرى، ويعمد إلى تقطيعه وتحويله إلى مكعبات صغيرة حتى يسهل تناولها في الفم عند شرب الشاي مثلا؛ أو تذويبها في الأواني لإعداد الحلوى وما شابه. (المترجم)

الهاون يرتّلن زمزمة «يا وجيهًا عند الله اشفع لنا عند الله».

دخلتُ خلسةً إلى المطبخ. كانت أمّي قد وضعت قِدرًا كبيرةً على الغاز، وراحت تحرّك ما بداخلها بواسطة مغرفة كبيرة، فأزكمت رائحة الخلّ حلقومي.

ألقيت التحية على أمّي وسألتها عن أحوالها. أردتُ فتح البراد فإذا بالسيّدة حميد زاده تقف خلفي في المطبخ وتهمس شيئًا في أذن أمي.

شممت رائحة مؤامرة، وحثّني الفضول لمعرفة ما همستا به. أسرعت إلى الغرفة، وبقيت هناك بحجّة تبديل ملابسي وارتداء اللباس المنزلي. كانت نفيسة ذات السنوات الخمس نائمة في الغرفة.

بعد قليل نادتني أمّي. طرحتُ كنزتي فوق بنطالي وذهبت إليها. كانت السيّدة حميد زاده في انتظاري مع تلك السيّدة التي كانت تجلس قربها في زاوية الغرفة خلف النسوة اللواتي كنّ يكسّرن قوالب السكر. أومأت إلي أمّي كي أرتّب شعري، انتبهت للتوّ أنّي لم أسرّح شعري، كذلك أشارت إليّ بحركات العين والحاجب كي أحضّر لهنّ الشاي. بدا واضحًا لي السبب الذي جعل صديقة السيّدة حميد زاده تصبو إليّ بنظراتها كثيرًا. سكبت الشاي في أقداح مخصّصة للضيوف وملأت القندان بمكعّبات السكّر ووضعتها وسط الصينيّة.

رجعت قليلًا إلى الوراء ونظرت إلى لون أقداح الشاي وصفائه؛ كان لونها زهيًّا يتصاعد منها البخار.

تفحّصت نفسي أمام السماور المعدني وسرّحت شعري بيدي ودخلت البهو. كانت صديقة السيّدة حميد زاده متوسطة الطول، بيضاء البشرة، وكان حاجباها البنيّان عريضَين، وفمها ورديَّ اللون، ترتدي ثيابًا أنيقة جدًّا. عندما انحنيت أمامها لأقدّم الشاي لها

تبسّمت ونظرت إليّ بتودد قائلةً: «سلمت يداك، أسعدك اللّه».

بعد ذلك، قدّمتُ الشاي لأمّي وللسيّدة حميد زاده بيدَين مرتجفتَين، وأخذت الصينيّة والقندان إلى المطبخ ثمّ ذهبت إلى الغرفة وحبست نفسي هناك.

أخرجتُ التقويم من حقيبتي ووضعت إشارة × صغيرة على يوم السبت 7 آذار 1986 وكتبت «مراسم الطلبة».

***

في اليوم التالي، كان عطلة ما بين الامتحانين، نمت بعد صلاة الصبح حتّى الساعة التاسعة والنصف. عندما استيقظت وذهبت إلى الحمّام لأنظف أسناني، اتّسعت عيناي من التعجّب؛ فالسيّدة حميد زاده وتلك السيّدة الأنيقة المظهر التي رأيتها البارحة كانتا تقفان مع أمّي في فناء المنزل وتتحدّثان إليها. ذهبت إلى المطبخ واختبأت هناك، وبعد قليل غادرتا. جاءت أمّي وقالت: «فرشته، إنّها السيّدة منصورة صديقة السيّدة حميد زاده، تلك السيّدة التي أتت البارحة معجبة بك، لقد مدَحَتها السيّدة حميد زاده كثيرًا، وقالت إنّها عائلة جيّدة وابنها صديق ابن السيّدة حميد زاده ورفيق جهاده».

أجبتها باستياء: «أمّي، لقد شرعت ثانيةً! كم مرّة أخبرتك أنّني لا أنوي الزواج، أريد أن أكمل دراستي وأدخل الجامعة».

أجابتني: «لا تفزعي! فهل تظنّين أنّهم سيأخذونك بهذه السرعة، أنا أيضًا أخبرتهم بذلك. لقد أخبرتني السيّدة منصورة أنّها معجبة بنجابتك، وأنّ ابنها يرغب في فتاة مثلك، ولا مشكلة لهم إن تابعتِ تحصيلك العلمي بعد الزواج، وذكرت لي أنّ ابنتها عقدت قرانها رغم أنّها تتابع تحصيلها».

أحنيتُ رأسي ولم أجبها بشيء، تبسّمت أمّي وقالت فرِحة: «يبدو أنّهم عائلة جيّدة، وابنهم في الحرس الثوري».

كانت أمّي تعلم أنّ أحد شروطي للزواج هو أن يكون زوجي المستقبلي «حارسًا ثوريًّا». برأيي، إنّ الحرس الثوري هم أشخاص كاملون لا يشوبهم عيب، وهم أفراد مؤمنون ومتديّنون، ومن الناحية الأخلاقية متساوون في المنزلة والمقام مع العلماء.

ثم أردفت أمّي: «أخبرتني السيّدة منصورة أنّ ابنها في الجبهة منذ بداية الحرب».

شعرت أنّ والدتي راضية عن هذا الزواج، فهي ما تفتأ تذكر معاييري وشروطي للزواج. كان من شروطي أن يكون زوجي مجاهدًا. كنت قد أخبرت أمّي أنّني أرغب في فعل شيء للثورة، لا أحبّ أن أكون عبئًا على المجتمع، إنّ هدفي هو أن أكون في خدمة الثورة وفي خدمة وطني من خلال ارتباطي بمجاهد. عندما لاحظت أمّي صمتي، لم تردف شيئًا.

***

في اليوم التالي، عندما عدت من المدرسة كانت أمّي قد نظّفت البيت ورتّبته بشكل لافت ومميز. فقد كنست عتبة الفناء ورشّت الماء وشطفت الباحة، كذلك نظفت النوافذ ولمّعتها، ونظفت الغرف وكنستها وغيّرت ديكورها. وانتهت كلّ تلك الجلبة والانهماك بالمخللات والمربى التي كنّ يحضرنها للجبهة.

صارت رائحة البيت كالورد. تألمت كثيرًا من أجلها، فهي قامت بكلّ هذه الأعمال وحدها خلال 4 أو 5 ساعات.

همست أمّي قائلة: «من المقرّر أن تأتي السيّدة منصورة وابنها إلى منزلنا اللّيلة».

تجمّدت أطرافي لدى سماعي هذا الكلام وخفق قلبي. بعد الغداء قمت بمساعدة «رؤيا» بإكمال تنظيف المنزل، بينما سيطر عليّ الاضطراب بسبب مجيئهم لطلب يدي.

حلّ المساء. كانت أمّي تعدّ طعام العشاء، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف عندما رنّ جرس بوّابة الفناء، فنهض والدي وفتح الباب. لقد كانت السيّدة منصورة وابنها.

احتجبتُ أنا وإخوتي في غرفتنا، بينما ذهب والداي برفقة الضيوف إلى غرفة الاستقبال. لم أدرِ ماذا أفعل. زاد اضطرابي، وتصاعدت أنفاسي من القلق. وبسبب عدم اشتغالي بشيء ذهبت في أثر تقويمي. فتحته ووضعت علامة صغيرة قرب يوم الاثنين 18 آذار.

كانت مدفأة الكاز وسط الغرفة، والبخار يتصاعد من فتحة إبريق الشاي الموضوع عليها، مع أنّ جو الغرفة كان دافئًا إلّا أنّي كنت أرتجف من البرد وأسناني يصطكّ بعضها ببعض. شعرت أنّني أتجمّد شيئًا فشيئًا من الداخل.

بعد دقائق، دخلت أمّي إلى الغرفة وقالت بهدوء: «فرشته؛ هيّا بنا، لقد أجاز لك والدك محادثة العريس».

كاد قلبي ينخلع من مكانه، فقدت السيطرة على أطرافي. مشت أمّي أمامي وتبعتها. ما إن وطئت قدماي أرض غرفة الاستقبال حتّى أظلم كلّ شيء أمامي. نهضت السيّدة منصورة وابنها لاستقبالي وسلّما عليّ ببشاشة. خرج والدي وأمّي برفقة السيّدة منصورة من الغرفة. وقف العريس في آخر الغرفة، بدا لي أنّه ممشوق القوام. في تلك اللحظة مرّ في ذهني أنّني إذا انتعلت حذاءً ذا كعب عال (10سم) تقريبًا سأصبح بطوله. خفض رأسه إلى الأسفل، فانتهزت الفرصة ونظرت

إليــه جيّدًا. كان يرتدي بنطالًا عسكريًّا ذا ثماني جيوب، ومعطفًا فاتح اللون، وقميصًا بنّيًا. كان شعره أشقر اللون ولحيته وشارباه شقراوين بلــون الحنّاء. لم أرَ عينيه؛ لأنّه لم يرفع رأسه لحظة واحدة. لم أدرِ ما أصنع، خبّأت وجهي بطرف عباءتي[1] حيث لم يبن سوى أنفي.

وُضِعتْ على السجادة وسـط الغرفة علبة حلوى وباقــة زهور. ملأ عطر الورود الجميل أرجاء الغرفة. جلس هو في آخر الغرفة قرب نافذة تطـلّ على الزقاق، بينما أنا جلست إلى ناحيــة اليمين وأسندت ظهري إلى الجدار. خيّم الصمت دقائق عدّة، لكنّه في النهاية بدأ الكلام:

– بسم الله الرحمن الرحيم، اسمي علي تشيت سازيان. أنا تعبويّ. تعبــويّ من أتبــاع خط الإمام، يفصلني عن المـوت ثانية واحدة. ادعي لِي كــي تكون الشهادة من نصيبــي. في كلّ لحظة يمكن أن أستشهد أو أجرح أو أقع في الأسر. في أغلب الأوقات لا آتي إلى همدان كلّ شهر.

صمــتَ قليلًا، ربما انتظر منّي قول شــيء. عندما رأى سكوتي تابع كلامه:

– لم أدرس أكـثر من الصف الثاني ثانــوي؛ وذلك بسبب الحرب، فالحرب في حياتي من أولى الأولويات. ولأنّ الإمام أصدر تكليفًا بعدم إخــلاء الجبهات، سأبقى أحارب وأدافع عن الدين والمعتقدات والثورة حتّى لو استمرّت الحرب عشرين سنة قادمة. دراستي في فرع الكهرباء في معهــد ديباج، ولا أملك شيئًا من مــال الدنيا، لا منزل، لا سيّارة، لا نقود، ولا شيء.

صمــتَ ثانيةً لعلّي أقول شيئًا، لكنّه تابــع: «أشكر الله بالتأكيد أنّني سليم البنيــة، والحمد لله أنّني رياضي مقاتل. وإذا كنتِ لا ترغبين في

1- مــن عادة المرأة الإيرانيّة أن تغطي وجهها من الأنف إلى أسفل الذقن بطرف عباءتها عندما تتكلم مع الأجنبي. (المترجم)

ذلــك فــكلّ شيء يتغيّر، أقصــد إذا لم تكن زوجتــي المستقبلية راضية فأتــرك الجبهة وأبقى هنا في همدان وأجد لنفسي عملًا». تعجّبتُ من سماعي هذا الكلام وقلت: «كلا! في الواقع إنّ أحد شروطي للزواج هو أن يكون زوجي من أهل الجبهة والحرب».

افترّ ثغره عــن ابتسامة. كان في يده سبحة يحرّك حبيباتها واحدة تلو الأخــرى بسرعة. فجأةً توقّفت يداه عــن التسبيح وملأت الضحكة تمــام وجهه. أحسســتُ أنّني حزت علامة 20 في امتحــاني الأوّل. قال بسرور: «الشكر لله؛ لأنّني نــذرتُ نفسي للجبهة، فأنت عندما تنذرين شيئًــا للمسجــد (إنــاء أو سجادة) لا يمكنــك بأيّ شكل مــن الأشكال إخراجه من المسجــد إلّا في حال كُسِرَ هذا الإناء أو اهترأت السجادة، حينها يمكنك أيضًا رتقها ثانيةً وإعادتها إلى المسجد».

سألني: «وماذا عنك؟ ما هدفك من الحياة والزواج؟».

- أرغــب كثــيرًا في أن أساعد الثــورة، فأنا أساعد أمّــي في أعمال دعــم ومساعدة الجبهة، لكنّي أعتقــد أنّه ينبغي لي المساعدة أكثر من ذلــك. لا أدري كيف، ربما إذا كان زوجــي المستقبلي مجاهدًا يستطيع مساعدتــي؛ حيــث إنّ عقيدة الشخــص وتديّنه وإيمانــه مسائل مهمة بالنسبة إليّ كثيرًا.

لم أعرف في ذلك الوضع والحال كيف أوضّح أفكاري. كنت أصمت بين كلّ جملة أو جملتين.

في الحقيقــة حاولت التكلّم باللغة الفصيحة وباللهجة الطهرانية[1]؛ كذلك هو بدا واضحًا أنّه حاول التكلّم باللغة الفصيحة. سألني: «إذًا، ليس لديك مشكلة إن استشهدت أو جُرحت أو أُسرت؟».

1-حيث إن اللهجة الطهرانية أقرب إلى الفارسية الفصيحة من اللهجة الهمدانية.

اضطربت قليلًا، ولم أدرِ كيف خطر على بالي ذلك وأجبته بخفّة: «لا سمح اللّه، إنّ الإنسان لا يستشهد ولا يُجرح ولا يؤسر دفعةً واحدة».

تبسّم قليلًا فظننت أنّني أجبت إجابة سطحيّة وهشّة، فقلت: «لقد أخبرتنا والدتك أنّك تذهب إلى الجبهة منذ بداية الحرب. الحمد للّه لم يحصل شيء من هذا القبيل، وإن شاء اللّه من الآن فصاعدًا لا تطرأ أيّ مشكلة».

لم يردف شيئًا. وبينما كان ينظر إلى الأرض راح يدير حبيبات السبحة في يده ولسانه يلهج بالذكر. فجأة تذكّرت سؤالي الأساسي الذي تمرّنت عليه منذ البارحة:

- المعذرة، ما هو هدفكم من الزواج؟

أجابني من دون تفكير.

- «أريد أن أُكمل ديني، وأطبّق سنّة رسول اللّه ﷺ ثم سكت قليلًا وتابع ممازحًا:

- في الجبهة تُلغى الإجازات خلال العمليات، فيقول المجاهدون المتأهلون إنّ «علي» مرتاح البال لا زوجة له ولا أطفال؛ لذلك فالأمر سهل عليه. وأنا أبحث عن وضع يجعلني أتفهّم ظروفهم أكثر. أظن أنّه من الأفضل أن يُطبَّق القانون على الجميع ويجرى في ظروف متساوية. بالطبع هذا من الأهداف الثانوية.

تعجّبتُ من كلامه، وأعجبتني صراحته في آن. نظرتُ إليه بطرف عيني، فوجدت أنّه ما زال مطأطئ الرأس والسبحة في يده.

بعد مرور وقت من الصمت المتواصل، قلت: على فكرة اسمي زهراء، طبعًا ذلك على بطاقة الهوية، ولكنّ الجميع ينادونني «فرشته»[1].

1- ملاك (بالعربية).

ابتسم قائلًا: «آنسة زهراء، رائع! أنا أعشق أهل البيت عليهم السلام وأعشق السيّدة الزهراء عليها السلام، حتّى إنّ تلفّظ اسمها المبارك يحتاج إلى لياقة وجدارة».

نهضتُ وخرجت من الغرفة. كان والدي جالسًا في البهو عند الباب. عندما رآني سألني بإشارة الحاجب والعين:

- ماذا حصل؟

قلت بحياء:

- لا شيء، الأمر بيدك.

تبسّم وقال:

- مبارك!

كانت أمّي والسيّدة منصورة في البهو غارقتين في الحديث معًا، فدعاهما والدي إلى غرفة الاستقبال.

أردتُ الذهاب إلى الغرفة حيث أختاي، إلّا أنّ والدتي أمسكت بيدي وأخذتني ثانية إلى غرفة الضيوف. جلس والدي بالقرب من علي، وراح يسأله عن أوضاع الجبهة والحرب، كذلك أمّي راحت تحدّث السيّدة منصورة عن الأنشطة الكثيرة التي قاموا بها لمساعدة الجبهات، كمشغل الخياطة والنشاطات الأخرى.

فجأة انتبهت إلى أنّ والدي يحدّد موعد العرس، وتطرّقوا بعدها إلى مسألة المهر. قال والدي: «ليس في ذهني شيء محدّد، ما تجدونه مناسبًا».

نظرتْ إليّ السيّدة منصورة وقالت برضى: «نيابةً عن المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام أضع مهر العروس أربع عشرة ليرة ذهبية».

همستُ في أُذن أمّي: «ما القصّة! إنّه رقمٌ كبير جدًّا». سمعتني

السيّـدة منصورة فقالت: «لا يـا ابنتي، ليس كثيرًا عليـكِ. إنّ قيمتك أغلى من ذلك، ولكن في النهاية هذا عرف».

قال والدي: «الأمور المادية غير مهمة بالنسبة إلينا، يشهد اللّه أنّنا لم نتحـرَّ[1] عـن عائلتكم حتى. ما شاء اللّه فعليّ شـابّ متديّن وطاهر، يكفينا أنّه في الجبهة منذ اليوم الأول للحرب، وأودعه ابنتي بكلّ فخر. إنّـه شجاع، غيور، ثوري وحزب اللّهي، وهـذه الأمور قيّمة أكثر من أيّ شيءٍ آخـر. أقسم باللّه لو علمتُ أنّك ستتزوج اليوم وتستشهد غدًا لن أتوانى عن تزويجك ابنتي».

احمـرّت وجنتا علي وردّ على كلام والدي: «نحن لدينا الشعور ذاته بالنسبـة إليكم. واللّه لو رفضت تزويجي ابنتك فإنّي لن أنزعج منكم، الحمد للّه فأنتم أيضًا عائلـة تعبوية ولديها شأنها واحترامها، ونفخر بمصاهـرة عائلة متديّنة ومضحيّة أمثالكم». صمتَ برهةً وقال بهدوء أكثر: «منـذ أن وطئت قدماي أرض هذا المنزل كنـت متأكّدًا من أنّني لن أخرج منه خائبًا».

***

في صبـاح اليـوم التـالي، قصدنا منـزل جدتي، وذلـك لدعوتهم للحضـور مساءً، حيث إنّ عائلـة العريس سيحضرون إلى منزلنا، وكي نسلّم علـى «خالي محمود» أيضًا الذي قدم مـن الجبهة حديثًا. قالت أمّـي له: «عزيزي محمـود، لقد تقدّم لفرشته أحـد الخطّاب». ابتسم بشقاوة وغمزني بطرف عينه قائلًا: «مبارك عزيزتي».

طأطأتُ رأسي خجلًا ورحت أعبث بأطراف عباءتي السوداء. قالت أمّـي: «إنّه مثلكَ في الحرس، واسمـه علي تشيت سازيان». كان في يده

1- لم نجرِ تحقيقًا.

قـدحٌ من الشـاي يحتسيه، فعلق الشـاي في حلقومه وغصّ بالسعال، كذلك اتسعت حدقتا عينيه من الدهشة.

- علي؟!

أجابت أمّي: وهل تعرفه؟!

تبسّمت أمّي ونظرت إليَّ نظـرة الظفر قائلة: «قلـت لكم فلنخبر محمود إنّه يعرفه».

عندما هدأ سعاله قال: «ألا تعرفون علي؟ إن علي قائدنا! إنّه يوازي فرقة أنصار الحسين! رجل مقدام لا يعرف الخوف، إنّه مسؤول «معلومات واستطلاع العمليات»، يتحدّث عنه الإخوة أشياء كثيرة، عن الدوريات وعمليات الاستطلاع التي يجريها؛ منها ما هو صحيح ومنها ما هو غير ذلك، لكننا نصدّق عنه حتّى الأساطير. يُقال إنّه يذهب إلى تخوم مواقع العدو، ويقف في أول صف الطعام عندهم. إنّهم يتحدّثون عنه الكثير. في الواقع «قلبه لا يعرف الخوف». هو ذخر استطلاع عمليات فرقة الأنصار حفظه الله».

نظرت أمّي إليّ بتعجّب: «إنّه لم يخبرنا أصلاً أنّه قائد؛ حتّى أمه لم تخبرنا بذلك». قال محمود: «إن علي من المخلصين المؤمنين. سيّدة وجيهة! اعلمي أنّه إذا صار صهرك سيكون الحظ حليفك. وأهم شيء أنّه لا يكذب ولا يرائي، إنّه لا يكذب، لا على الله ولا على عبيده. عندما يتحدّث إلينا يبدأ كلامه بمضمون قول عن الإمام علي عليه السلام: «الضمير هو المحكمة الوحيدة التي لا تحتاج إلى قاض».

قال خالي محمود جادًّا: «ولكن يا أختي العزيزة، سأقول لك شيئًا: لقد نـذر علي نفسه للجبهة والحرب. فكّروا جيّدًا. إنّه ليس من أولئك الأفراد الذين يتركون الجبهات عندما يتزوجون ويلتصقون بمنازلهم».

أجابته أمّي معترضة: «وهل قلنا إنّه ينبغي له ترك الجبهة، عزيزي محمود، وهـل اعترضنا أنا وأمّي على ذهابـك إلى الجبهة أنت وأخي محمد[1]؟».

وبينما كانت جدّتي تحضّر الفاكهة والضيافة تأوّهتْ وأنّت لسماعها اسم محمد، فما كان من أمّي إلّا أن غيّرت الحوار بحذاقة قائلة: «وهل تزوّجت لتصبح جليس المنزل!؟». أطلق خالي محمود ضحكة مرحة.

– يـا إلهـي! أتقارني بيني وبـين علي؟ إن ضربتِني بـ100، لا بل إن ضربتِني بـ 1000 فلا أصبح مثل علي.

نهض خالي محمود وأحضر ألبومه: «لديّ بعض الصور معه».

وبينما هو يقلّب الصور ليرينا صور علي قال: «أعتقد أنّه لم يتجاوز الـ23 سنة، ولكنّه يبدو أنّه ابن ثلاثين ونيّفاً، وهو ناضج».

كان خـالي محمود يقلّـب صفحات ألبومه ويعرّفنـا إلى علي ويثني عليـه. حتّى ذلك اليوم كنـت أخال أنّ زوجي المستقبلـي سيكون رجلاً طويـلاً، عريض المنكبـين، عينـاه وحاجباه سـودٌ. لم أخَل يومًـا أنّني سأتزوج من رجلٍ ذي عينين زرقاوين.

وضع خالي إصبعه على إحدى الصور وقال: «هذا أحد أفراد قواته، جرح في إحدى عمليات الاِستطلاع والدوريات وبقي في أرض العدو. لم يتجرّأ أحد على الذهاب لإحضاره إلى الخلف، لكنّ «علي» ذهب بنفسه بسيّارة الإسعاف إلى داخـل أرض العدو، وأحضر عنصره من هناك. إن مئـة سائق سيّارة إسعاف لا يملك جـرأة علي». أشار خالي محمود بإصبعه إلى صورة أخرى:

1- محمـد فاميل دشتي: شهيد مفقود الأثـر. ولد في 14 اسفند 1319 (1941). ومع بداية الحـرب المفروضـة التحـق بالجبهة كعريـف أول في الأمـن، واستشهد فـي 9 آذر 1359 (1980) في ذو الفقارية –عبادان (آبادان)– ولغاية اليوم لم يعثر على جسده.

- هذا أيضًا علي.

خجلتُ وطأطأت رأسي. قال خالي: «إنّه يهتم كثيرًا بعناصره رغم أنّه متشدّد ونظامي في القيادة، لكنّه رحوم بشكل لا يوصف. عندما يذهب عناصره في دورية يظل معهم حتّى يرجعوا، وإن لم يرجع العنصر الأخير فلا يعود، وهذا ناشئ من رحمته، وبالتأكيد سيكون في حياته مع زوجته وأولاده على هذا النحو».

في ذلك اليوم ظلّ خالي يحدّثنا عن علي ويثني عليه حتّى الظهيرة. عدنا إلى البيت في وقت متأخر. كنت أفكّر طوال الطريق في كلام خالي محمود. انتابني شعورٌ طيّب، وأنّني حصلت على أكبر أمنيّاتي، فالعيش إلى جانب مجاهد كلّ همّه الجبهة والحرب سيؤدي بالتأكيد إلى أن أجد أنا أيضًا طريقي للوصول إلى هدفي، ويكون لدي دورٌ في مساعدة الثورة.

في تلك اللّيلة جاء إلى منزلنا كلّ من السيّدة منصورة، السيّد ناصر، علي، أمير، الحاج صادق وزوجته وابنتهما ليلى وأخت علي. كان للسيّدة منصورة ابنة وحيدة، ابنتها التي عرّفتنا إليها، عندما شاهدتها فغرتُ فاهي للحظات من التعجّب ويبست في مكاني وسط الغرفة. مريم تلك الفتاة الخجولة والجميلة التي رأيتها في الحافلة، والتي أعجبت بها كثيرًا، وأحببت أن نصبح صديقتين، هي ابنة السيّدة منصورة، وها هي تأتي بقدميها إلى منزلنا وتقف أمامي، ومن المقرّر أن تصبح أخت زوجي. كذلك هي تعجّبت حين رأتني.

من جهة أخرى، دُهش علي لدى رؤيته خالي محمود في منزلنا الذي هو أحد عناصره. كان علي دائمًا يسأل عن مصير خالي محمد الذي فُقد جثمانه في أوائل الحرب (1980) في ماهشهر ولم يُعثر عليه إلى الآن.

كان السيّد ناصر، والد علي، رجلًا مسنًّا، مرحًا، مزوحًا وحنونًا، شعره أشهبٌ[1] سابل، وكان متوسط الطول، وسمينًا بعض الشيء، وحديثه يضحك الجميع.

الحاج صادق، هو الابن البكر للعائلة، ولد في العام1958م، شغل منصب مدير الناحية في قهاوند، وزوجته السيّدة منيرة أستاذة مادة التربية؛ وابنتهما ليلى الحلوة الكلام، تبلغ من العمر سنتين. أمير، وهو الأخ الثاني لعلي، ولد في العام 1960، كان أطول إخوته، عيناه وحاجباه سود، ويضع نظّارات، ويعمل في جهاد البناء. في تلك اللّيلة لفتني كم هو عطوف ورحوم. أمّا علي ومريم، فمن حيث الشكل، بدا أنّهما يشبهان أمهما، بينما الحاج صادق وأمير يشبهان والدهما.

في ذلك الاجتماع تحدّد موعد عقد قِراننا: السابع من فروردين 1365 (27آذار1986)، أمّا موعد العرس فَيحدّد لاحقًا.

كذلك أهدتني السيّدة منصورة قطعة قماش تصلح لخياطة القمصان، ومع هذه الهدية أصبحت خطيبة علي بشكل رسمي. في آخر اللّيل، وعند المغادرة، نظر علي إلى الجميع مودّعًا وقال: «سامحوني».

في صباح اليوم التالي كان من المقرّر أن يذهب إلى الجبهة. أحببت أن أقول له: «لا تنسانا من الشفاعة»، لكنّني مهما حاولت لم أستطع.

أردت في تلك اللّيلة وقبل أن أنام، أن أضع داخل تقويمي إشارة على اليوم السابع من فروردين، لكنّ تقويم العام 1364 انتهى، وكان عليَّ شراء تقويم السنة الجديدة. انتهى شتاء 1364 (1986) وحلّت بداية ربيع العام 65 (آخر آذار عام 1986). حلّ ذلك العيد ككلّ أعياد ما بعد

1- أشهب: مخلوط بالسواد والبياض.

نشـوب الحرب؛ إذ لم يشهـد بيتنا لون مراسم عيد النوروز، ولم تفرش مائدة الـ «هفت سين»[1].

في نظـر أمـي، مواسـاةً لعوائـل الشهداء الثكلـى بأبنائهـا، ولأنّنا نعيشـ في حرب، لا ينبغي أن نقيم هـذه المراسم، لكن، هل يأبه الربيع بهـذه الأمور! لقد وفد بعطر الـورود والبراعم وأمطار السنة الجديدة ونسيمها المفرح.

في اليـوم الأول للعيـد قصدنـا بيوت الجـدّات، وبعـد الظهر جاء الأخـوال والعمّـات لرؤية أمّـي وأبي. وفي اليوم الثـاني بقينا في المنزل لاستقبـال الضيوف. وأغلق مشغل الخياطة الذي تعمل فيه أمّي أبوابه في أيّام العيد؛ لذا سررنا برؤيتها أكثر.

تقـرّر أن يكون يوم عقد القـران في اليوم السابع مـن العيد، لكننا لم نكن قد أنجزنـا شيئًا بعد، ولم نذهب لشراء أغراض عقد القران، حتّى إنّه لم يتمّ الحديث عنه، ولا خبر عن علي وعائلته.

في اليـوم الرابع من شهر فروردين، علم والدي ليلًا أنّ معاون علي قـد استشهد. استيقظـت أمّي كعادتها عند الصبـاح الباكر واشتغلت بأعمال المطبخ. عند الساعة التاسعة أيقظتني من النوم وقالت بحزن: «انهضي فرشته، لقد أذيع في الراديو أنَّ مصيب مجيدي، معاون علي، استشهد واليوم سيتم تشييعه. أسرعي تناولي الفطور لنذهب».

استيقظـت نفيسة ورؤيـا أيضًا، تناولنا الفطـور، ارتدينا ملابسنا وانطلقنا. رغم أنّها كانت أوّل أيّام العام الجديد إلّا أنّ روضة الشهداء كانـت مزدحمة. فقـد أتت جموع غفـيرة للمشاركـة في تشييع جثمان

1- هفـت سيـن: وهي تراث إيراني حيث تعـدّ طاولة أو مائدة خاصة يوضـع عليها قرآنٌ ومرآة وسبعة أشياء تبدأ بحرف السين: سيب (تفاح)، سير (ثوم)، سركه (خل) وغيرها للاحتفال بالسنة الجديدة. (المترجم).

الشهيد مجيدي. لقد غسل المطر الذي هطل ليلة البارحة القبور ونظّفها، ووُضع على العديد منها الورود والحلوى والـ «هفت سين».

في روضة الشهداء، هبّ نسيم عليل راح يهزّ الأشجار الصغيرة والكبيرة. ذهبنا إلى مكان قريب حيث ستلقى كلمة قبل بدء التشييع. كانت هذه الناحية المكان الأكثر ازدحامًا في الروضة. شاهدنا بين الجموع السيّدة منصورة ومريم، وسررت برؤيتهما سرورًا لا حدّ له. علا صوت تلاوة القرآن من مكبرات الصوت، ووقف عدد كبير من مسؤولي الحرس والجيش أمام الجموع. قالت مريم: «لقد أحضروا الشهيد هناك في الأمام، وعائلته هناك أيضًا».

في نفس الوقت قُطعت تلاوة القرآن، وصعد مقدّم الحفل خلف المنصة. عندما قال بصوته الجهوري: «بسم ربّ الشهداء والصدّيقين» سكت الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير، واكتنف صمتٌ حزين روضة الشهداء. شكر مقدّم الحفل المشاركة الغفيرة للنّاس، وبارك للأمة وعائلة الشهيد المكرّمة شهادة الشهيد مصيب مجيدي معاون قيادة المعلومات وعمليات فرقة أنصار الحسين عليه السلام. وبينما هو رافع قبضته أمام الملأ هتف:

«لدفن الشهداء... أقدم يا مهدي، أقدم».

اعتلى مقدّم الحفل شرفة طويلة وضيّقة حيث كانت في الطبقة الثانية للمغسل، وتجمّع الناس في ساحة كبيرة مقابل المغسل مخصصة لأداء صلاة الميت، وانتشرت الجموع الغفيرة حتّى مدخل الروضة وداخلها وفي كلّ أرجائها.

كنت أنظر إلى الأطراف حين وكزتني مريم بكوعها قائلة: «اُنظري! إنّه علي أخي». اعتلى علي المنصّة. انقطعت أنفاسي لدى

رؤيتـه. نكصت إلى الوراء خطوات عـدّة، ورحت أنظر إليه بدقّة بعيدًا عن أعـين أمّي والسيّدة منصـورة والآخرين. كانت المـرّة الأولى التي استطعـت النظـر فيهـا إلى علي مـن دون تكلُّف وخجـل. كان لا يزال يرتـدي المعطـف الكاكـي ذاتـه، أمّـا قميصه فلـم يكن ظاهـرًا؛ لأنّ سحّـاب المعطـف وأزراره كانـت مغلقة. بـدا بلحيته المرخـاة مغمومًا ومنقبضًـا، ورغم عرض منكبيه ضمـر جسمه ونتأت عظـام وجهه. شـرع في إلقـاء كلمتـه: «مصيب ابـن البندقية والشظايـا والقذائف، مصيب ابن الجوع والعطش والتعب، مصيب مالك أشتر زمانه...».

رجعت خطواتٍ أكثر إلى الوراء واستندت إلى الحائط ورحت أصغي بدقة. كان يتكلّم بشـكل محكم ورائع، رغم أنّ النشيج قد نخر صوته. فكّـرت كم أنّ ذلـك صعب وثقيل بالنسبة إليه، يعنـي، أتراه كان قرب مصيب عند شهادته؟ كيف كانت حاله؟

نـادتنـي مـريم، فذهبـت وجلست قربهـا. كانت السيّـدة منصورة ومـريم تبكيان. قالت مريم وهي تبكـي: «كان علي ومصيب صديقين، كان يأتـي إلى بيتنا كثيرًا، كان بالنسبـة إلينا أخًا، ولم تفرّق أمّي بينه وبين أمير وعلي وصادق».

ثَقُلَـتْ أجواء الروضـة، وكأنّ جميع الأموات خرجـوا من أجداثهم وراحـوا يجولـون بيننـا وبالقرب منّـا، وغطّـت السماءَ غيـومٌ سوداء رماديـة. وددتُ أن أجلس في مـكانٍ منعزل وأبكـي. اشتقت إلى خالي محمد، وتمنيـت لو يصلنا عنه خبرٌ! ليتهم يعـثرون على جسده ليهدأ قلـب جدّتي. كانت أمّي تبكي بشدة. لم أدرِ إن كان بكاؤها في الحقيقة شوقًا إلى خالي محمد أم من أجل مصيب.

عندمـا انطلقـت الجموع رحـتُ أجري أيضًـا خلف النعـش باكية

ناحبـة. وملأتْ فضـاء الروضة صيحات «لا إلـه إلّا اللّٰه»، كان مشهدًا كئيبًـا وحزينًا جـدًّا، وكأنّ مَـن في التابوت ابنٌ عزيـز للجميع وها هو غافٍ فيه. والجموع تهتف وتردّد:

«أينعت هذه الزهرة.. وافتدت القائد»

«لدفن الشهداء... أقدم يا مهدي، أقدم».

وقـع نظري على مـريم، كانت تقف في زاوية تمسـك عضد السيّدة منصـورة وتسقيهـا الماء مـن «مطرة» صغـيرة كانت بيدهـا. تقدّمت فوجدت السيّدة منصورة قد امتقع لونها وأعياها التعب، فزعتُ للوهلة الأولى فقالت مريم: «تعاني أمّي من مشاكل في الكُليتين؛ ولأجل ذلك لا ينبغي أن تحزن أو تغضب».

وصلـت أمّي برفقـة رؤيا ونفيسـة، وحاولن فعل شيء مـا لتتحسّن حـال السيّدة بسرعـة. لم تكن المراسم قد انتهت بعـد، إلّا أنّنا وصلنا مـع السيّـدة منصورة ومـريم حتّى مستديـرة الإمـام الخميني، وهي المستديرة الرئيسية في المدينة.

تحسّنت حـال السيّدة منصورة قليلًا، وعند التوديع حدّدتْ مع أمّي يـوم الأربعاء للمجـيء إلى منزلنا والذهـاب إلى السوق لشـراء لوازم الخطبة.

عند الغروب، جلسنا في الغرفة، كان والدي مولعًا بمشاهدة الأخبار والتلفاز، فنادانا بصوت مرتفع: «يا أولاد، إنّه علي».

كان تلفزيون مدينة همـدان يبثّ تقريرًا عن الجبهة ظهر فيه علي جالسًـا على تلّـة متحدّثًا عن «جـادّة أم القصـر» والمجاهدين الذين استشهدوا هناك، قـال إنّ طائرات العدو مضافًا إلى قصفها المنطقة كانـت أحيانًـا ترمي علـى رؤوس المجاهدين كتل الحديـد والحجارة

والأكياس.. وأمثال ذلك.

راح الجميع يشاهد التلفاز بلهفة إلّا أنا فلم أستطع إظهار فرحتي.

في اليـوم التـالي، لم يكن والدي في المنزل، طُـرق الباب عند حدود الساعة العاشرة صباحًا، قامت نفيسة، التي كانت تبلغ آنذاك من العمر ست سنوات، فتحت الباب وقالت: «أختي العزيزة، لقد جاء علي».

تـأزّرتْ أمّي بعباءتها وهرولت ناحيـة الباب، دعته كثيرًا كي يدخل لكنّـه لم يقبل. كنت قـد كويتُ ملابسي منذ الصبـاح الباكر، ارتديت مقنعتي وعباءتي وانطلقت برفقة أمي.

كان علـي والسيّـدة منصورة يقفان أمام باب الفنـاء في انتظارنا، فسلّمـوا علينا. كان لا يزال يرتدي المعطـف الكاكي ذاته، وقد أخفض قبعتـه إلى أسفل جبينه بنحو لا يظهر فيـه حاجباه حتى، وردّ سلامي همسًا.

استعار علي من صديقه سيّارة رينو بيضاء وأتى في أثرنا. جلست السيّدة منصورة في المقعد الأمامي بينما جلست أنا وأمّي في الخلف. في ذلك اليوم رأيت عينيه الزرقاوين للمرة الأولى من خلال المرآة. في اللّيلة الماضية أغدق المطر بالهطول فتندّى الزقاق، وبدا الجو ربيعًا عليلًا.

أوقـف السيّارة وسط شارع «شريعتي» بالقرب من مستديرة الإمام الخميني. نزلنا من السيّارة وذهبنا باتجاه سوق «مظفريه». وضع علي يديه في جيبه، وراح يتقدّمنا في السير مطأطئ الرأس محدوب الظهر من دون أن ينبس بكلمة. أنا أيضًا لم يكن لديّ أيّ كلام لأقوله.

عندمـا وصلنـا إلى أول السوق، دنـا منّي وبصعوبـة سمعته يقول: «آنسـة زهراء، المعـذرة، من الأفضل أنّه ما دمنا في همدان أن لا نسير

معًا حتّى لا يرانا أحد من عوائل الشهداء ويُحزنه ذلك».

أومأت برأسي تأييدًا لكلامه، وقلت: حاضر.

اقترحت السيّدة منصورة أن نذهب أوّلًا لشراء خاتم الزواج.

كانت محالّ الصاغة مقفلة ما عدا واحد أو اثنين. وجدنا في منتصف سوق «مظفريه» محل الصائغ «كبريائي» مفتوحًا. دخلنا المحل، فقالت السيّدة منصورة للبائع: «نريد خاتم زواج».

وضع الصائغ طبق المحابس أمامنا، فقالت السيّدة منصورة «آنسة فرشته، استحسني أحدها».

نظرت إلى الطبق، واخترت أخفّ المحابس وأقلّها وزنًا. وضعت الخاتم في إصبعي لأمتحنه. كان مناسبًا لقياس إصبعي. نظرت أمّي والسيّدة منصورة إلى يدي بينما كان علي سارحًا في التفكير في مكان آخر، بالتأكيد كان يفكّر في مصيب مجيدي.

قالت السيّدة منصورة: «عزيزتي فرشته، هذا الخاتم زهيد جدًّا، اختاري خاتمًا أفضل وأثمن».

نظرت إلى علي، أحببت أن يبدي رأيه هو أيضًا. بدا حزن ثقيل على وجهه، فأصرّت عليّ السيّدة منصورة ثانيةً. وكأنّني انتظرت علي ليقول شيئًا. قلت في نفسي فليكن ما يشاء. لم يقل علي شيئًا، واخترت أنا ذاك المحبس.

همست السيّدة منصورة شيئًا في أذن علي فتقدّم وتحدّث إلى الصائغ عن ثمن المحبس. بعد أن زان الصائغ المحبس قال لعلي: «2500 تومان».

عدّ علي النقود ووضعها على لوحة العرض، ثمّ كتب الصائغ فاتورة بذلك ووضع المحبس في علبة صغيرة زهريّة اللون معرّقة بورود صغيرة

حمراء وبيضاء.

نظر إليّ وإلى علي وقال: «مبارك إن شاء اللّه.. حظًّا سعيدًا!».

أردفت السيّدة منصورة بسرور: «فلنذهب الآن لشراء الألبسة».

نظرتُ إلى علي، كانت يداه لا تزالان في جيبه. بدا فرحًا، لكن من الواضح أنّه كان خجلًا.

قالت السيّدة منصورة: «فلنشترِ قميصًا أبيض اللون يناسب استقبال الضيوف، ولنترك ثوب العرس إلى الصيف». أجبتها إنّي لا أريد قميصًا في ظروف كهذه، فسألتني متعجّبةً: «أيّ ظروف؟».

- لقد استشهد مساعد علي؛ وهو حزين لأجله.

نظرتِ إلى علي وقالت: «إنّ الموت والحياة متلازمان، فالسيّد مصيب استشهد والتحق بالحق تعالى، هنيئًا له، ويا لسعادته! أمّا الأحياء فلهم حياتهم. نحن ليلة البارحة لم نحدّد موعد العرس، فكم مرّة ستصبحين عروسًا؟ مرّة واحدة، فعليك أن تفرحي بذلك».

أخفضتُ رأسي ولم أتفوّه بأيّ كلمة. لكن، عندما انطلق الجميع قلت لأمي: «أمّي لا تخضعي لقولهم، لن أرتدي ثوب خطبة، قلبي يحترق من أجل علي، يبدو أنّه أتى إلى السوق رغمًا عنه».

قالت أمّي بهدوء: «حسنًا، لا تتفوّهي بأيّ شيء بعد الآن، أنا سأتولّى الأمر».

استطاعت أمّي إقناع السيّدة منصورة، ولم تعاود إصرارها، فقالت: «على الأقلّ فلنشترِ مرآة وشمعداناً».

عند أول سوق «مظفريه»، كان يوجد مقابل بائع الخضار بائع ثريات ومصابيح. جلنا على كافة المرايا والشمعدانات، وعندما عدنا إل النقطة التي بدأنا منها سألتني السيّدة منصورة: «هل أعجبك

شيء؟».

وقفتُ أمام أرخص المرايا والشمعدانات وأخفّها وزنًا وقلت: «هذان جيّدان».

نظرت السيّدة منصورة إلى علي. لم يكن في المحل غيرنا نحن والبائع وأجيره.

تقدّم علي ونظر إلى المرآة والشمعدان اللذين اخترتهما، وأدرك أنّني فعلت ذلك مراعاةً لأوضاعه. أشار إلى مرآة وشمعدان آخرين، وقال: «ما رأيك بهذين؟».

كانت تلك المرآة والشمعدان في غاية الجمال، وبدا أنّهما صُنعا في الصين، وأنّهما باهظا الثمن. كان سعرهما مضاعفًا؛ وذلك لزخرفتهما بالورود الناتئة والملوّنة بالألوان الجميلة، فمثل هذا النوع من المرايا والشمعدانات كان قد وصل حديثًا إلى السوق في ذاك الوقت وصار موضة.

سألنا صاحب المحل الذي كان واقفًا بالقرب منّا عن ثمنها فأجاب: «3500 تومان». قلت لعلي إنّهما باهظا الثمن، فالمرآة والشمعدان ليسا وسائل ضروريّة لندفع ثمنهما باهظًا. كان علي يصغي إليّ فقلت ثانيةً: «ألم تكن جميلة تلك المرآة التي اخترتُها؟ ليتها فقط كانت بيضاويّة الشكل». قال البائع الذي كان ينتظرنا لنختار شيئًا: «لحسن الحظ يوجد منها في المخزن واحدة بيضاويّة الشكل».

نادى العامل الذي كان مشغولًا بتعليق الثريات: «اذهب إلى المخزن بسرعة وأحضر المرآة البيضاويّة الشكل». خضعنا جميعًا للأمر الواقع، ولم ينبس أحد ببنت شفة. مضى العامل بخفّة وعاد سريعًا، أحضر المرآة والشمعدان ووضّبهما داخل كرتونة وأعطانا إياها، وبلغ ثمنهما 1000تومان. ولإصرار السيّدة منصورة، اشترينا حقيبة سوداء

وذهبية اللون للمناسبات، وقطعة قماش بيضاء لتخيطها لي أمّي عباءة فيما بعد. واشترينا أيضًا قميصًا أبيض مقلّمًا بخطوط عموديّة سوداء وحمراء كثوب خطبة، مع صندل ذهبي اللون.

أما أمّي فقد اشترت لعلي قطعة قماش تصلح لسترة وبنطال، كان لونها جميلًا جدًّا، زرقاء بتروليّة. لكن، لم تسنح له الفرصة ليخيطها. عند الظهيرة، تعبت السيّدة منصورة فأحضر علي السيّارة إلى أول الزقاق، أوصل والدته أوّلًا، ثمّ أوصلنا، عندما وصلنا إلى باب منزلنا، لم يدخل رغم إصرارنا الكثير عليه.

بالرغم من أنّنا لم نتكلّم مع بعضنا البعض سوى بضع جُمل في السوق، تبسّم حين الوداع وقال: «آنسة زهراء، سامحيني، أمضينا وقتًا سيّئًا، كنت أشعر بالضيق». عندما ودّعنا وغادر غصصت بالحزن، أحببت أن يبقى لتناول الغداء عندنا، كنت أعلم أنّه إذا بقي في منزلنا ستتحسّن أحواله، سيجلس مع أبي ويتحدّث إليه، وأمّي بدورها ستقول شيئًا، كذلك نفيسة ستتحدّث بكلام حلو. أحببت أن يبقى عندنا كي تتحسّن حاله.

****

في يوم الأربعاء، 26 آذار 1986 أُصبت بوعكة صحيّة. قلقت أمّي كثيرًا، فذهبنا برفقة والدي إلى مستشفى الإمام الواقع في الجهة المقابلة لزقاقنا. قام طبيب الطوارئ بمعاينتي وشخّص حالي: تسمّم من الطعام. أعطوني حقنةً ومصلًا، وبعد بضع ساعات عدنا إلى البيت مع كيس من أقراص الدواء. لا أدري إن كانت الأعراض أعراض تسمّم، أم خوف واضطراب بسبب مراسم العقد. وجفاني الكرى حتّى الصباح.

عندما نهضت في الصباح ونظرت في المرآة إلى نفسي، هالني

الـروع، بدا لون وجهي شاحبًـا، وعيناي غائرتين، وكأنّه لا يوجد قطرة دم تحت جلدي.

بـدا المنـزل موحشًـا كئيبًا، لم تكن أمّـي في البيت، بينمـا أبي كان يستعد للخروج. لم يشبه بيتنا أبدًا ذلك البيت الذي من المقرّر أن تُقام فيه مراسم خطوبة بعد الظهر.

سألـت أبـي عن أمّـي فأجاب بحـزن: «لقـد استشهد ابـن السيّد رستمـي[1] وابن أخيه[2]، وذهبـت أمك إلى منزلهـم». كان منزل السيّد رستمـي يقع مقابل منزلنا. وهما أخوان تزوّجـا من أختين وسكنا معًا في المنـزل نفسه. أخبرني والـدي أنّ ابنيهما فُقـد أثرهما في عمليات (والفجر 8)، وقد ساءت حالي أكثر لدى سماعي هذا الخبر.

رحـت أحدس بفـترة ما بعد الظهـر ومراسم عقد القـران وعائلة السيّـد رستمـي التـي قدمت شهيديـن. لقـد كان تحمّل ذلـك صعبًا بالنسبـة إليّ وأنا جارتهم، فكيـف بوالديهما!! احـترق قلبي لأجلهم، وسحّت الدموع من عينَيّ.

أشـارت الساعة إلى الحادية عشرة صباحًا، ولا خبر في منزلنا عن إقامـة حفل أو تحضـيرات لمراسم العقد. لقد تأثّـر الجميع بالمصاب الجلـل الذي حـلّ بعائلة السيّد رستمـي. انهمكت أمّي مـا بين منزلنا ومنـزل السيّـد رستمي. كنت مشغولـة بإعداد الطعـام عندما نادتني نفيسـة من فناء المنـزل: «فرشتـه عزيزتي، خالي محمـود يقف لدى الباب ويريدك في أمر ما».

1- محمـد هاشم رستمي؛ ولـد 1347/4/25 (7/1968) في همدان واستشهد في 19 شباط 1986 في الفاو.

2- مسعـود رستمـي ولد في همـدان 1346/4/1 (6/1967)، واستشهد كذلك في 19 شباط 1986 في عمليات والفجر 8 في الفاو – العراق.

أطفـأت الغـاز وأسرعت إليـه. كان خـالي وأمّي يقفـان في الفناء يتحدّثان معًا. عندما رآني خالي قال باستياء: «ما هذا؟! فرشته، لماذا لم تقومي بفعل شيء حتى الآن؟ لماذا لم تجهّزي مائدة العقد؟!».

نظـرتُ إليـه متعجّبـة وهززت كتفـي، عنيـتُ أنّنـي لا أدري شيئًا، فسألني زاجرًا: «ماذا يعني؟!».

- وما يدريني أنا؟ لم يقل أحد لي شيئًا.

نظر خالي إلى ساعته وقال بحدّة: «الساعة الحادية عشرة!».

أجابته أمّي: «عزيزي محمود، لقد قدّم جيراننا آل رستمي شهيدين».

هرول خالي ناحية باب الفناء وزمجر بصوت منخفض: «وماذا كنّا سنفعل؟ أترانا سنحضر فرقة موسيقية وآلة طرب وطبلاً؟!».

ثم التفت إليّ:

- فرشته، أسرعي ونظّفي غرفة الاستقبال لحين عودتي.

نطـق خالي بهـذه الجملة وغـادر. بينمـا أمّي تولّاهـا الاضطراب فهرعـت صوب خزانـة الملابس وأحضرت منها قطعـة قماش حريريّة وسجادة عرسها النفيسة وفرشتها شطر القبلة. كذلك أعطتني الرحل والقرآن وقالت: «ذوقك رفيع، نمّقيها بنفسك».

كان الشمعـدان والمرآة في منزلنا، فأخرجتهمـا من العلبة، نفخت على المرآة ولمّعتها بمنديل ووضعتها وسط سفرة العقد. اخترت للقرآن مكانًا مقابل المرآة فانعكست صورته ذات الغلاف الأخضر فيها.

دلفـت رؤيا إلى الغرفـة وفي يدها زهرية ورد طبيعـي ملفوفة بورق ألمنيـوم وقالـت: «هذه من علـي». سألتها إن كان قد دخـل فقالت لي: «كلا، لقد رافق أمّي في الذهاب إلى منزل السيّد رستمي».

نسّقـت مكان الزهرية بجانب المـرآة والشمعدان، فانعكست كذلك

صـورة الـورود الحمـراء والبيضاء في المـرآة. خالجتني فكـرة لو أنّي رافقتهما لأقدّم معهما واجب العزاء.

بعد قليل، عـاد خالي ومعه أغراض كثيرة. وضع قرب سفرة العقد كلّ الأشيـاء المتبقيـة من سفرة عقـده: سلّة بندق وجـوز فضيّة اللون، فتات من خبـز السنكك[1] مزيّنـة بإكليل فضّي، وصدفتـان بيضاوان، وتـاج مجصّص يوضع فيه خاتم الزواج، مضافًـا إلى الملبّس والحلوى وورد الصفصاف.

لقـد شحـن مجيء خـالي الجميع بالطاقـة والحيويّة، فخـرج أبي وأحضر معه عُلبًا من الحلوى، ثمّ خرج ثانية وأحضر الفاكهة، ثمّ عاد وخـرج لشراء الشوكـولا والكز[2]. في كلّ مرّة كان يعـود فيها إلى البيت تعود أمّي وتوكل إليه مهمة شراء أخرى.

حضرت جدّتي على الغداء. عندما رأتني سألت بامتعاض: «وجيهة! ألم تأخذي فرشته إلى مصففة الشعر؟!».

حانـت من أمّي التفاتة إليّ وأشارت بالنفي، تأفّفت جدّتي غاضبة: انهضـي! لم أرَ عروسًا علـى هذه الهيئة، أسرعـي ونظّفي وجهها على الأقلّ!

كانـت أمّي تجيد فعل كلّ شيء، ففضلًا عـن كونها خيّاطة ماهرة، كانـت أيضًا تجيـد مهنة التزيـين النسائـي. وبأمر مـن جدّتي قامت بتمليسـ شعري، وراحت تحدّث جدّتي كيـف ذهبت مع علي إلى منزل الشهيـد رستمي، واستأذنا العائلة لإقامـة مراسم العقد. كان علي قد قـال لهـم: «نحن لن نقيم حفـلًا رسميًـا، ولكن يهمّنـا أن تجيزوا لنا

1- نوع من الخبز يوضع على الحصى الحار لينضج. (المترجم)

2- نوع من الحلوى الإيرانيّة. اعتاد الزوار على شرائه كثيرًا. (المترجم)

إجراء عقد القران».

عندما انتهت أمّي من تزيين شعري ذهبتُ وارتديتُ القميص الذي اشتريناه، لكن، ما أن رأتني جدّتي حتّى قطّبت حاجبيها ثانية وقالت: «ما هذا الذي ارتديتِه؟ ألم تشتري ثوب عروس؟!».

قلت: هذا جيّد، فهو من جهة ثوب عروس، ومن جهة أخرى، واحترامًا لعلي (بسبب شهادة معاونه) فيه خطوط سوداء.

هزّت جدّتي برأسها وغمغمت، فما كان من أمّي إلّا أن عضّت على شفتيها، وأشارت إليّ كي لا أتفوّه بأيّ كلمة.

بعد الغداء، باغتنا الضيوف بالتوافد؛ العمّات والأعمام وزوجاتهم، خالي وزوجته، وعدد من الأشخاص المقرّبين الذين تمّت دعوتهم.

عند الساعة الثالثة والنصف وصل علي وعائلته وعدد من أقربائهم المقرّبين. كان يرتدي المعطف الكاكي اللون ذاته، وقميصًا بنيًّا، وبنطالاً مخطّطًا، وقد أحضروا معهم قالب حلوى كبيراً تمّ وضعه وسط سفرة العقد.

تدثّرت بعباءة بيضاء اللون مرقطّة بزهور زرقاء صغيرة. جلست بجانب سفرة العقد، والنسوة توزعن من حولي في أرجاء الغرفة، دخل علي ليجلس بقربي جانب سفرة العقد، لكنّه عندما رأى النسوة يجلسن خرج إلى البهو حيث مجلس الرجال.

وتولّى عمّي مهدي مهمة تصوير الحفلة، أمّا مريم فراحت تحف قطعتين من السكر الجامد فوق رأسي. فجأةً، ارتفعت أصوات الصلوات والضحكات من ناحية البهو.

ذهبت أمّي إلى البهو، ثمّ عادت ولحقت بها كلّ من السيّدة منصورة ومريم، ثمّ عادتا.

قالت مريم: «لقد حضر أصدقاء علي، لكنّ علي لم يدعُ أحدًا منهم، لا أدري كيف علموا بالأمر».

ردّت السيّدة منصورة بسرور: «أخبرنا أمير أنّ أحد أصدقاء علي علم بالأمر وقام بإبلاغ الجميع. لقد تعقّبونا واختبأوا في الزقاق الخلفي، وعندما دخلنا تبعونا قائلين: يا الله يا الله. أشكرك يا رب؛ إذ إنّ أصدقاء علي إلى جانبه، وقد اجتمعوا حوله».

وزجل العم باقر:

إذا كنت مؤمنًا صادقًا فلتكن معنا
رغمًا عن أنف كلّ منافق صلّوا على النبي وآله
نادت ملائكة العرش الأحبّة في صميم القلب
كتب على العرش بخط جميل صلّوا على محمد وآله
لا شكّ في أنّ عليًّا وليّ وقد ربّاه النبيّ
هو أمير الجميع فصلّوا على محمد وآله

وبورود أصدقاء علي تبدّلت الأجواء، وجعلت أصوات الصلوات الجماعيّة لمجلس الرجال النسوة أيضًا يصلّين على النبي وآله.

بعد قليل، قالت أمّي وهي تقف لدى الباب: «إنّ السيّد يقرأ خطبة العقد».

تقوّض شيء في قلبي، شعرت كأنّي في أسحار شهر رمضان المبارك، ولم يتبقّ سوى وقت قليل لأذان الصبح، فاغتنمت الفرصة وشرعت في قراءة الدعاء على عجل، ودعوت الله أن يكتبنا في السعداء، ويجعل زيارة مكة وكربلاء من نصيبنا.

تناولت القرآن من الرحل، ورحت أقرأ ما تيسّر من الذكر. عُيّن

خـالي أحمد وكيلًا عنّي، وقال بالنيابة عنّـي في مجلس الرجال: «نعم قبلت». دخل خالي إلى الغرفة حاملًا دفترًا كبيرًا يتضمّن دفتر تسجيل العقـود ووثيقة الزواج. وجعلني أوقّع علـى كلّ الأوراق. قالت أمّي: «إنّ آية الله نجفي[1] يخطب خطبته».

سمعـت ثانية أصوات صلـوات الرجال، وراح العـم باقر هذه المرّة ينشد:

أطلق لسانك طالما الدم يجري في عروقك

صلِّ على النبي وعلى وجهه الجميل الوردي

عمّت أصـداء الصلوات أرجاء المنزل، فنـادت أمّي عن الباب: «يا سيدات لقد جاء العريس».

جلس علي إلى جانبي، وسلّم عليّ بخجل وحياء. وضع خالي محمود دفترًا كبيرًا على ركبتي؛ وأشار إلى المواضع التي ينبغي أن أوقع عليها.

كذلـك مريم وضعت أمـام «علي» الصّدَفَة التـي بداخلها المحبس. تناول المحبس مضطربًا، ولأنّه جلس عن يميني، وضع المحبس في إصبع يدي اليمنى. فقلت بهدوء: «لا يُوضع في هذه اليد، بل في اليد اليسرى».

قدّمـتُ يديَ اليسرى فاحمرّ وجهـه، وخلع المحبس من يدي اليمنى

1- هـو آيـة الله السيّد محمـد حسيني همداني المعـروف بالسيّد النجفـي، من الحكماء والعرفـاء المعاصريـن. ولد في النجـف الأشرف 1904 وقصد همـدان برفقة والده منذ نعومـة أظفـاره. وفي الواحد والعشريـن من عمره عاد إلى النجف ودرس على يد الآيات العظـام السيّـد أبو القاسم الخوئـي والعلامة السيّـد محمد حسيـن الطباطبائي دروس الفقه وأصول الفقه، الـكلام والفلسفة وصار محطّ اهتمام الميرزا النائيني وحصل على شهـادة الاجتهـاد منه ،كذلك حـاز مصاهرة هـذا المرجع الكبير. عاد إلـى همدان بعد اثنتيـن وعشرين سنـة واشتغل في التدريس والتأليف وإرشاد النـاس. أخيرًا، ودّع الحياة وقـت السحر فـي التاسع من مهـر 1996م ودُفن في جوار مرقد الشيـخ البهائيٍ في حرم الإمـام الرضا عليه السلام. من مؤلفاته: الأنوار الساطعة في تفسير القرآن (18مجلداً) والأنوار الساطعة من أصول الكافي (6أجزاء) وغيرهما..

ووضعه في اليسرى. وقام أبي بدوره بوضع خاتم عقيق في إصبع علي كان قد اشتراه سابقًا لمثل هذا اليوم.

في العام الماضي كنّا قد ذهبنا إلى العمرة أنا وأهلي، واشترى والدي لصهره المستقبلي ساعة أنيقة من مكة؛ قدّمها لعلي هدية يوم الخطبة.

جلت بطرفي في المرآة فرأيت علي ينظر إليّ، شعرت بالخجل، فخطفت نظرتي بسرعة وأخفضت رأسي. كانت المرة الأولى التي يراني فيها بشكل جيّد.

****

في اليوم التالي، ذهبتْ أمّي إلى المشغل؛ وانشغلتُ أنا وأختيّ بتنظيف المنزل، ولم تكن آثار التسمّم قد خرجت من جسمي بعد.

عند الظهر، لما رجعت أمّي قالت: «عندما كنتِ نائمة صباحًا جاء علي ودعانا إلى منزلهم لحضور الهيئة ليلًا». في المساء ذهبنا عائليًّا إلى الهيئة، ونصبت أمام مبنى منزلهم لافتة بيضاء مضاءة بمصباح مكتوب عليها: «هيئة سبيل الشهداء». أسّس الهيئة كلّ من أمير وعلي، وكانت تلك اللّيلة الأولى التي يقام برنامج الهيئة في منزلهم، والمرة الأولى التي نزورهم فيها. كانت مساحة الشقق في الطبقة الرابعة للمعهد الفني 130م وثلاث غرف نوم، كانت هذه هيئة الرجال. أمّا في قسم النساء، كنت أنا وأمّي وأختي والسيّدة منصورة ومريم والسيّدة منيرة.

في تلك اللّيلة علمت أنّ والدَي السيّدة منصورة اللذين ينادونهما الجدّ والجدّة، كذلك الأخت الوحيدة للسيّدة منصورة، وأخاها الذي يشبهها إلى حدّ كبير، يعيشون في طهران.

أمّا مريم فقد عقدت قرانها على ابن جيران الجدّة الذي يعمل في

وزارة الخارجية، وتقرّر أن تتزوّج في الصيف القادم، وتنتقل إلى طهران.

دخل علي الغرفة حيث نجلس ورحّب بنا. بدا البشر على محيّاه لدى رؤيتنا، واختفى بعد ذلك حتّى نهاية المراسم.

بعد انتهاء المراسم أوصلنا علي إلى المنزل بسيّارة أحد الأصدقاء. عند الوداع تماهل قليلاً كي يدخل والدي المنزل، ثمّ التفت إلى أمّي وقال: «يا حاجة، نريد غدًا الذهاب إلى قم برفقة السيّد محمود وزوجته، أتجيزين لزهراء أن تذهب معنا؟». سكتت أمّي قليلاً وقالت: «أأخبرتم والدها بالأمر؟»

فرك يديه مربكًا وقال: «في الحقيقة كلّا، خجلت من ذلك».

تبسّمت أمّي وقالت: «حسنًا، أنا سأخبره الآن، تفضّلوا غدًا بالمجيء فإن أجاز لكم تصطحبون فرشته معكم».

لم يردف علي شيئًا، ودّعنا وذهب. أخذت أمّي الإذن لي من أبي، وليلًا هيّأتْ لي حقيبة صغيرة وضعت فيها ثوبًا أو ثوبين، مع ثوب صلاة ومنشفة وهويّة.

عند الصباح الباكر أيقظتني للصلاة وأوصتني بالتوصيات اللازمة. بينما كنّا نتناول طعام الفطور قرع علي جرس المنزل، فتح أبي الباب فوجد أيضًا خالي وزوجته.

فرحت أمّي كثيرًا عندما رأتهما، وأوصتهما بي.

رشّت أمّي الماء خلفنا[1] بينما حمل أبي قرآنه الصغير الذي يحمله دائمًا في جيبه، وجعلنا نمرّ من تحته، ترافقنا دعواته وصلواته على النبي وآله.

استعار علي سيّارة بايكان مهترئة من صديقه. كان يقودها

1- من التقاليد: رمي الماء عند مغادرة المسافر، للتفاؤل بعودته سالمًا. (المترجم)

بنفسـه. جلس خالي في المقعد الأمامـي بينما جلست أنا وزوجة خالي في المقعـد الخلفـي.

ضغط علي على دواسة الوقود وانطلقت السيّارة تتعق كالغراب.

انهمكت أنا وزوجة خـالي في الخلف بقصّ الأحاديث، وكذلك علي وخالي محمود.

شـرع خالي محمود في المزاح وسـرد الذكريات من وسط الطريق، ولم ننتبه من الضحك كيف حلّ الظهر، ووصلنا إلى «ساوه».

قصدنا مطعمًا يقـدّم «جلو كباب»[1]، فطلب علي لي وله «جلو كباب سلطـاني». ولأنّي كنـت أجلس قبالة علـي خجلت من تنـاول الطعام، فتناولت كمية قليلة من الأرز وتوقّفت عن الأكل.

لا أدري لمـاذا زوجـة خالي لم تأكل أيضًا بشـكل جيّد، وبقي نصف طعامهـا في الطبـق. أمّا خالي محمـود الذي كان يبحـث عن موضوع للتعليـق عليه فقـد جعل من هذا الحدث مدعاة ضحـك، فقال: «سيّد علـي! لا تقلق أبدًا، مع هاتين الزوجتين سنحجّ في غضون سنة واحدة؛ وسينادوننا أنا وأنت في السنة اللاحقة حاجّ فلان، وحاجّ فلان..».

بعـد ذلـك سكب ما تبقّى مـن طعام زوجته في صحنـه وتناول منه لقمـة. قال وهو يأكل بشهيّة: «سيصبح كلانـا سميناً، فهاتان المرأتان لا تـأكلان شيئًا، وبعد أشهر عدّة سنصبح هكذا»، ثمّ نفخ خدّيه مقلّدًا الأفراد البدينين، وتابع: «في السنة القادمة مضافًا إلى سهولة امتلاكنا السيّارة سنمتلك منازل أيضًا».

كان خالي يطلق فكاهاته، ونحن نطلق ضحكاتنا.

وصلنـا إلى قم عصـرًا. راح علي وخالي يبحثان عـن فندق مجاور

1- كفتة مشوية مع الأرز المطبوخ. وجلو كباب سلطاني هو الطبق مع المقبلات. (المترجم)

للحــرم. طلب أصحــاب الفنادق بطاقــات الهويــات، كان لدينا جميعًا بطاقــات هويات بيد أنّ بطاقتــي هويتنا أنا وزوجة خالي كانتا بلا صور شمسيــة. مهما حاول علي تسوية الأمر مــع مدير الاستقبال في الفندق لم يفلــح، فاضطُررنا إلى الذهاب إلى مديرية الفنادق، استغرق الوقت ساعتــين أو ثلاث ساعات كي نعثر على ذلك المكان، حصلنا في النهاية علــى رسالــة موافقة وعدنــا إلى الفنــدق. حمل علي وخــالي أغراضنا ووضعاهــا في الغرف، بينما بقيت أنا وزوجة خــالي في صالة الانتظار. في البداية، عزمنا على الذهاب إلى الحرم، مشى أمامنا خالي وزوجته وهمــا يتحدّثان مع بعضهما البعض. بينما تبعناهما أنا وعلي صامتَين. تذكّرت كلامه في همــدان، فتأخرت عنه بضع خطوات، فصار أمامي، انتظر قليلًا كي أصل إليه، لكنّني حرصت على البقاء خلفه دائمًا. ضاق ذرعًــا فسألني: «هل أنت متعبة؟». أجبته: «كلّا، لكنّك قلت أن لا نمشي معًــا في الطريق، أتذكُر موضوع عوائل الشهداء؟!». تبسّم وسحبني من يدي قائلًا: «هذا الموضوع يتعلّق بهمدان، أمّا هنا فلا أحد يعرفنا».

عدنــا إلى الفندق منتصف اللّيل. كانــت الغرف في الطابق الثاني. أخــرج خــالي مفتاحًا مــن جيبه وفتح بــاب الغرفة، ودعــا زوجته إلى الدخول، بينما بقيت أنا حيرى لا أدري أين أذهب.

قام علي بفتح باب الغرفة المجاورة ودعاني قائلًا: «تفضلي».

انتابني شعوران؛ شعور بالخجــل وشعور بالغربة. نظرت إلى زوجة خالي ورجوتها بنظراتي كي تأخذني إلى حيث هي، فما كان منها إلّا أن ودّعتني وقالت: «تصبحين على خير». أُسقط في يدي ودخلت الغرفة.

تولّاني شعور بالاضطراب، فالغرفة وجوّها كانا ثقيلين عليّ، جلست علــى إحدى الكنبات قــرب النافذة، بينما راح علــي يتمشّى في الغرفة ويُشغل نفسه عبثًا بالأغراض الموجودة فيها.

حوت الغرفة سريرَين يفصل بينهما منضدة صغيرة، مضافًا إلى براد صغير، جهاز تلفاز، كنبتَين وطاولة قرب الكنبة.

سألني علي: «ألستِ متعبة؟ ألم يدهمك النعاس؟». أجبته بقلق: «كلّا».

كأنّه تنبّه إلى أوضاعي النفسيّة، وتكهّن سبب قلقي، فرفع أكمامه ودخل الحمّام. مضت مدّة من الوقت وهو داخله. نهضت ووقفت خلف النافذة، شاهدت قبّة حرم السيّدة المعصومة عليها السلام والمئذنة، كان مشهدًا جميلًا يهدهد العيون، فلم أرغب في أن أشيح نظري عنه.

رغم أنّ الوقت كان متأخّرًا إلّا أنّ السيارات المضيئة كانت تعبر الطرقات، وكذلك مصابيح النيون الملوّنة، وواجهات العرض لمحال بيع السوهان، وبيع اللوازم الدينية والسبحات والهدايا، كانت ما تزال مضاءة ومشعشعة، والناس يروحون ويجيئون على الأرصفة التي تنتهي إلى الحرم.

خرج علي من الحمّام وهو يرخي أكمامه، ووجهه ما زال مبلّلًا بالماء.

عندما رآني تعجب وقال: «ألم تنامي بعد؟!».

- لا أشعر بالنعاس.

تبسّم وقال: «من الواضح أنّ النّعاس قد غلبك وأنّك متعبة؛ سأصلّي، وأقوم بإنجاز بعض الأعمال المتوجّبة عليّ، إذا كان وجودي هنا يقلقك ويعذّبك أذهب إلى الأسفل».

قلت: «لا، فليرتح بالك».

ردّ قائلًا: «فلينعم بالك أنتِ أيضًا؛ اخلدي إلى النّوم، أتودّين أن أطفئ المصباح؟».

وقبل أن أجيبه بنعم أو لا أطفأ الأضواء، واستعدّ للصلاة. انتهزتُ الفرصة فخلعتُ عباءتي وغطّيت وجهي بالبطّانيّة، ولفرط تعبي غطظت في النوم سريعًا.

استيقظت من النوم على صوت الأذان المتسرّب من الشّارع، نظرت إلى سرير عليّ بشكل لا إرادي فوجدته خاليًا والبطّانيّة مرميّة جانبًا، واجتاحت أضواء الطّرقات الغرفة فأضاءتها. جلست على السّرير فتناهى إلى سمعي سرسقة مياه. كان الحمّام مضاءً، نهضت وارتديت العباءة. خرج عليّ من الحمّام وهو يكمل وضوءه؛ سلّمت عليه فقال متعجّبًا: «أنتِ مستيقظة؟! كنتِ متعبةً جدًّا ليلة البارحة ما إن وضعتِ رأسكِ على الوَسادة حتّى غطظتِ في نومٍ عميق».

- أجل؛ كنتُ متعبة.

- أنا والسيّد محمود سنذهب إلى الحرم لنصلّي صلاة الصّبح هناك. أتأتين معنا؟

- لست على وضوء.

فتح باب الغرفة وقال:

- حسنًا توضّئي وسأذهب أنا لإيقاظ السيّد محمود.

****

بعد تناول طعام الفطور توجّهنا إلى طهران. مضى على خروجنا من قم 40 دقيقة، فجأة قال خالي بلهجة همدانية غليظة: «عجبًا! ها قد نسينا شراء الهدايا».

رفع عليّ قدمه عن دوّاسة البنزين وخفّف من سرعة السيّارة قائلًا: «ماذا نفعل، هل نرجع؟!».

ضحكنا أنا وزوجة خالي في مقعدنا الخلفيّ مليًّا.

أســرع خالي وقال: «أيعقل أن نأتي إلى قم ولا نشتري السّوهان! لن يسمحوا لنا بالدخول إلى همدان. سيقتلعون عيوننا».

وجدنا على بعد أمتار عدّة مستديرة؛ فاستدار عليّ بالسيّارة واتّجهنا مجـدّدًا إلى قم. قبـل وصولنا إلى قم وجدنا متجريـن أو ثلاثة بجانب الطّريق، فاشترينا علب سوهان عدّة؛ ضحكنا مليًّا وعدنا.

مضـت ساعة على انطلاقتنـا ناحية طهران، وخـلال مسيرنا على أوتوستراد طهران - قم راح محرّك السيّارة يصدر صوت قرقرة، فقال خالي ممازحًا: «يا إلهي! هذه السيّارة قد أصابها السّعال مجدّدًا».

ضحكنا مرّة أخرى من قوله، بينما أوقف عليّ السيّارة على الجانب التّرابـيّ للطريق؛ ترجّل منها وفتـح الغطاء، وكذلك فعل خالي، سألتْ زوجة خالي: «ماذا حصل يا محمود؟».

أجابها ضاحكًا: «لقد دُكّت السيّارة أرضًا».

انتهزنا الفرصة أنا وزوجته ورحنا نتمشّى في الأطـراف، هبّ نسيمٍ عليل، فوجدنا إلى الأمـام قليلًا أشجارًا عـدّة، وجبلًا، وتلّة وسهلًا معشوشبًا، ولكن، حالت أصداء أبواق الشاحنات والسيارات المسرعة من أن نسمع زقزقات العصافير التي تنقر الحبوب، وتأكل فتات طعام المسافرين بالقرب منا. شمّر عليّ وخالي محمود عن ساعديهما، وأنزلا قلب السيّارة وأمعاءها.

بعد ساعة دارت السيّارة، ركبنا فيها ونحن نصلّي على النبي وآله. وجد خالي في السيّارة موضوعًا جديدًا لنكاته. ما إن قطعنا مسافة كيلومتر واحد حتّى راح محركها يصدر صوتًا من جديد، ومن ثمّ توقّفت.

تأفّـف خـالي وغمغم، وحلّ دور علـي فقال ضاحـكًا: «ألم أقلّ إنّها مدلّلة لم تصغ إليّ! تفضل فقد استاءت مجدّدًا».

ترجّل علي وخالي من السيّارة ودفعاها بحذر إلى الجانب الترابي. أمّـا أنا وزوجة خالي فبقينا في السيّارة، ورحنا نصلّي على النبي وآله، وندعو اللّه كي لا يحدث مكروه.

هـذه المرة نفد البنزين من السيّـارة، أعطى علي غالونًا خاليًا يسع عشريـن ليترًا لخالي محمود وقال: «كي لا تسخـر من سيّارة صديقي المسكينة! أسرع وعد بسرعة».

مـرّ وقت طويـل حتّى عـاد خـالي بالبنزيـن، وأفرغـه في خزّانها وانطلقت السيّارة ثانيةً.

وصلنا طهـران عند الساعة الرابعة بعـد الظهر جائعين، عطاشى ومتعبين.

تناولنـا طعام الغـداء عند مدخل المدينة علـى جانب أحد طرقات مستديرة الحرية، ثمّ تفقّدنا عددًا من الفنادق، ولكن مجدّدًا، وبسبب عـدم وجود صور شمسية علـى هويتي وهوية زوجة خـالي، لم نستطع العثور على مكان.

بعد الكثير من المباحثات والمشاورات، قرّرنا الذهاب إلى كرج[1].

ولفـرط التعب غلب النعاس على زوجـة خالي؛ أمّا أنا فرحت أكتب حوادث ذلك النهار على تقويمي: الأحد: العاشر من فروردين1365[*].

سألني خالي محمود بهدوء كي لا يوقظ زوجته: «ماذا تدرزين على تقويمك؟»[2].

قـال علي ضاحـكًا: «آنسة زهـراء باللّه عليكِ إن كنـت تكتبين عن

1- كرج: إحدى المدن القريبة من طهران؛ وتقع على أطرافها. (المترجم)

* (30 آذر 1986 م).

2 - إشارة منه إلى كتابتها بنحو سريع في التقويم. (المترجم)

سفرنا فلا تذكري سلبياته. اكتبي أن السفر كان ممتعًا». ثمّ عاد خالي ثانيةً إلى المزاح: «لا أراني اللّه يومًا كتبتِ فيه سوءًا عنّا، إذا علمت بذلك فسأقتلع عينيكِ». بعد ذلك شرع في تذكُّر أكل الكباب وفراغ السيّارة من البنزين؛ وأسهب بذكر هذه الحوادث حتّى استيقظت زوجته على صوت ضحكاتنا.

وصلنا كرج ليلًا، عثر علي وخالي على نُزل لا يحتاج الأمر فيه إلى صور شمسية على بطاقات الهوية وأعطونا غرفتين. عندما ارتاح بالنا من قضية المأوى، قررنا الذهاب والقيام بجولة في شوارع كرج. جهد خالي وزوجته لفعل شيء يقرّبنا أنا وعلي من بعضنا البعض، فراح يدفع علي باتجاهي وكذلك زوجته راحت ترسلني ناحية علي. لكنّ الخجل استولى على كلينا، ومشينا بعيدين عن بعضنا البعض.

في اللّيل؛ تناولنا العشاء خارجًا، وجُلنا في المدينة حتّى وقت متأخر.

في صباح اليوم التالي عدنا إلى همدان؛ جاء علي إلى منزلنا، سلّمني إلى أمّي، ودّعنا وذهب. عند الوداع أعطاني عنوانه كي أراسله.

3

رسالة العشق

بعـد أسبـوع من ذهاب علي إلى الجبهة، أحضـر عمّي مهدي صور حفل عقـد القران. ألقيت نظـرة سريعة على جميـع الصور. وعندما ارتاح بالي لجودة تظهيرها، طفقت أتأملها بدقّة وأناة.

دارت الصـور بين أيـدي أمّي وأبـي وأختَي ساعات عـدّة، وعندما خمـد غليل مشاهدتها حملتها ودلفت إلى غرفتي. أحيانًا كان يستغرق النظـر إلى صـورة واحدة مدة نصف ساعـة، وزادت مشاهدة الصور مـن شوقي وصبابتـي، فتناولت القلم عند منتصـف اللّيل وشرعت في كتابة الرسالة الأولى إلى علي.

بـدأ عدّ الأيّام منذ اليوم التالي، وبـتّ كالسجناء أضع علامة على اليوم الذي يمرّ في التقويم.

ذهـب علـي إلى الجبهة بتاريـخ 1986/4/1. وفي عصـر السادس والعشريـن من شهر نيسـان قُرع جرس المنزل. حدّثنـي شعور داخلي أنّ الطـارق هو علي. تجلببت بعباءتي وأسرعت لأفتح الباب. كان أمير يقـف عند الباب، ألقى التحية بسرعة وسألني عن جميع أفراد العائلة فردًا فـردًا، بدءًا من أبي وأمّي وصولًا إلى خالي وجدّتي. أخيرًا أخرج من جيبه ظرفًا وقال: «أخت فرشته، لقد أرسل لك علي هذه الرسالة».

لم أدرك لشـدّة فرحتي كيف شكرت أمير وكيـف ودّعته. فضضت

الظـرف، وقـرأت الرسالة مرّات ومـرّات منذ أن أغلقـت الباب خلف أمير وحتّى وصولي إلى الغرفة.

كانت رسالة عادية ومختصرة لم تحمل معها سوى السلام والسؤال عـن الأحوال، لكنّها بالنسبـة إليّ كانت إنعاشًا لقلبـي، وكأنّ علي إلى جانبي يفيض عطفه ومحبّته على فؤادي.

كتب علي في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللّه حارس حرمة دماء الشهداء

سـلامٌ حـارٌّ من جبهـات الحقّ ضـد الباطـل التي ارتـوت أرضها بالقاني والتي تذكرنـا بكربلاء الإمام الحسين عليه السلام، والرائحة الزكية لذاك الإنسان العاشق للّه.

سـلامٌ حارٌّ من تلك الفلوات والوديـان والدروب البعيدة، ومن قلب كربلاء إيران الملهبة.

سـلامٌ حارٌّ من الأشتريين والمظاهريّـين[1] الحقيقيّين لأبي عبد اللّه الحسين عليه السلام إليكم.

إن أردتم السؤال عن أحوالي فالحمد للّه أنا بخير.

وإن تقبّـل اللّه منّا فأنا أعمل على طاعة اللّه، وأتمنّـى أن يأتي اليوم الـذي سينتصـر فيه الإسلام علـى الكفر في العـالم، وأن تقتلع جذور الظلـم على يـد وليّ العصر صاحـب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وليتجـدّد عمّا قريب لقائي بك سيّدة زهراء، وبعائلتك الحزب اللهية الثورية المحترمة.

أتمنّـى أن تدعي لي في عباداتك كي يغفـر اللّه ذنوبي، ويتقبّل منّي

1- نسبة إلى الصحابيّين الجليلين مالك الأشتر وحبيب بن مظاهر.

ومنك هذا العمل الجهادي الذي تشاركينني فيه. لن أطيل عليكم أكثر من هذا. إنّ السيّد محمود أيضًا بخير.

بلّغـي سلامي إلى أبيك وأمك العزيزين، وأختيك كذلك. ودمت في رعاية الله وحفظه.

خادم الإسلام

علي تشيت سازيان

عند خلودي إلى النـوم، وضعت الرسالة تحت وسادتي، ومنذ ذلك اليـوم صرت أصحبها في حقيبتي أينما ذهبت. في الواقع، كنت أَحْسَبُ تلك الرسالة كأنّها علي نفسه، فعندما أفتح حقيبتي ويقع نظري عليها ينتابني شعور طيّب.

يوم الثلاثـاء (16 أيار) عاد علي إلى همـدان، واتجه مباشرةً إلى بيتنـا. كذلـك فعل في اليوم التـالي، أمّا في اللّيلة التاليـة فانتظر مدة نصف ساعة خلف الباب بينما كنّا نحن في منزل جدّتي ولم ندرِ بذلك.

كنت وعائلتي نذهب يومي الاثنين والخميس من كلّ أسبوع إلى روضة الشهداء للمشاركة في تشييع الشهداء. فجأةً، رأيت علي هناك، ظننت في البدايـة أنّني مشتبهة في الأمر. أمعنت النظـر ودللتُ والدي عليه، تقـدّم نحوه وضمّه إليه كأنّه فلذة كبده. قبّل وجهه وجبهته، ثمّ أمسك بيده وشدّ عليها. راح والدي ينظر إلى علي مبتهجًا به. تضرّجت وجنتا علي حمرةً وحنا رأسه خجلاً وهو يكرّر امتنانه لوالدي على اهتمامه به ومحبته له. كان عدد من أصدقاء علي يقفون إلى جانبه. ولشدّة سرور أبي برؤيته أصرّ عليه أن يأتي إلى منزلنا لتناول العشاء معنا.

بعد صلاة المغرب، جاء علي إلى منزلنا. كان يرتدي قميصًا كحلي

اللـون وبنطاله العسكـري، وقد أسبل شعره الأشقـر على جبينه وغيّر مظهره.

عندما رآه أبي ضمّه مجدّدًا، وأمسك بيده وأجلسه إلى جانبه، وراح يسألـه عن الجبهة وأحوالها والحـرب ونهايتها. بعد قليل تذرّعت أمّي بحجة ما ونادت أبي. عندما خرج والدي من الغرفة صارت أمّي تشغله وتعمد إلى إلهائه، ثـمّ أومأت لي كي أذهب إلى علي. أحضرت الصور وجلسـت قربه كي أريه إياها. فرح كثيرًا عند رؤيته صور عقد القران. تأمـل الصـور التي التقطت لنا وحدنا ونحن نجلس على سفرة العقد مـرّات عـدّة وقال: «إنّ هذه الصـور هي الأجمل». استغـلّ علي فرصة وجودنـا وحدنـا وقال لي: «سيّدة زهراء، غدًا يـوم الجمعة، تعالي إلى منزلنا عند الثالثة بعد الظهر».

وافقتُ على ذلك. في اليوم التالي أخبرت أمّي بالموضوع إلّا أنّها على عكس توقعاتي لم توافق على ذهابي وقالت: «الأفضل أن لا تذهبي إلى منزلهـم إذا لم يوجد أحد، لكن إذا جاء علـي في أثرك فلا مشكلة في ذلـك، فليس من المناسب أن تسير فتاة وحدها بعد ظهر يوم الجمعة[1] وتذهب إلى منازل الناس».

أسقـط مـن يـدي ولم أستطع فعل شـيء، كان علـيّ أن أتوقّع عدم موافقـة أمّـي فهي تحرص علينا كثـيرًا، حتّى إنّها لم تكـن تسمح لنا بالذهـاب إلى منازل الأصدقاء والمعارف. لقـد تعلّمنا أن لا كلام فوق كلامها؛ لأنّها تريد صلاح أمورنا. شعرت بالتوتر كلّما اقتربت عقارب الساعة من الثالثة عصرًا، لم يكن لدينا هاتف في المنزل لأخبره بعدم مجيئـي، فمـن جهة خفـت أن يستاء منّـي ويغضب، من جهـة أخرى،

1 - يـوم الجمعـة هو يوم عطلة في إيران كما هو معلوم، لذلـك تخلو الأزقّة ظهرًا وعصرًا من المارّة. (المترجم)

احترق قلبي لأجله؛ لأنّني كنت أعلم أنّه ينتظرني.

لم تخطر ببالي أيّ وسيلة لأخبره بعدم مجيئي. رحت فقط أدعو أن تراوده فكرة المجيء في أثري.

في النهاية، صارت الساعة 3 بعد الظهر، وطال الوقت كثيرًا كثيرًا حتّى بلغت الساعة الرابعة، ثمّ الرابعة والنصف، والخامسة..

استأت كثيرًا وقلت في نفسي: تُرى ماذا يدور في خلد علي الآن؟ بالتأكيد هو منزعج وغاضب منّي، فهذه هي المرة الأولى التي نضرب فيها موعدًا وأُخلفه. كان أبي وأختاي يشاهدون التلفاز، أمّا أنا فبدوت وكأنّني لست في هذه الدنيا، فقد عميت عيني عن رؤية أيّ شيء، وصُمّت أذني عن سماع أيّ شيء.

كانت عيناي مسمّرتين على التلفاز الذي كان يبثّ بعد ظهر كلّ يوم جمعة فيلمًا سينمائيًّا، لكنّ فكري كان عند علي، لم يكن لديّ رغبة في فعل شيء أو محادثة أحد. غدوت مشوّشة الفكر شاردة الذهن واجتاحني اضطراب عجيب. فكّرت كيف سيكون ردّ فعله في الغد؛ هل سيكون مستاءً منّي؟ أم أنّه سيذهب إلى الجبهة من دون وداعي؟ هل سيكون غاضبًا ويتشاجر معي؟ أم أنّه سيأتي ويشتكي فعلتي؟

مرّ بعد الظهر ذاك بمرارة ومشقّة، مرّ وقته طويلًا حتّى بدا أنّ اللّيل لن يحلّ بعده أبدًا؛ ولهذا السبب، دلفت إلى غرفة النوم عند الغروب من دون أن أتناول عشائي بحجة وجع رأسي.

في اليوم التالي وأثناء عودتي من المدرسة تناهى إلى سمعي صوت محرّك يأتي من الخلف. شعرت أنّ أحدهم يتعقّبني، استجمعت قواي، وكالعادة رحت أجري بسرعة من دون أن تحين منّي التفاتة إلى الوراء.

بقــي لي بضع خطوات للوصول إلى البيت، سمعت صوتًا مألوفًا من الخلف:

– سلام، كم تجرين بسرعة!

كان صــوت علي، التفتّ إليه وشاهدت بسمةً تعلو شفتيه. عند ذاك تنفّست الصعداء. سألني: «هل أنت بخير؟».

لم يبدُ أيّ انزعاج في نظراته أو صوته. فأجبته: «شكرًا أنا بخير».

– إذاً لمَ لم تأتي البارحة؟

خجلـت لذلك وأجبته بانقباض: «المعـذرة، لم تكن العلّة منّي، أمّي لم تسمـح لي بذلـك، قالـت لي إنّ ذهابي عصر الجمعـة وحدي ليس محمودًا، فالشوارع تكون في هذا الوقت خالية».

سكت قليلًا، ثمّ هزّ رأسه مؤيّدًا كلام والدتي.

– قلقـت عليكِ، فكّـرت لا سمح اللّه أنّ مكروهًا قد أصابك. الحمد للّه أنّك بخير.

تبسّمت، وأخرجت المفتاح من حقيبتي.

– علـى كلّ حـال المعـذرة، لقد قالت أمّـي: «لا مشكلـة إن أتى علي بنفسه وذهبتما معًا».

هــزّ رأسه ثانيةً وأبـدى تأييده لكلام أمّي قائـلًا: «إنّ الحاجّة على حـق، خيرًا فعلتِ في إصغائـك إلى كلامها، إذاً سآتـي في أثرك اليوم بعد الظهر».

شعرت بالارتياح. وضعت المفتاح في القفل ودعوته: «تفضّل بالدخول».

كان لديــه ارتباط، لهـذا ودّعني وانصرف. أسرعـت مسرورةً إلى الفنــاء، وطرت فرحًا حتّى وصلت إلى المطبـخ. لم تكن أمّي في البيت.

بعد بضـع ساعات عادت من المشغل، أخبرتهـا بما جرى، وافقت على ذهابي، وانهمكت بتحضير ملابسي.

وصـل علي بسيّارة صديقه عند الساعة الثالثـة إلّا ربعًا. كانت هذه المرة الثانية التي أذهب فيها إلى منزلهم. لم يكن أحد في المنزل؛ إذ حلّ أفـراد العائلة منذ أيّـام ضيوفًا على منزل الحاج صادق. في هذه المرة، ولخلوّ المنزل من ساكنيه، استطعت رؤية تفاصيل المنزل بشكل أفضل.

عند دخولك المنزل يظهر أمامك ممرّ صغير، وإلى الجهة اليسرى يوجـد حمّام إلى جانبه غرفة صغـيرة (1.5X0.5) مخصّصة لتبديل الملابس، لكنّهم وضعوا فيها أسرّة.

وإلى الجهـة اليمنـى يوجد مطبخ ضيّـق وطويل، ارتفعـت الأزهار المتسلّقـة علـى بابه وجـداره. كذلك يوجـد العديد من أنـواع الأزهار المختلفة خلف نافذة المطبـخ (المنور)، وملأت صور الأطفال الجميلة، وبوسـترات عـن الطبيعة الخلّابة واجهـات خزائن المطبـخ البيضاء، فكانت تجذب إليها الأفراد ليدخلوه ويتأملوها صورةً صورة.

في نهايـة المطبخ يوجد باب حديدي قـرب النافذة يطلّ على شرفة صغـيرة، حيـث كانت هـذه الشرفـة مكانـًا مناسبًا لحفـظ المخلّلات والبطاطـا والبصـل وغيرهـا مـن المأكـولات. أعجبنـي ذوق السيّدة منصورة في تزيين المطبخ وترتيبه كثيرًا.

كان للمنـزل غرفـة جلوس وغرفـة استقبال يفصـل بينهما ستارة جميلـة مطرّزة بالورود الصفـراء الكبيرة. وأينما تضع قدمك في هذا البيـت ترَ نافـذة كبيرة قبالك تجـذب الضوء وتنير المنـزل، ووضعت زهريات عدّة للورود المتسلّقـة في البهو وعلى أجهزة التدفئة؛ إذ كانت تتسلّـق هذه الأغصـان والأوراق التـي تشبه القلـوب في أشكالها على

الجدران وتصل إلى السقف. لقد زادت هذه الورود من جمال المنزل أضعافًا مضاعفة، وعند انتهاء الشقة، أيّ قبالة باب المدخل كان يوجد باب خشبي آخر يفتح على شرفة مسقوفة صغيرة، كان الحمّام هناك، مضافًا إلى غرفتَي نوم قبالة بعضهما البعض.

فتح علي باب غرفة النوم لجهة اليمين، وبدا أنّها غرفته المشتركة مع أخيه أمير. ملأت صور الشهداء وصور الإمام كافة جدران الغرفة، وعلّقت عصبة وقلادة بين الصور. في الغرفة أيضًا كان يوجد مكتبة.

جلس علي مستندًا إلى الحائط وأشار إليّ كي أجلس أنا أيضًا، عندما جلست ملأت رائحة عطره «Tearose» مشامّي. نهض وذهب باتجاه المكتبة، وأخرج ألبوم صور من بين الكتب، أحضره وقال: «تعالي نشاهد الصور معًا».

راح يقلّب صفحات الألبوم بتأنٍّ؛ ووضع دوائر حمراء على بعض الوجوه، أشار بإصبعه إلى إحدى الصور وقال: «هذا صديقي الشهيد أمير حسين فضل اللهي[1]، لقد استشهد في جزيرة مجنون، وهذا الشهيد محمد علي جريان».

اختلطت رائحة عطره مع أنفاسه ورائحة جسده، غمرني شعور جيّد رغم حشرجات صوته، أحببت أن يتوقّف الزمن عند تلك اللحظة ونبقى معًا على تلك الحال قرب بعضنا البعض سنوات. شعرت أنّ أجواء ذاك المكان، رغم كلّ صور الشهداء تلك، تختلف عن كلّ الأماكن الأخرى. راح يتصفّح الألبوم، وفي كلّ صفحة كان إصبعه يتوقّف على صور عدّة، وعندما يهيج قلبه بحزن كبير كان ينهض ويخرج من

1- الشهيد أمير حسين فضل اللهي: وُلد في همدان بتاريخ 9-8-1343/أيلول1964م واستشهد في جزيرة مجنون بتاريخ 31-2-1365/أيار 1986م. كان عضوًا في فريق الاستطلاع التابع لوحدة المعلومات لعمليات فرقة أنصار الحسين في محافظة همدان.

الغرفة متذرّعًا بإحضار الفاكهة أو الشاي.

كذلك دفعني أكثر من مرّة كي أنهض من مكاني بحجة إحضار شيء من صندوق الكتب. حدست أنّه كان يطلب منّي ذلك لخجله من النظر إليّ مباشرة. سألته: «سمعت أنّ عناصر فرقة الأنصار يحبونك كثيرًا، ويقولون إنك تصلح المجرمين، والذين صدر في حقّهم حكم الإعدام، حتّى يتحوّلوا إلى أشخاص آخرين، وترسلهم من السجون إلى الجبهات».

افترّ ثغره عن ابتسامة وقال: «ممّن سمعت ذلك؟»، أجبته: بكلّ ثقة واعتزاز: «حسنًا، سمعت ذلك».

ثم سألته بأدب واحترام كالصحفيّين: «أليس هؤلاء الأفراد خطرين؟ ألم تحدث لك مشكلة حتى الآن؟».

أجابني واثقًا: «كلّا على الإطلاق، أنا أقول دائمًا لعناصري..»، ثمّ تابع مبتسمًا: «وأقول لك أيضًا سيّدة زهراء؛ إذ إنّك أصبحت من عناصري أيضًا: الأخلاق هي سيّدة الكلام في المجتمع، إذا اهتممنا بالأخلاق بشكل جيّد، فإنّنا سنحصل على مجتمع نموذجي، وإذا صلحت أخلاق أفراد المجتمع سيصبح البلد مدينة فاضلة، علينا النفوذ إلى قلوب الناس كي يسير الوطن في المسار الإلهي. أنا أسعى لأن أكون مع عناصري على هذا النحو، والشيء الوحيد الذي يسعدني كثيرًا في الحياة هو أن أهدي إنسانًا كان قد سار في الطريق الخطأ، وأضعه على السكة الإلهية الأصلية. يقول الإمام الخمينيقدس سره: «إنّ الجبهة هي جامعة لصناعة الإنسان، وإذا كنّا من أتباع الإمام فعلينا العمل بوصاياه»».

وبينما نحن كذلك، قُرِع جرس الشقة. وقبل أن ينهض ليفتح الباب،

فتح علي الخزانة وتناول مسدّسه ثمّ أوثقه على خصره. حتّى ذلك اليوم لم أكن أدري أنّ لدى علي سلاحًا فرديًّا. بعد قليل عاد منقبضًا حزينًا، سألته قلقة: «ماذا حصل؟».

هزّ رأسه وقال: «منذ أيّام عدّة اختفت إحدى صوره من الألبوم، لقد أريتك إحدى صوره الآن: حسين شريفي[1] الذي أخبرتك أنّه جُرح، وأريتك صورته وهو يرقد في المستشفى، لقد استشهد وأحضروه إلى همدان، عليّ الذهاب». نهضت وأخذت صحون الفاكهة وصينية الشاي إلى المطبخ، وقمت بجلي الأقداح ريثما جهّز هو نفسه.

كان أصدقاؤه ينتظرونه عند الباب، أوصلني إلى البيت بتلك السيّارة المستعارة وغادر.

عندما رأتني أمّي سألتني بتعجب: «هل أنت ذاهبة أم أنّك أتيت للتوّ؟». أجبتها: «لقد أتيت للتوّ».

نظرت مستغربة وسألتني: «ماذا حصل؟ هل تشاجرتما لا سمح اللّه؟ لقد ذهبت منذ وقت قليل».

كنت أفكّر في مسدس علي، أخبرت أمّي بالموضوع، فهزّت رأسها قائلة: «إنّ الأوضاع غير جيّدة! فمن جهة توجد حرب، ومن جهة أخرى يوجد المنافقون والطابور الخامس الذين لا ينفكّون يزعجون الشباب، الحمد للّه، إنّ شبابنا يتمتّعون بالحكمة، وعليهم أخذ الحيطة والحذر».

في صباح اليوم التالي، أخذت أمّي نفيسة معها إلى مشغل الخياطة، انتهزت الفرصة كي أدرس قليلًا، لكن، جاء علي لزيارتنا. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، في هذه المرة حلّ دوري. أحضرت

1- وُلد في همدان في 20 أردبيهشت 1345/ 1966م، والعجب كل العجب أنه استشهد في اليوم نفسه من العام 1365/ 1986م في الفاو في العراق. كان عضو فريق الاستطلاع في وحدة المعلومات لعمليات فرقة أنصار الحسين(ع).

ألبوم صوري ورحنا نتفرّج عليه معًا. لم يطل كثيرًا، كان يريد الذهاب بسرعة.

في اليوم التالي؛ أيّ يوم الاثنين، انتظرته طويلًا لكنّه لم يأتِ. أحببت أن نرى بعضنا البعض كلّ يوم ما دام أنّه في همدان. كنت مشتاقة إليه، وكأنّني قد اعتدت على رؤيته. ذهبت مع أمّي إلى روضة الشهداء، ظننت أنّه قد يكون في تشييع جثمان الشهيد حسين شريفي فأراه في الروضة.

كانت الروضة مزدحمة جدًّا، مهما بحثت عنه بعينيّ لم أره. نظرت جيّدًا في الروضة، وحتّى في طريق العودة نظرت حولي في الشارع وترقّبت رؤيته.

يوم الثلاثاء كذلك كان يوم عطلة لي. وجدت فرصة للدرس من جديد، إلّا أنّ الباب طُرق وكان علي! مهما أصررت عليه كي يدخل، أبى. جاء ليودّعني متوجّهًا إلى الجبهة.

أحضرت كأسًا ممتلئةً بالماء ورميته خلفه، ثمّ وقفت عند الباب أنظر إليه. بعد وقت قليل التفت ونظر حوله، وعندما اطمأنّ إلى عدم وجود أحد في الزقاق رفع صوته قائلًا: «انتبهي لنفسك، سامحيني».

أجبته بصوت خافت، على نحو كنت أسمع نفسي فقط: «لا سمح اللّه، لا تنسانا من الشفاعة».

لوّح لي بيده فوضعت يدي داخل عباءتي البيضاء ولوّحت له بيدي أيضًا، وانتظرت حتى عبر من الزقاق إلى الشارع.

ومع ذهابه إلى الجبهة شرعت في وضع العلامات على تقويمي مجدّدًا. كان كلّما انتهى نهار وضعت علامة عليه بالآه والحسرة وكتبت: مضى يومان.. عشرة أيّام.. اثنا عشر يومًا..

مضى على ذهاب علي إلى الجبهة 13 يومًا. كان اليوم السابع من خرداد، كنت أرتدي ملابسي لأذهب إلى المدرسة، وإذ بالباب يطرق عند الساعة الثامنة إلّا ربعًا. اعتدت دائمًا انتظار قرع جرس المنزل، وأسرعت كالبرق لفتح الباب، كان علي يقف عند الباب معفّرًا بالتراب بحالٍ يُرثى لها من التعب. عندما رأيته فرحت كثيرًا وكأنّ الدنيا كلها قد أُعطيت لي. دعوته للدخول، وكذلك هرعت أمّي ناحية الباب وأمسكت بيده بسرور وسحبته إلى الداخل كأنّه أحد أولادها.

سألته أمّي: متى وصلتم؟

- الآن. لقد استشهد أحد عناصري، وغدًا سأعود إلى الجبهة.

كان ذلك اليوم يوم عيد ميلادي. كانت أمّي تحفظ كلّ تواريخ ميلادنا. بعد ذهاب علي قالت أمّي: «أريد أن أحتفل بعيد ميلادك».

- لا يا أمّاه، ألم تسمعي أنّ صديق علي قد استشهد.

رغم أنّ أمّي قد خطّطت الكثير لعيد ميلادي وأرادت أن تدعو ضيوفًا آخرين مضافًا إلى عائلة علي، إلّا أنّها غيّرت خطّتها، وقامت في عصر ذلك اليوم بالتبريك لي وشراء هدية سلمتني إياها قائلة: «إن شاء الله تنتهي الحرب عما قريب، لا مشكلة، إنّ هذه الأيّام تمضي أيضًا، وإن شاء الله نحتفل بعيد ميلادك وعيد ميلاد ولدك العام القادم في منزلك».

في تلك اللّيلة استضفنا علي وعائلته، اللّيلة التي زلقت فيها قدم علي في النادي الرياضي خلال لعبة الكونغفو وأصيبت برضوض، وكانت أوداجه تنتفخ من شدّة الألم، لكنّه لم يكن يتفوّه بشيء.

لم ألتفت إلى رضوض قدمه إلّا في آخر اللّيل. أصررت عليه كثيرًا كي نذهب إلى المستشفى، لكنّه لم يقبل وردّ قائلًا: «المسألة بسيطة،

سأتحسّــن». في النهاية قلــت له: «كم أنت قــوي الإرادة! كيف تستطيع تحمّل ذلك؟ لو أنّني مكانك لما تحمّلت هذا الألم مطلقًا».

قال ضاحكًا: «أنت أيضًا عليك أن تتدرّبي على ذلك، أحبّ أن تكون زوجتي صابرة قوية».

أذكر أيضًا أنّ السيّدة منصورة في تلك اللّيلة آلمتها كُليتاها، وأخذها الحــاج صادق بعد العشــاء إلى المستشفى. ذهبت أنا وعلي إلى غرفتي وسألتــه: «ماذا حصل؟ أنت لست على ما يرام». فأجابني: «لقد زلقت قدمي عصرًا في النادي».

رفعت طرف بنطاله بالقوة فخجل وأرجع قدمه إلى الخلف، نزعت جوربــه فبــدت شديدة البياض، أمّا كاحلــه فكان متورّمًــا قاتم اللون بسبب الورم.

هالنــي ذلــك وقلت: هيا انهضــ لنذهب إلى المستشفــى». فضحك وقــال: «لا تجزعي، المسألــة بسيطة سأتحسّــن». أردت أن أنادي أمّي، لكنّه رفض وقال: كلّا، كلّا.

لبــس جوربه بسرعــة، ومهما فعلــت لم أستطع التغلّــب عليه. جاء صديقــه آخــر اللّيل في إثره وذهبــا إلى الحرس، وهنــاك دلّك الإخوة قدمه بالماء الساخن والملح، وأعادوا العظم إلى مكانه.

جــاء علي نهار الخميس باكرًا. وقــف أمام باب بيتنا. مهما حاولت كــي يدخل لم يقبل. كان يريد الذهــاب إلى الجبهة. كانت المرة الأولى التــي أبكي فيها أمامه، فأمسك يدي وقــال: «أهكذا تنسين بسرعة ما اتفقنا عليه؟ ألم أقل لك عشية البارحة أن تكوني قويّة وصبورة؟ قد لا أعود هذه المرة، ولا أرغب في أن تظهري ضعفًا أمام الملأ، أرغب في أن تكــوني كالسيّدة زينب صابرة وصلبة». ومــع كلّ كلامه هذا لم أستطع

أن أمنع نفسي عن البكاء.

كنت أعلم أنّه لا يُظهر مشاعره بسهولة، فطوال هذه المدة لم يظهر عواطفــه مطلقًا، ولم يشكُ من شوقه وحنينه، بينما في المقابل كنت أنا حسّاســة وعاطفيّة كثـيرًا، وودّعته وأنا أجهش بالبـكاء. أغلقت الباب وأسنــدت رأسي إليه، ولم أستطع التوقّف عـن ذرف الدموع. خلتُ أنّه سيرجـع بعد قليل ليهدّئني. مرّت دقائق مـن دون أن يصدر أيّ صوت من ناحيــة الشارع. بعدها فتحت الباب بهـدوء ونظرت ناحية الزقاق فلم أجد أحدًا هناك علــى الإطلاق. لم أصدّق أنّ قلبه سيطاوعه على أن يتركني وأنا على هذه الحال.

عندما وصلــت إلى البهو لم أتمالك نفســي وانفجرت بالبكاء. لقد قــال لي إنّه ينبغــي أن أكون صبــورة وقوية. لقد اخــترت ذلك بنفسي وعزمــت على أن أكون شريكةً في الحــرب ومتاعبها. لقد قبلت بنفسي أن أكون زوجــة حارس ثوري، لمعرفتي أنّ الحرس الثوري هم أشخاص مقاومون ذوو أخلاق حسنة.

قلــت في نفســي: حسنًا موافقــة، سأتحمّل وسأصــبر، لكن، يا رب، احرســه لي، فأنــا أقبل إصابته وجراحه، لكــن، لا طاقة لي على أسره وشهادته. إلهي احفظه من كلّ مكروه.

4

شهر العسل الثاني

انتهت امتحانات حزيران 1986 (خرداد1365). دأب والدي على الذهاب باكرًا إلى عمله؛ أمّا أمّي مضافًا إلى ذهابها إلى مشغل الخياطة؛ انهمكت في مشاركة النسوة ومساعدتهنّ في أعمال دعم الجبهة التي كنّ يقمن بها من تلقاء أنفسهنّ.

في بعض الأحيان كانت تأخذ معها نفيسة، حتّى إنّها لم تكن تأتي إلى البيت من أجل الغداء، فتُقسّم أعمال المنزل بيني وبين رؤيا. نهار الثلاثاء في 10 حزيران، قُرِع جرس منزلنا. تجلببت بعباءتي وطويت 10 خطوات أو 15 خطوة بخطوتين أو ثلاث كي أصل إلى باب الفناء الخارجي. فتحت الباب فإذا به علي! تعجبت لدى رؤيته. كانت يده مضمّدة ومعلّقة برقبته. بعد سلام عجول وسؤال سريع عن الأحوال، سألت بقلق: «ماذا حدث؟!».

أجابني بهدوء: «لا شيء؛ بضع شظايا صغيرة».

دعوته إلى الدخول. بدا متعبًا قد عبثت فيه الفوضى. رأسه حليق من المنبت، شفتاه متشققتان لا لون لهما، لحيته مرخاة، وحذاؤه العسكري ملطخ بالتراب.

قلت ضاحكةً: «أعُدتَ من الحرب؟».

تبسّم وأجاب: «عمليّات جزيرة مجنون[1]».

أصررت عليه: «تفضّل وادخل».

– لا، فأنا متعب جـدًّا، أحببت أن أراكِ أولًا، أليست السيّدة وجيهة موجودة في المنزل؟».

لم تكن أمّي في البيت، فسألته متعجبة: «ولأيّ شيء تسأل عنها؟ لا، إنّها في المشغل».

أجـاب: «ينظّم الحرس برنامجًا ترفيهيًّا وعباديًّا للعناصر المتعبين إلى مشهد، وتقرّر أن تذهب معهم عوائلهم».

مسح بيده على لحيتـه الطويلة وقال: «أريد أن آخذكِ معي. برأيك هل تجيز ذلك السيّدة وجيهة؟».

لم أجب بشيء.

– سأذهـب وآخذ قسطًا من الراحـة، وسأعود عصرًا وآخذ الإذن لـكِ»

لم يعترض والداي ووافقا على ذهابي. انطلقنا يوم الخميس في 12 حزيران 1986 من أمام مركز الحرس. انقسمنا في حافلتين، حافلة للمتزوجين وأخرى للعازبين. أجلسني علي في الصف الثاني أو الثالث، وبقي المقعد الذي بجانبي خاليًا. وضع معطفه وذهب إلى حافلة غير المتزوجين.

1- جـزر مجنون: جزر صناعية تـم إحداثها داخل منطقة هور الهويـزة، تقع هذه الجزر شمـال طلائيه وجنـوب مضيق تشزابه. قبل الحرب اكتشفت شـركات النفط البريطانية هذه المنطقة الوافرة بالنفط. وقد أنشأت هذه الشركات الجزر للوصول بسهولة إلى هذه المنطقـة وحفر آبار النفط مع مد طرق بعرض 4 إلـى 6 أمتار داخل الهور. استولى جنود الإسـلام على هذه الجـزر في عمليات خيبـر. يراجع: ده متری جشمـان كمين، ذكريات القائد جعفر مظاهرى،1388 (2009م).

كان المتزوجون لا يزالون شبانًا في مقتبل العمر؛ إمّا مثلنا قد عقدوا قرانهـم فقط، أو قد تزوّجوا حديثًا، ونـادرًا ما رافقتنا عائلات لديها أكثر من ولدين.

انطلقـت الحافلات، وبعد مضي ساعات عـدّة توقّفنا للاستراحة. جاء علي إلى حافلتنا، لكنّه لم يجلس قربي، بل ذهب إلى آخر الحافلة. في البداية ظننت أنّه سيشاغب هناك بعض الشيء ويعود سريعًا. ولكنّه لم يـأت مهما انتظرت. نظـرت إلى الخلف فوجـدت أنّ أغلب الأزواج يجلسـون قرب بعضهم البعض يتجاذبـون أطراف الحديث، أو يأكلون الفاكهة معًا.

أما علـي وعدد من الأشخاص فاجتمعوا في آخـر الحافلة وراحوا يتحدّثـون ويضحكون. أشرت إليه ليأتـي ويجلس في الأمام. لم يأتِ إلّا بعـد مضي وقت ليس بوجيز. نقلتُ معطفه من المقعد بجانبي ووضعته علـى ركبتي وقلت لـه: تفضّل بالجلوس! أين أنت؟ لقـد عيل صبري. جلس قربي، لكنّه تململ ورغب في القيام.

- وهل يُطبّق قانون همدان هنا أيضًا؟!

نظر إليّ مستغربًا، فتابعت موضّحة قصدي:

- أن لا نتحدّث معًا في الشارع مراعاة لأسر الشهداء.

ضحك وهزّ برأسه مجيبًا:

- نعـم قد يُطبّـق هنا أيضًا؛ فأنا أخجل مـن عناصري، وأخاف أن يظنوا أنّي قد تغيّرت بعد عقد قراني.

أجبته مخالفةً رأيه:

- وهل تعلم ما تكنّه صدورهم. قد لا يظنّون على هذا النحو.

- إنّه مجرد احتمال. قد يقولون إن علي عقد قرانه، وطار من بيننا

وبقينا وحدَنا.

جميعهم يجلسون بجانب زوجاتهم؛ فهل تناولهم أحد بشيء؟

أجابني بتململ: «لكلٍّ أخلاقه؛ وأنا لست هكذا».

لم أردف شيئًا. لقد أصبحت لدي معرفة تامة بأخلاقيّاته. رغم هذا جلس مدة نصف ساعة قربي ثمّ نهض.

بعد قليل، صدح في الحافلة صوت ينشد شعرًا. كان أحد عناصر علي ينشد أشعارًا مسلّية بصوته العذب. والأشعار التي كان ينشدها بالعامية الهمدانية جعلت الحاضرين ينفجرون ضحكًا:

لدي حبيب كالبدر الكامل

لدي حبيب كالبدر الكامل

في كلّ ليلة يجلس على حافة النهر الجاري بجانب الشارع

له عينان له عينان تشبهان عينَي الغزال

له شفتان له شفتان ما أشبههما بورق الخس

بيدك كأس وتودّ الذهاب لتشتري اللبن

فلتكسر كأسك ويراق لبنها إذا لم تتزوجني

إن شئت تزوجني وإن لم تشأ فإلى الجحيم

سأكيل أمرك إلى زقاق «البساتين السبعة».

راحت رفيقات السفر يضحكن ويقدّمن لي من الفاكهة والأطعمة التي كنّ يتناولنها.

حلّ الظهر ومضى بعض الوقت. توقّفت الحافلة أمام مطعم خلال الطريق، فاصطفّت النسوة اللاتي لديهن أطفال أمام باب دورة المياه؛ ضجر ولد أو اثنان منهم، فذهبت إلى إحدى السيدات لأساعدها في

أمورهـا، أردت أن أُدخـل أحد هذين الولديـن إلى دورة المياه متخطّية الصـف. في تلـك اللحظـة نفسهـا، وصل رجـل غريـب وتخطى صف النساء ودخل المرحاض. احتجّت النسوة وعلت أصواتهّن، ولا أدري من أبلغ الرجال بهذا الأمر. رأيت علي يأتي راكضًا ومعه بعض الأشخاص. بـدا غاضبًا عن بعد. عندما وصل إلينا أمرنا بالذهاب باتجاه الحافلة بينما دخل هو إلى دورة المياه.

وبركلـة مـن قدمه فتح باب المرحاض؛ بعد قليـل رأيته يمسك ياقة الرجل بيده السليمة ويسحبه خارجًا. كنت أسمع صوته معنّفًا إيّاه: «لا تظـنّ أنّنا نحن جماعة الحرس بـلا شهامة!». راح الرجل ينظر حوله مدهوشًا، ممسكًا بحزام بنطاله. علا صوت علي:

– في الجبهـة نحـن نحمل السـلاح وندافع عن شرفـك وعرضك، وأنت تندسّ بين أعراضنا جهارًا وتدخل مرحاض النساء؟!

لم أنتبـه بماذا أجاب الرجل وماذا فعـل، لكن عندما أتى علي كان غاضبًا، وأمر سائقي الحافلتين بالانطلاق.

بدا الانزعاج على الجميع، فعمّ الصمت وساد السكوت في الحافلة. حتّـى أفراد جوقة السيّـد رفيعي، التي كانت تنشـد الأشعار المضحكة والمرثيات الهمدانية وتثير الشغب، جلسوا صامتين.

انطلقـت الحافلة، ومجدّدًا بدأت قطع المسافات بنَهَم. كان علي قد نسّـق مع إمام جمعة مدينـة «رامسر» في وقت سابـق لحجز فندق لنا هناك.

كان في الفندق قاعتان كبيرتـان جميلتان مزينتين بالمرايا. جلست النسـوة في قاعة وجلس الرجال في القاعة الكـبرى، وجُعلت الأغطية والوسـادات النظيفة والجديدة من نصيبنـا. مهما بحثت عن علي لم

أجده. كان يتابع موضوع العشاء والتجهيزات للعوائل.

جلست في الفندق بمعية إحدى السيدات؛ وبعد ذلك قصدنا البحر بشكل جماعي. كان الجو لطيفًا على الشاطىء، فصوت الأمواج والماء المرتطم بالشاطئ، وظلمة اللّيل والبحر المترامي الأطراف من دون حواجز، كلّ هذا يمدّ الإنسان بهدوء عجيب.

كذلك رائحة البحر، وتغريد طيوره من وقت لآخر، والأصوات العذبة التي تسرح بالخيال، وتشنّف الآذان، كانت تشعرني بالسعادة. كنّا في عالم أفكارنا وخيالاتنا عندما جاء علي. وبمجيئه ودّعتنا السيّدة وتركتنا وحدنا. سألني علي:

- هل تمضين وقتًا طيبًا؟

- إنّكَ دائمًا تركض إلى هنا وإلى هناك، فماذا أفعل؟ ليس لدّي مَن أحادثه. أبحثُ عن مكان هادئ.

حدّق علي في البحر وقال: «الحياة تمامًا كهذا البحر، إذا بقي ماء البحر ساكنًا فسيتعفّن، علينا أن نكون كالبحر في حركة دائمة، وهذه الحركة الدؤوب محفوفة بالمصاعب. إن عظمة البحر وجماله هما بسبب حركته هذه، إذا حصرنا الماء في مكان واحد فسيتعفّن. أحبّ أن أكون كهذا البحر، أحبّ أن أكون في حراك دائم، أحبّ تحدّي الصعاب وتحمّل المتاعب، أحبّ أن أصل إلى المحيط، وسأسعى جهدي لأصل إليه، وأنتِ أيضًا هكذا، صحيح؟».

جعلني كلامه أغرق في التفكير، ترى ما هو المحيط الذي يرغب في الوصول إليه، وأين هو؟

أجبته وأنا شاردة الذهن: «نعم».

في صباح اليوم التالي، كلّف علي الجميع بنقل «الطراريح» وأغراض

الفطور إلى خلف الفندق، إلى حيث تحدّثنا ليلة أمس معًا عن المحيط. بعد تناول الفطور غطس الرجال بملابسهم في الماء، لكنّ علي لم يفعل بسبب الجبيرة التي في يده، فوقف جانبًا، وراح ينظر إلى البحر الممتد الفسيح.

وقفنا على الشاطئ بعيدين عن بعضنا البعض. وشرع الإخوة في المشاكسات، فحمل السيّد حسين رفيعي[1] وعدد من الأفراد السيّد مهربان[2] الذي كانت قدمه في الجبيرة حتّى أعلى ركبته، ويمشي متوكئًا على عصا تحت إبطه. صار كأرجوحة بين أيديهم، مهما نادى واستنجد لم يتقدّم إليه أحد لينقذه من أيديهم.

في النهاية، قذفوه في الهواء ورموا به وسط المياه بكلّ قساوة. حاول هذا المسكين أن يخرج من الماء بقدم واحدة، لكنّه لم يفلح. أشفق عليه بعض الناس، فأخرجوه وأجلسوه في زاوية كي يجفّ عنه الماء.

ثمّ جاء دور رئيس المشاغبين السيّد حسين رفيعي، فهاجمه بعض الأشخاص، وشدّوا يده وقدمه وأنزلوا به البلاء ذاته الذي أنزلوه بالسيّد مهربان، مع فارق أنّ السيّد رفيعي لم يكن مصابًا واستطاع الخروج بنفسه من الماء. وسط هذه المعمعة، خرجت بطاقاته الخاصّة ونقوده من جيبه وطفت على الماء، سعى السيّد رفيعي جاهدًا في الماء باحثًا عن وثائقه ونقوده.

أراد بعض الأشخاص الذهاب لمساعدته فقال لهم علي: «لا تساعدوه»، قلت له: «علي! إنّه مسكين!». تبسّم علي وقال: «الحق عليه،

1 - حسين رفيعي: أحد أفراد قسم المعلومات في الفرقة. وهو جريح الدفاع المقدّس. وشاعت مشاغباته بين مجاهدي قسم المعلومات. ويشتمل كتاب «كن فقط خادم الحسين» بقلم حميد حسام على مذكرات حياته وجهاده.

2- السيّد مهربان: محمد إبراهيم مهربان، ولد في همدان في (تموز1961). التحق في بركب الشهداء في عمليات (كربلاء5).

دعوه يتأدّب، وعليه أن يلاقي شرّ أعماله».

سقطت وثائق وحقيبة نقود السيّد حسين بين الأمواج، وراحت تتماوج قطعه النقدية، صرخ السيّد حسين: «النجدة، النجدة! يا من لا دين لكم، هذه نقود سفركم وليست نقودي!».

إلّا أنّ أحدًا لم يتقدّم لمساعدته، بل اشتركوا جميعًا في الضحك والإنشاد:

- تأتيني مترفعة تقولين وردتي وتضحكين
- وعندما ترينني تعبسين وعليّ تتهجّمين...
- لا تغترّي ولا تتكبّري فلا ينفع تكبّر المتكبّرين
- أنا أعطيتك المال كي على العربة[1] تركبين
- فلا تغترّي ولا تتكبّري فزوجك سائق العربة
- يُحكم الوثاق حول رقبة الحصان ويضربه بالعصا ليجدّ في المسير.

كان السيّد حسين من أنشد هذه الأبيات داخل الحافلة، والآن راح الجميع يردّدونها له بشكل جماعي ويضحكون عليه.

أخيرًا، خرج السيّد حسين من الماء بشقّ الأنفس، وهذه المرة لحق بعلي للانتقام منه، وجمع معه لذلك أشخاصًا عدّة. كان علي يرتدي ثيابًا نظيفة وأنيقة، فما كان منهم إلّا أن أخذوا برأسه وغطسوه هناك عند الشاطئ.

هالني المشهد فتقدّمت وقلت لهم: «اتركوه فيه مجروحة، قد يلتهب جرحه».

1- العربة التي تجرها الحصان.

لكنّ عناصـره لم يدعوه وشأنه، فغطّسوا رأسه مرّات عدّة في الماء، ومن ثمّ أخرجوه.

جـاءني علي مبتسمًا والمـاء يقطر من لباسه وضمـادة يده. سألته قلقة: «علي، لمَ لمْ تقل لهم شيئًا! فالماء مضرّ بجرحك!».

ضحـك قائـلًا: «دعيهم يفرحون، فقـد أتوا إلى هنـا ليروّحوا عن أنفسهـم، إنّـه ترويح عن النفسـ، لا مشكلة في ذلك». ثـمّ ذهب وبدّل ملابسه ورمى بضمادة يده بعيدًا.

وسط هذه الأجـواء، وجد الإخوة موضوعًا للتداول فيما بينهم وهو «أنـا وعلي». لاحظ الجميع أنّ علـي لا يدنو كثيرًا إلى حيث أنا. فجعلوا ذلك موضوعهم للتداول، وأصرّوا على أخذ صورة ثنائية لنا بأيّ شكل من الأشكال.

ومـع إصرارهم وقفنا أنا وعلي بجانـب بعضنا البعض ليلتقطوا لنا صـورة ثنائية، ولكن اهتزّت يد المصـور فبدت الصورة قاتمة وملامح وجهينا مبهمة وغير واضحة، وكأنّ الصورة التقطت وسط الغيوم.

وصلنـا أخيرًا مدينة مشهد. وهنـاك خُصصت غرف للمتزوجين، لكن بقيت في الغرفة وحدي في أغلب الأوقات، لانشغالات علي الكثيرة.

قـررت في أحد الأيّـام سوقه إلى الغرفة سوقًـا، اتخذت من مبرِّد[1] الغرفـة ذريعة، فناديت أحد عناصر علي الـذي كان منهمكًا في العمل في القاعـة، وقلت له: «أخـبروا علي أنّ المبرِّد في الغرفـة معطّلٌ فليأتِ لإصلاحه». قـال الأخ متعجبًا: «لماذا معطّل؟». واستأذن كي يدخل إلى الغرفة ويفحص المبرّد بنفسه. ثمّ قال: «سيّدة تشيت سازيان، لا يشكو هذا المبرّد من أيّ شيء».

1- ويطلق عليه cooler.

خجلت وتلعثمت في الكلام: «أقصد أنّ صوته عالٍ».

أجابني الرجل الذي بدا مؤدبًا كثيرًا وهو مطأطئ الرأس: «أختاه، إن جميع المبرّدات تصدر هذا الصوت فالمبرّد في غرفتنا هكذا أيضًا».

وبكلامه هذا يئست من مجيء علي.

بعد وقت قليل، علمت أنّ علي على تواصل مع الإخوة في الجبهة، وأخبروه أنّ جزيرة مجنون حيث نُفذّت العمليات هوجمت مجدّدًا، واستشهد قائد كتيبة علي الأكبر الحاج رضا شكري بور[1]؛ ولهذا السبب، قويت نغمة عودتنا إلى همدان، حتّى إنّهم قالوا إنّ الرجال سينتقلون إلى الجبهة عبر الطائرات، والنساء سيعدن إلى همدان بالحافلة، وعلمنا كذلك وسط هذه المعمعة أنّ أحد عناصر المعلومات ويدعى «علي تابش»[2] استشهد منذ أسابيع عدّة.

اضطربت أحوال العناصر لدى سماعهم هذه الأخبار، وصارت مسألة عودتنا إلى همدان حتمية.

قلت لعلي: «فلنذهب اليوم معًا إلى السوق».

سألني متعجبًا: «السوق؟ ولأيّ شيء؟».

أجبته: «علينا شراء الهدايا».

وضع يده في جيبه وأخرج منها 6000 تومان وناولني إياها قائلًا: «تفضّلي، خذي هذه واشتري ما يحلو لك. اذهبي مع إحدى السيدات، فأنا لا أحبّ التجوال في الأسواق».

1- رضا شكري بور: ولد في همدان (اسفند ماه 1335) واستشهد في جزر مجنون في 28 خرداد 1365؛ كان الحاج رضا قائد كتيبة 154علي الاكبر عليه السلام في فرقة أنصار الحسين عليه السلام. استشهدت أخته فاطمة أيضًا في 1361/4/25 أثناء القصف الجوي المعادي لمدينة همدان.

2- علي رضا وليان تابش ولد في همدان في الرابع من آبان 1340؛ واستشهد في جزر مجنون أثناء عمله في وحدة الاستطلاع والمعلومات. كان من رفاق علي المقربين.

في ذلك الوقت كان مبلغ 6000 تومان مبلغًا كبيرًا، لم أُبدِ اعتراضًا وسألته: «ألا تريد شيئًا لك؟».

- لا، اشتري لنفسك.

- لقد اهترأت قمصانك، سأشتري لك قميصًا، أيّ لون ترغب؟

لم يرضخ لمسألة شراء القميص، بدا واضحًا أنّه لا يرغب في أمور كهذه، وفقط كي يجيبني قال: «أرغب في اللون الكاكي».

ذهبت برفقة إحدى السيدات إلى «بازار رضا». اشتريت لي ثوب صلاة زهري اللون، وكنزتين أنيقتين لأمّي وللسيّدة منصورة، وثيابًا لإخوة علي، ومريم التي تزوّجت حديثًا وانتقلت إلى طهران، وسجادتي صلاة جميلتين، لوالدي وللسيّد ناصر، وقميصًا بنّي اللون، وبنطالا ذا 8 جيوب؛ وزعفرانًا، وحبوب رمان مجففة، وبومبونًا من المبلغ المتبقيّ.

عدت إلى الفندق وأريته الأشياء التي اشتريتها. نظر إلى الأغراض مستمتعًا وقال: «بارك الله فيكِ يا عزيزتي، كم أنّ بالك طويل لتقومي بشراء هدايا للجميع، وكم أنّ ذوقك جميل!».

كان الإخوة منزعجين بسبب الأحداث التي جرت في جزيرة مجنون، وخصوصًا أنّ العدو قد هجم على ضلعها الغربي؛ أيّ على الموقع نفسه الذي تتموضع فيه قوات محافظة همدان؛ ولهذا السبب، حزمنا حقائبنا وركبنا الحافلات.

خلال مسير مشهد - همدان استرحنا في أحد المطاعم، فجأة صرخ أحد عناصر علي: «علي!». نهضت من خلف طاولة الطعام وركضت إلى الخارج. ركض بعض الرجال أمامي. رأيت علي في ساحة خضراء تشبه الحديقة العامة، كان في الهواء تمامًا كالأفلام البروسلية، قد طوى إحدى قدميه وبالقدم الأخرى يركل بشدة فتىً يافعًا يرتدي كنزة

حمراء، ثمّ ركل بالقدم الأخرى وجه رجل طويل القامة عريض المنكبين كان برفقــة الفتى، وقد فكّ يده المربوطــة من رقبته وراح يجري بيديه حــركات قتالية وتكتيكية، حاول الرجلان أن يدافعا عن نفسيهما، لكنّ علــي كان رياضيًا أكثر منهما. أســرع عناصره وأخذوه وأنهَوا المعركة. كنت أعلم أنّه لا ينبغي لي التقدّم إلى الأمام في ظروف كهذه.

فجــأةً وصل عناصر آخرون أيضًــا وأدخلوا علي إلى المطعم. أحضر له أحدهم ماءً، وآخر طلب الشاي. فهمت من حديثهم أنّ أحد الرجلين قــد عاكس زوجة أحد الإخوة، وقد سمعه علي الذي كان يجلس خلفهما عــن طريق الصدفة. كان علــي شديد الحساسية تجــاه أمور كهذه؛ إذ بقي وجهه وحتّى جلد رأسه الحليق محمرّين من الغضب قرابة النصف ساعة بعد انتهاء الحادثة.

كان يتحــرّق ألمًــا لقيــام هــذا الشخــص بمعاكسة امــرأة متجلببة بعباءتهــا، وتحمــل طفلها بين يديهــا، خاصّة أنّهما تشاجــرا مع علي، وتعاركا معه بالأيدي بعد اعتراضه على فعلتهما.

جلســت في إحــدى زوايا المطعــم، بعد وقت قليــل شاهدت الرجلين يدخــلان ويتقدّمان باتجــاه علي. خشيت من المشاجــرة ثانية، لكنّهما كانا خجلين، وجاءا لتقديم الاعتذار. توسلا إليه قائلين: «سامحنا! لم نعلم أنّك من المجاهدين، ولو كنّا نعلم لما أسأنا التصرف».

وصلنا إلى همدان ليلة الأحد 22 حزيران 1986 الساعة السابعة مساءً.

أوصلني علي إلى البيت، وجلس معنا قليلًا. ولأنّ أبي لم يكن موجودًا في المنــزل قرّر أن يعود ثانية عند الصباح. لكنّه لم يحضر صباحًا، بل أتى مساءً برفقة خالي محمود.

جلســا مدة ساعة، وتحدّثا مطولًا مــع والدي، تحدّثا عن 16 شهيدًا

جـيء بهم، وأحد الشهـداء كان الشهيد شكري بـور. في ظهيرة اليوم التـالي، الثلاثـاء 24 حزيران، توجّه علي وخالي محمـود عند الساعة 12 إلى الجبهة، وقبل الذهاب إلى الجبهة جاءا إلى منزلنا لتوديعنا.

سألته: «متى ستعود؟».

– غير معلوم، ادعي الله كي أعود من أجل العرس.

كنـا في فصل الصيف، وانشغلـت أمّي بالمساعدة في أمور الجبهات من جهة، ومن جهة أخرى انهمكت في تحضير جهاز العرس.

مضى على ذهاب علي 24 يومًا. كانت ليلة جمعة حين أتى أمير والحاج صادق إلى منزلنا، وأحضرا لي رسالة من علي. تسلّمت الرسالة، وبعد ذهابهما أسرعت إلى غرفتي، فضضت الظرف وشرعت في القراءة:

«باسمه تعالى

باسم أصحاب إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف الأوفياء والمخلصين

السلام عليكم

أتمنـى أن تكونـوا بخـير، وأن تكونـوا شاكريـن لأنعـم الله التي لا تحصـى، وأيضًا نشكره ونخرّ لـه ساجدين أنْ منّ علينـا بهذا القائد العزيـز شيخ جمـاران[1]، وقرّ قدميـه الراسختين علـى عيوننا المظلمة حتّـى استطعنا من خـلال هذا النور أن نميز بين الحـق والباطل، وأن نختـار طريقة عيشنا وحياتنـا؛ وأن نبقى في مواجهة الباطل حتّى آخر قطرات دمائنا.

أوصلـي سلامـي الحارّ إلى والـدك ووالدتك وأختَيـك، وأدعو الله أن تكـوني وعائلتـك الفاضلـة دائمًـا موفقـين في درب الله، وفي هذا الخصوص اجهـدوا في الدعاء كي أعمل بشـكل أفضل في سبيل الله،

1- الإمام الخميني.

فعسى أن يتقبّل اللّه منا.

فيما يتعلق بالعرس، أبلغوا العائلة أن يستعدّوا لذلك إن شاء اللّه في عيد الأضحى الواقع بتاريخ السادس عشر من أيلول 1986. وسآتي قبل ذلك بأيّام إذا لم يحصل مكروه. ليس لديّ مطلب آخر، وأستودعك اللّه».

بعد قراءتي الرسالة تنفّست الصعداء وارتاح بالي؛ فأمّي كانت قد أبلغت المدعوّين ودعتهم إلى العرس.

جاء علي إلى همدان في ليلة 11 آب. وتقرّر أن يأتي مع عائلته إلى منزلنا من أجل وضع برنامج للعرس. وكعادتها أعدّت أمّي عشاءً لذيذًا، حيث ملأت فضاء المنزل رائحة الأرز والزعفران والقيمة، وقمت عصرًا بشطف الفناء، أمَطتُ ستائر غرفة الاستقبال جانبًا وفتحت النوافذ، بدا كلّ شيء مرتبًا ونظيفًا. أعدّت لي أمّي جهاز عرس كاملاً، حيث وضّبت قسمًا منه في علب وصناديق كرتونية صغيرة وكبيرة ووضعته في الإيوان، كذلك رتّبت نصفه في مخزن صغير في زاوية الفناء.

أما نفيسة ورؤيا فكانتا تعدّان اللحظات عدًّا لحلول يوم العرس، كان تردّد الأقارب إلى بيتنا يكثر يومًا بعد يوم؛ جدّتي، بنات خالاتي، زوجات أخوالي ،كنّ يأتين كلّ يوم لزيارتنا ومساعدة أمي.

حلّ اللّيل، أضأنا مصابيح الفناء، وصرت أرشّ الماء داخل الفناء كلّ دقائق عدّة لتبريده، في النهاية غسلت الجدران أيضًا.

نظرت إلى الفناء والشجيرات الصغيرة الخضراء وحديقتنا المليئة بالزهور كيف أنّها أصبحت أكثر انتعاشًا وابتهاجًا تحت أضواء المصابيح والماء المرشوش عليها. فكّرت أنّه إذا نصبنا خيمة في الفناء وعلّقنا حبالاً من أضواء الزينة بين الشجرات فسيكون حفلنا رائعًا.

كنــت أتخيّل نفسي مرتدية الطرحة وثوب العرس، وعلي يقف بجانبي، بينمــا يمطرنــا المدعوون بالزهــور والنقــود المعدنية وحبــات الملبس، وفكّرت في إعداد مكان للعروس والعريس.

قُــرع الباب، ودخل علــي وعائلته إلى الفنــاء. أحسست منذ لحظة دخولهــم أنّهم لا يحملون معهم خبرًا جيّــدًا. لم تكن السيّدة منصورة والسيّــد ناصر وعلــي مسرورين كعادتهــم، بينما راحــت أمّي تتحدّث بإسهــاب وتفصيــل عــن كلّ الأعمال التــي أتممناهــا، فحدّثتهم مثلًا عــن المدعوّيــن، وعن الحلــوى التي وصّينــا عليها، وعن فرشــ الفناء بالسجاد...، كانت السيّــدة منصورة تعضّ على شفتيها وتعبث بالورود المطرّزة على عباءتها.

أشــار السيّد ناصر إليها كي تقول ما ينبغــي قوله. معمعت السيّدة منصورة في كلامها وقالت: «في الحقيقة لقد توفي أحد أقاربنا، ونحن لــن نقيم حفلًا». فجأة تعجبنا جميعنا، وامتقــع لون وجه أمّي. سألتْها بانكسار خاطر: «أتقصدين أن نؤجّل العرس؟!».

بــدت السيّــدة منصورة وكأنّهــا تعتصر ألمًا على أمّــي، التفتت إلى السيّــد ناصر وإلى علي ثمّ قالت: «لا، نحــن لا دخل لنا، فأنتم أحرار، أنجزوا عملكم فقد تعبتم ودعوتم الضيوف وقمتم بالترتيبات اللازمة. أقيموا حفلًا لأنفسكم، ونحن سنأتي لأخذ العروس من دون جلبة».

نظــر أبي وأمّي أحدهما إلى الآخر بتعجّــب، وراحا يستفسران عن رأي كلّ منهمــا بإشارات الحواجب وحــركات العيون. قالت أمّي: «لقد دعونا الكثير من الضيوف».

أمــا أنا فسررت برؤية علي كثيرًا، حتّى إنّني لم أشعر بالاستياء من هذا الحادث الطارئ.

أصـرّ علي علينا كي لا نفسد مراسم الحفل. في النهاية وافقنا على ذلـك. منذ ذلك اليوم عجّلت أمّي وضاعفت همتها في تكميل أعمالها. رغـم أنّ أوضـاع أبي لم تكن ميسـورة إلّا أنّ أمّي قـد أعدّت لي جهازًا جيّـدًا لا نقص فيه، لقـد سعت جهدها كي يكـون كلّ شيء يوم الحفل علـى أكمل وجه. فذهبتُ إلى السـوق واشترت لي قميصًا عاجيّ اللون جميلًا جـدًّا عوضًا عن ثوب العرس. بلغ ثمـن القميص 2500 تومان، ولم يكن هذا المبلغ في ذلك الوقت مبلغًا زهيدًا.

في كلّ يوم وفي كلّ ليلة كان يجري التداول والبحث في إقامة مراسم عرس صغيرة ولائقة. أصرّت أمّي على أن تقام هذه المراسم بأيّ شكل من الأشـكال. كانت تقول: «ما ذنب الشباب غـدًا عندما يذهبون إلى حفلات الأعراس سيشعـرون بغصة وسيسألون أنفسهم لماذا لم ننجز مراسـم مثل هـذه. علينا أن نصنع لهـم ذكريات طيبـة، فهم الآن لا يدركون أهمية ذلك».

في النهايـة، أنجزت أمّي عملها بإتقان، رغم أنّنا لم نفرش الفناء، ولم ننصـب خيمة، ولم نعلّق حبال أضـواء الزينة على الأشجار. كانت مراسـم العرس بسيطـة وبلا جلبـة، واقتصرت على تقـديم الفاكهة والحلوى.

بالتأكيـد تضمّن الحفل كرسيًّا خاصًّـا بالعروس من دون العريس. مهمـا أصرّرنا على علي كي يأتيَ، لكنّه لم يفعل. كان يقول: «إنّها حفلة للنسـاء، أخجل أن آتي وأجلس وسط كلّ تلك النسوة، فأنا أعرف عادة النساء؛ ما إن يرين العريس حتّى يشرعن في التصفيق ويثرن الجلبة».

في اليـوم التالي جـاء علي إلى منزلنـا وأخبرنـا أنّ زوجة صديقه تم قبولهـا في جامعة مشهد وأنّنا نستطيـع العيش في منزلهم من دون دفع بدل إيجار طوال مـدة وجودهم في مشهد، وأنّهم وضعوا كلّ أثاث

منزلهم في إحدى الغرف وأعطوا المفتاح لعلي.

قال علي: «تعالي لنلقي نظرة على المنزل، إذا أعجبك ننقل أغراضنا إليه».

كان للمنزل بابان يطلان على زقاقين: باب داخل الفناء، ويقع في زقاق مقابل زقاقنا، خاصّ بسكان الطابق الثاني. أمّا الباب الآخر، وهو الباب المخصص لنا، فكان داخل زقاق «قاضيان»، الذي لا يبعد كثيرًا عن منزلنا.

كان البيت وسط الزقاق إلى جهة اليمين، المبنى رقم (17)، مؤلّفًا من ثلاث طبقات. الطبقة الأولى عبارة عن موقف، بينما الطبقتان الثانية والثالثة فكانتا مأهولتين.

فتح علي الباب ودخلنا.

كانت السلالم واسعة والدرجات قصيرة، كذلك كان المنزل وسيعًا رحبًا ومضيئًا، تطلّ نوافذه على الفناء من جهة، ومن الجهة المقابلة تطلّ على زقاق «قاضيان».

لم تهمّني كثيرًا مسألة تصميم المنزل، كان يكفيني أنّه قريب من منزل أمي.

قال علي: «هل أعجبك؟».

- كثيرًا.

بعد ذلك قمنا بإطلالة على البهو وغرفة الاستقبال والمطبخ وغرف النوم. كان باب إحدى الغرف مقفلًا حيث وضع صاحب المنزل أغراضه.

سُرّ علي كثيرًا؛ لأنّ البيت نال إعجابي فقال: «سيّدة زهراء؛ لو تأذن لنا السيّدة وجيهة فنحضر أغراضنا ونوضّبها».

قلت: «ولمَ لا تسمح لنا بذلك، متى رغبت في ذلك فهو جاهز».

في ذلك اليوم، جاء علي إلى منزلنا برفقة عدد من أصحابه ونقلوا الأغراض. وضعت لي أمّي مع الجهاز سجادة بحجم ستة أمتار. عندما فرشنا السجادة لاحظنا أنّ غرفة الاستقبال كبيرة.

ذهب علي عصرًا إلى تعاونية الحرس واشترى قطعتَي سجاد مقاسهما 12 مترًا وفرشناهما في البهو. رغم ذلك بقيت أطراف غرفة الاستقبال شاغرة، فاشترى أيضًا أمتارًا من الموكيت وغطّى بها الزوايا.

في يوم 18 آب مساءً كان الاتفاق أن يأتي علي وعائلته إلى منزلنا لينقلوني إلى بيتي، فدعت أمّي نساء أخوالي والأقارب من أجل ذلك.

بعد تناول العشاء، غسلنا الصحون ورتّبنا المنزل وبتنا في انتظار العريس وعائلته. شرعت أمّي في البكاء منذ أول اللّيل، وأعدّت البخور ودارت به حولي. حاولتُ كثيرًا منع نفسي عن البكاء فلم أستطع. ارتديت القميص العاجي الذي اشترته لي أمّي والعباءة التي ارتديتها يوم عقد القران.

انقضت الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ولم يحضروا بعد، لا أدري لماذا سرى الخوف في عروقي. قلت لأمي: «أمّي هل أنت متأكّدةٍ من أنّهم سيأتون اللّيلة، قد يكون الموعد ليلة الغد وأنت سمعت خطأً». كذلك أمّي وقعت في الشك. جلسنا مكتوفي الأيدي، بينما استغرق الأقارب في الأحاديث. كانت الدقائق تمرّ ببطء، مرّت ساعة من الوقت أيضًا، فقلت لأمي: «أشعر بالنعاس، ربما طرأت عليهم مشكلة ما». اضطربت أمّي وقلقت، حضنتني وقبّلتني قائلةً: «سيأتون الآن». وراحت تبكي في حضني. بعد قليل قُرع الجرس ودخل كلّ من علي، أمير، الحاج صادق والسيّدة منيرة ومريم.

كان علــي يرتدي قميصًا أزرق، فاتح اللون، وبنطالًا رماديًّا. اختلف شكله عن المعتاد، تقدّم وسلّم عليّ وسألني عن أحوالي.

حملــت أمّــي القرآن، فتحته وقــرأت لنا آيات عــدّة. بعدها استأذن علي من أبي وأمّي، أمسك أبي وخالي محمود بيدي وأخذوني من غرفة الاستقبال إلى البهو والممرّ، ثمّ إلى الفناء وسط بكاء أمّي ودعواتها لي.

ارتبكــت أمّي وهي تدعــو لي همسًا وصارت تــروح وتجيء إلى هذه الناحية وتلــك وكأنّها تبحث عن شيء ما، كذلك نفيسة راقبت ذهابي بقلــق وحزن. وقفت أمّي قربي وقبّلتني مــرّات عدة. همستُ في أذنها: «أمّــي عزيزتي، سامحيني». أجهشت أمّي بالبكاء قائلة: «أسعدك الله وجعل عاقبة أمركما خيرًا، سامحكِ الله يا عزيزتي».

عندمــا وصلنـــا إلى السيّارة، أمسك أبي بيــد علي ووضعها في يدي وقــال: «علي، أستودعك فرشته، هــي نفسك حافظ عليها كما تحافظ على نفسك».

- استودعها الله يا عمّاه.

- بالتأكيد، بالتأكيد، أستودعكما الله أنتما الاثنين.

خفضــت رأســي ولم أرَ أحــدًا. سمعت علي يقول: «أتمنــى أن أكون صهرًا لائقًا بكم، وأتمنى أن أكون زوجًا جيّدًا لزهراء».

- حتمًــا إنّــك كذلك، أقسم بــالله إن عاشت ابنتــي ليلة واحدة مع رجــل مثلك، فإنّ ذلك أفضل بمئــات المرات من أن تعيش كلّ العمر مع رجل عديم المروءة.

بعــد ذلك وضع يده على رقبة علي وقبّله. وأركبتني زوجات أخوالي في سيّارة صديق علي، وجلسن قربي.

كانت السيّارة لأحمد صابري، صديق علي، وكان هو نفسه

السائق. عبرنا شوارع عدّة، ووصلنا إلى مقام عبد الله[1] -أحد أولاد الأئمة عليهم السلام- طاف السيّد صابري بسيارته 7 مرّات حول المقام. كان يمازح علي ويشاكسه. بقيت أنظر إلى قبة المقام طوال ذلك الوقت ورحت أدعو من أجل سعادتنا وخير عاقبتنا.

بعدها ذهبنا إلى ساحة الإمام الخميني، ومن ثمّ إلى شارع «أبو علي». لم تتبعنا سوى سيّارة الحاج صادق، التي أقلّت مضافًا إلى الحاج صادق، زوجته وابنته مريم والسيّد أمير.

سارت السيارتان من دون إطلاق أبواق، ومن دون إحداث أيّ جلبة.

عبرنا شوارع عدّة. قال السيّد صابري: «فلنذهب إلى سنك شير[2]. لم يعارض علي الفكرة. بعد سنك شير عبرنا شوارع عدّة إلى أن وصلنا زقاق «قاضيان».

ترجّل علي من السيّارة، فتح الباب وأمسك بيدي. كان في انتظارنا أمام الباب كلّ من السيّد ناصر، الجدّ والجدّة، والسيّدة منصورة، وأمّي وأختيّ.

فاحت رائحة البخور في الزقاق. أمسك السيّد ناصر بيدي ودخلنا، وشرع خلال صعودنا الدرج في إنشاد:

«هذا اليوم نقيم عرسنا على نحو حسن

هو من ألطاف الله والحجة بن الحسن عليه السلام

عروس جديدة كوردة الياسمين

1- ساحة مشهورة في همدان، ودفن في هذا المكان الشريف جسد اثنين من أحفاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام. ويؤمن أهل همدان ونواحيها بهذين الحفيدين إيمانًا شديدًا، وقد تمّ توسيع الضريحين في السنوات الأخيرة وأعيد بناؤهما.

2- تُسمّى هذه الساحة «شير سنكي» أو الحجر العاجي، وهو يتعلق بزمن الأشكانيّين، بعض الناس يعتقدون بخرافات حول هذا المكان.

عريس كوردة الشقائق والياسمين

من عشق محمد والزهراء عليها السلام

يمتلئ حبًّا قلب هذا العريس وعروسه..».

تبعنا الباقون وهم يصلّون على النبي وآله. عندما وصلنا إلى منزلنا جلس الضيوف دقائق معدودة ثمّ باركوا لنا، وتمنّوا لنا السعادة وانصرفوا. عندما خلا المنزل وضع الجدّ يدي بيد علي ودعا لنا.

غادر جميع الضيوف تقريبًا ما عدا نساء أخوالي. توضّأ علي، وكذلك أنا حذوت حذوه، ووقفت للصلاة خلفه.

بعد الصلاة جلسنا، وراح يكرر كلّ ما حدّثني به يوم عقد القران: «إنّ والديك هما والداي، وكذلك والداي هما بمنزلة والديك. إذا احترم كلّ منّا عائلة الآخر فلن تحدث أيّ مشكلة، وبما أنّك فتاة مؤمنة وملتزمة ومحجّبة فلن أطلب منك شيئًا آخر؛ المرأة المسلمة تعرف واجباتها، فأنتِ قد نشأتِ في أحضان عائلة مؤمنة وأصيلة».

في اليوم التالي جاءنا ضيوف، عدد من عناصر علي، وعدة أفراد من أقاربنا. جلس الرجال في الطابق الثاني حيث منزل الجيران، بينما جلست النسوة في منزلنا. تمّ إحضار عشاء جاهز. بعد العشاء شرع أحد أصدقاء علي في الإنشاد. عندما كانت ترتفع أصوات الرجال بالصلوات كنّا نحن النسوة كذلك نصلّي على النبي وآله.

بعد العشاء، ودّعنا الرجال وانصرفوا؛ وهكذا بهذه السرعة بدأت حياتنا المشتركة بمراسم بسيطة من دون تكلّف وأعباء. بقيت السيّدة منصورة والسيّد ناصر وأمير في منزلنا. كانت السيّدة منصورة تحبّ أولادها حبًّا جمًّا، رغم أنّ حالها الصحيّة لم تكن على ما يرام، إلّا أنّها أخذت على عاتقها مسألة الطهو. بينما كنت أنا أعتني بتنظيف البيت

والكنس وغسل الأواني وتنظيف الخضار. أمّا مهمّة أمير فاقتصرت على التسوّق.

كان أمير شابًّا عطوفًا وهادئًا مع الجميع. أحيانًا كانت السيّدة منصورة ترسله لشراء الحاجيات 4 أو 5 مرّات من دون أن يبدي اعتراضًا، أو أن يتفوّه بكلمة، كأنّ يقول مثلًا: لماذا لا تطلبين كلّ الأشياء دفعة واحدة.

بعد 4 أيّام ذهبت السيّدة منصورة والسيّد ناصر وأمير إلى منزلهم. يومها بقيت وحدي، وكانت المرة الأولى التي أقوم فيها بإعداد الطعام بنفسي.

قرابة الظهيرة طهوت الأرز مع الكباب المشوي. ملأت رائحة الكباب فضاء المنزل. بعد قليل قرع الجرس. عندما سألت من خلف الباب من الطارق، أجابني: «أنا علي، لدينا ضيوف». تجلببت بالعباءة على عجل وفتحت الباب. دخل علي مع أحد أصدقائه وهما يقولان: «يا الله». بعد الترحيب ذهبت إلى المطبخ فتبعني علي.

اغتظت منه بعض الشيء وقلت: «طالما أنّكَ أردت إحضار ضيوف معك أخبرني بذلك!». ضحك وقال: «شخص واحد لا يحتاج إلى إبلاغ مسبق، يكفي أن نأكل لقمة خبز وجبنة وهو أمر ميسور!».

– ولكنّني أخجل من ذلك.

– لا تخجلي أبدًا من أجل هذه الأشياء؛ لا بأس حتّى لو لم تقدّمي لنا الغداء فلن نشكو أو نعتب. كلّ ما نريد أن نجلس في مكان هادئ ونتحدّث عن أعمالنا. قدّمي لنا فقط لقمة خبز وجبنة وفنجان شاي محلّى، ولك منّا جزيل الشكر والامتنان.

بجوابه هذا صرت مجرّدة من السلاح، فقال لي ممازحًا: «والآن

ماذا طهوتِ؟ لقد بثثتِ رائحة أرز شهيّة يا وردتي».

– أرز مع الكباب المشوي.

تنفّس الصعداء وقال: «أحسنتِ أحسنتِ! والله إنّ المرأة الحسنة لنعمة. ومن ليس لديه امرأة حسنة فهو خاسر».

ضحكت وناولته الطعام.

كانت كميّة طعام غدائنا تكفينا. أكل علي وصديقه في البهو وأنا تناولت الطعام في المطبخ، كانت مائدتنا مليئة بالنعم: خضار، لبن، شمّام وكذلك مياه غازيّة.

تذكّرت كلام أمّي: «إنّ الضيف يُدخِلُ رزقه معه».

5

وردتي

بعـد مضي أسبوع على حياتنا المشتركـة، نهض علي في صباح أحد الأيّـام بعـد صلاة الصبـح وقال لي: «سيّـدة زهراء، يجـب أن أغادر اليوم، أين حقيبتي؟».

- إلى أين؟!

ضحك وقال ممازحًا: «إلى منزل العم شجاع!.. معلوم يا عزيزتي، إلى الجبهة، وإلى أيّ مكان غير الجبهة سأذهب؟».

غلّفت سحابة من الغمّ نظراتي: «ألا يمكنك أن تتريّث قليلًا؟».

- كلّا، فعدوّنا لئيم.

وضعـت في الحقيبة منشفـة وأغراضًا شخصيّـة؛ بعض القمصان والبناطيل، وقليلًا من الفاكهة والمكسّرات وأقفلتها.

تابـع ممازحًا: «هنا يتّضح الفرق بين المتـزوّج والعازب. وأخيرًا لم يحرمنا اللّه من رؤية حقيبتي ملأى بالمساعدات العينية!».

ترقـرق الدمـع في عينَيّ كلينـا. كان علي إنسانًا لا يـبرز مشاعره، ولكي يخفي ذلك؛ انحنى وانشغل بربط شريط حذائه العسكري. وضع الساعة التي أهـداه إيّاها والدي له يوم عقد القران في معصمه، بدت واسعـة بعض الشيء، فقرّرت أنّه عندما يعود في المرة القادمة سأعمل

على تصغيرها.

عندما رفع رأسه وجدت أنّ عينيه ووجهه محمرّان حتّى أسفل حنجرته.

قال وفي صوته حشرجة: «عزيزتي، انتبهي لنفسك وسامحيني».

رغبت في البكاء بصوت عالٍ، وتمنيت أن يأخذني معه. حدّق في عينيّ، بدت عيناه الزرقاوان كبحرٍ متلاطم. قلت له: «أنت أيضًا انتبه لنفسك، ولا تنسانا من الشفاعة».

فجأة وبدون أن يردف شيئًا نزل الدرج بسرعة؛ وبينما هو مندفع في مشيه لوّح لي بيديه من الخلف قائلًا: «عزيزتي وداعًا، ها قد ذهبت».

6

الروضة الحادية عشرة

مضى على ذهابه أربعة أيّام، ومنذ اليوم الأول ذهبت إلى منزل أمي.

كان الوقت عصرًا عندما قرع الباب. في ذلك اليوم ومنذ استيقاظي في الصباح الباكر كان مزاجي عكرًا، ولم أرغب في فعل شيء، لم أدرِ ماذا أصابني، ما إن قرع الجرس حتّى أسرعت حافية القدمين وأنا أدعو: «إلهي، أرجوك أن يكون علي سالمًا، وأن لا يصيبه مكروه، إلهي أرجوك أن لا يحمل القادم إلينا خبرًا سيّئًا».

ما إن فتحت الباب حتّى تسمّرت مكاني من التعجب. لم أستطع فتح فمي لإلقاء التحية، فالواقف لدى الباب كان علي نفسه، أتى ضاحكًا، مسرورًا وبدون جراح في رأسه ووجهه أو في يديه ورجليه. تنحيّت جانبًا لأفسح له بالدخول، وأخذت الحقيبة من يده.

ضحك وقال: «لقد فرغت المساعدات».

- بالصحة والهناء.

- من يوجد هنا؟

- جميعهم.

عندما تحلّقنا حول بعضنا البعض وأحضرت لنا والدتي الشاي قال

علي: «ذهبنا من الجبهة إلى طهران للقاء الإمام الخميني، لكن للأسف لم نوفّق لذلك، وقررت المجيء لزيارتكم قبل عودتي إلى الجبهة».

أعـدّت والدتـي طعام العشاء بسرعـة. قلت له: «ليتـك لم تقل إنّك ذاهب غدًا، فقد بدأ القلق يساورني منذ الآن». ضحك علي وأبي لذلك. بعـد العشاء أخذتني أمّي جانبًـا وقالت لي: «إذا رغبتم اللّيلة في البقاء عندنـا فأهلًا وسهلًا بكما، لكن بما أنّ زوجك قد جاء لليلة واحدة فمن الأفضل أن تذهبا إلى منزلكم، لتغسلي له ثيابه المتسخة إن وُجدت».

في صبـاح اليوم التالي -الثلاثاء 2 أيلول- غـادر علي باكرًا. كانت حقيبتـي لا تـزال أمام البـاب؛ إذ إنّه لم تسنح لي الفرصـة ليلة أمس لفتحهـا بسبـب مجيئنـا إلى البيـت. حملتها من هنـاك وخرجت من المنـزل. كان الشـارع خاليًا، حتّى من رفرفـة الطيور، لكن علي رفرف كطائر ورحـل. في تلك الجهة من الشارع كان منزل أهلي، هرعت إلى زقاقنا بعينين باكيتين وغصة في الحلق، وقرعت الجرس.

في يوم الجمعة 12 أيلول 1986، تقرّر إرسال كتائب عدّة من محافظة همدان إلى الجبهة. خرجت أنا وأمّي إلى الشارع، وجاء حشد كبير من الناس لمشايعة المجاهدين، وملأت رائحة البخور مكان عبور الحافلات المرسلة إلى الجبهة.

اتجهـت النسوة ناحية الحافـلات وفي أيديهن مرشّات، وقمن برش ماء الورد علـى المجاهدين الذين أطلّوا برؤوسهم من نوافذها، وراحوا يلوّحون للناس بأيديهم. قرابة الظهر ذهبنا إلى المسجد الجامع، وعدنا إلى البيت بعد إقامة صلاة الجمعة.

ولأنّنـي كنت متعبـة شعرت بوجع رأسـ فخلدت إلى النـوم باكرًا. عندمـا استيقظت من أجل الصـلاة، كان رأسي لا يزال يؤلمني، لذلك

عـدت إلى النوم مجدّدًا. عند الصباح اجتاحـت أشعة الشمس فضاء غرفتي فأيقظتني.

كانت أمّي قد ذهبت صباحًا إلى مشغل الخياطة، وكذلك أبي ذهب كعادته إلى محل الحلاقة. عندما قرع جرس الفناء قفزت من الفراش وتأزّرت بعباءتـي، أسرعت إلى الباب والرعشة تسري في كلّ بدني، لم أستطـع أن أحدُس بالشخص الواقف خلف البـاب، أو بالخبر الذي يحمله، فتحت البـاب فوجدت السيّدة منصورة قبالتي، وَهنَت قدماي وتجمّدت أطرافي.

بـدت السيّـدة منصـورة كعادتها أنيقـة ومرتبة، وانتبهـت لوهلتي عنـد رؤيتهـا فقالـت: «عزيزتي فرشتـه، لا تخافي لم يحـدث مكروه، نحـن سنذهب إلى طهران لزيارة مريم، جئنا لنأخذك معنا، فأنت لم تستطيعي الذهاب إلى عرسها».

تنفست الصعداء وأجبتها: «أشكرك، ولكن ليتكم قلتم ذلك في وقت سابق، فالآن لست مستعدّة لذلك». في هذه اللحظة تقدّم الحاج صادق الـذي كان يقف أبعد منها بقليل، سلّم عليّ، وسأل عن أحوالي، ثمّ قال مصارحًا إيّاي: «في الواقع يا سيّدة فرشته لقد أصيب علي بجراح».

عنـد سماعـي باسم علي وخـبر إصابته دارت بـي الدنيا، أمسكت ببـاب الفناء كـي لا أهـوي. أمسكت السيّـدة منصورة بيـدي وقالت: «والله لم يحـدث شيء؛ أردنا الذهاب بمفردنـا، لكن إن علمتِ بالأمر ستنزعجين منّا».

لم تكن حالي جيّـدة، شعرت بدوار وخفقَ قلبي بقوة. قالت السيّدة منصورة: «عزيزتي فرشته، والله لم يحدث شيء فأنا لا أكذب عليكِ».

كانـت نفيسـة ورؤيـا لا تـزالان نائمتـين، لم يطاوعنـي قلبي على

إيقاظهما، حملت حقيبة اليد التي كانت دائمًا في زاوية الغرفة وخرجت من دون إحداث جلبة.

عندما ركبت سيّارة الحاج صادق قلت لهم: «فلنذهب لإخبار أمي». كان مكان عمل أمّي على طريقنا، وهو عبارة عن مشغل يقع في شارع «بابا طاهر»، في شقّة سكنية في الطابق الثاني. كانت الشقة تتألف من غرف عدّة كبيرة: غرفة تفصيل الأقمشة، غرفة تلفيق أطراف الأثواب، وغرفة الخياطة.

كانت أمّي مسؤولة المشغل، فتراها تحوم بين الغرف وتشرف على الأعمال بكلّ أناة. اختلطت أصوات «قيزز قيزز» آلات الخياطة؛ من ماركات «مارشال وسينجر»؛ مع أصوات آلات تفصيل الأثواب. كانت النساء يجلسن خلف الماكينات ويخيطن الأثواب، وأمّي واقفة بالقرب من إحدى السيدات وتقول لها شيئًا. كان صوت الماكينات اليدوية يذكّرني بطفولتي وخياطة أمّي، كم كانت تخيط لنا ألبسة جميلة بتلك الماكينات السوداء التي طبع على هيكلها صورة الأسد!! تنانير مزمزمة ومكسّرة، وقمصانَ فضفاضة قطنية.

تقدمت نحوها وسلّمت عليها: «السلام عليك يا أمّاه، عافاكِ الله». تعجبّت لرؤيتي واضطربت، فقلت لها: «لم يحصل شيء، أصيب علي ونقلوه إلى طهران، سأذهب مع السيّدة منصورة والحاج صادق».

امتقع لون وجهها لكنّها حاولت أن تخفي ذلك، أمسكتْ بيدي وقالت: «أرجو أن لا تكون إصابته خطيرة، أتريدين أن آتي معك؟».

قلت لها: «لا، فالسيّارة لا تتسع لذلك؛ إذ إنّ السيّدة منيرة ستذهب أيضًا، وصديق علي كذلك». قرأت أمّي آية الكرسي وقالت: «لأذهب وأسلّم عليهم».

جاءت أمّي إلى حيث السيّارة، وسلّمت على السيّدة منصورة والحاج صادق والسيّدة منيرة وسألتهم عن أحوالهم، بعدها عانقتني وقبّلتني وودّعتنا.

ركبت سيّارة الحاج صادق، جلست أنا والسيّدة منصورة والسيّدة منيرة في الخلف، بينما راحت أمّي تنظر إليّ بقلق، وتتمتم أحرازًا وتنفخ على جانبي السيّارة.

عندما وصلنا إلى مزار أحد أحفاد الأئمة «إمامزاده عبدالله» حانت منّي التفاتة إلى الخلف، فوجدت أنّ أمّي قد توارت عن مجال رؤيتي لها، قال الحاج صادق: «سنذهب إلى الحرس حيث ينتظرنا فرزان أمام الباب».

حدّثتني السيّدة منصورة قائلة: «إن حسين فرزان هذا مدين لعلي ولدنا، الآن عندما يركب معنا سأقول له أن يحكي لك القصة بنفسه. كان علي يحبّه كثيرًا، وعندما سمع بنبأ شهادته ذهب إلى «معراج الشهداء»[1] ليلقي عليه النظرة الأخيرة. لاحظ علي وهو في براد الموتى بخارًا داخل الكيس الذي يغطّي وجه حسين فرزان. وضع الجثمان على كتفه فورًا ونقله إلى المستوصف. وهكذا عاد السيّد حسين فرزان إلى الحياة ثانية».

بعد قليل، جاء السيّد حسين وركب في المقعد الأمامي. عندما علم أنّني زوجة علي شرع في مدحه، وبعد ذلك روى لنا ذكريات كثيرة فقال: «رغم أنّ علي هو قائدنا إلّا أنّه كان الشخص الأول الذي يذهب قبل أيّ عملية إلى الخط للاستطلاع، ويصل إلى أقرب خنادق العدو».

وتابع قائلًا: «في بداية الحرب قال علي لنا لا تستخدموا أجهزة اللاسلكي؛ لأنّه يمكن التجسس عليها، بل استخدموا الهاتف السلكي».

1- معراج الشهداء: المكان المخصص لحفظ جثث الشهداء (المترجم).

تحـدّث كثـيرًا عن شجاعـة علي وجرأته فقـال: «رغـم كلّ ذلك، كان الأكـثر تواضعًا وحنانًـا ورأفة في الوحدة». ظل يســرد لنا ما سلف من ذكريات مع علي حتّى وصلنا إلى طهران.

كان مستشفى ساسان كبـيرًا ومرتبًا ونظيفًا، بدا السيراميك على الأرض وعلى الجدران برّاقًا حتّى إنك تستطيع مشاهدة نفسك فيها.

صعدنـا في المصعد الكهربائي الذي بدا شبيهًـا بمصاعد الفنادق أكثر من كونه مصعد مستشفى.

توقّـف المصعـد بعـد صعودنـا طبقـات عـدّة، ورحنـا نسـير على السيراميـك الأبيض اللامع. وبينما نحن نسـير كانت أحذيتنا تصدر أصـوات صرصـرة من شدّة نظافـة الأرض. اختلجـت في رأسي أفكار مختلفة، وشعرت بالاضطـراب. في الحقيقة لم أدرِ بعد لحظات، على أيّ حال، سأرى علي.

أخيرًا، دخلنا غرفة يوجد فيها سريران وسيّدة تقف قرب السرير. تقـدّم الحاج صـادق وحسين فـرزان وعانقـا الجريـح المستلقي على السرير. كذلك تقدّمت السيّدة منصورة، وبعد العناق والسلام قالت: «عزيزي علي كيف حالك يا أماه؟ هل أنت بخير؟!».

فكّرت في نفسي: «أهذا هو علي حقًا؟!». شابّ بلحية وشارب خفيفين ورأس حليق، شاحب الوجه ونحيل، وشكله لا يشبه علي على الإطلاق.

تقدّمت نحوه السيّـدة منيرة وسلّمت عليه إلّا أنا بقيت واقفة أسفل السريـر مدهوشـة وحـيرى أنظـر إلى ذاك الشخـص الـذي يناديه الجميع «علي». كنت دائمًا إنسانة عاطفية وسريعة التأثّر، لكن في تلك اللحظات حاولت أن أسيطر على نفسي، وأن أبدو قوية.

وصلوا في يده مصلًا ووضعوا إلى جانب السرير على الأرض خرطوم

القسطرة (الميل). في ذلك الحين كنت أبلغ من العمر 18 عامًا تغمرني حماسة الحياة وعنفوانها، ويغمرني عشق رجل هو زوجي وكل آمال وأمنيات حياتي، لكن الآن، وبعد مرور أسبوعين من حياتنا المشتركة، أراه مستلقيًا على سرير المستشفى، ولا أدري ماذا أفعل لأجله.

عضضت على شفتيَ كي لا أسترسل في البكاء أمام الحاضرين، عندها تبسّم وأومأ لي برأسه كي أتقدّم نحوه. شعرت باستياء كبير وأحسست بعبء المكان، وأنّ قدميّ لا تستطيعان حمل ثقل القسم الأعلى من جسدي، وأنّ الغرفة تدور بي. رفعت يدي عن السرير فانتبهت لذلك السيّدة منيرة التي كانت تقف بقربي، أمسكت بيدي وقالت:

- فرشته ماذا بك؟ ألستِ بخير؟ إن كنت متعبة تعالي معي إلى الخارج.

تبعتها وأنا أشعر بدوار، ما إن وصلت إلى الصالة حتّى أجهشت بالبكاء، وتبعتنا كذلك تلك المرأة المتوسطة العمر التي كانت تقف قرب سرير علي.

عرّفتني إليها السيّدة منيرة قائلة: «هذه الخالة فاطمة، أخت السيّدة منصورة، إنّها الخالة الوحيدة لعلي».

عانقتني الخالة فاطمة وقبّلتني، لقد كانت المرة الأولى التي أراها وتراني. خاطبتني بلهجة طهرانية محببة: «كم هي جميلة عروسة ابن أختي، يا حلوتي! لماذا تبكين يا عزيزتي؟».

غصصت بالبكاء، ورحت أذرف الدموع دونما توقّف.

قالت لي: «أنت متضايقة من أجل علي؟ لكنّه لا يشكو من شيء، حاله جيّدة يا عزيزتي، لقد أجروا له عملية ليلة البارحة، كانت قد بقيت شظية في أعلى فخذه، وتم نزعها، وسهرت على راحته حتّى

الصباح، تحدّثتُ مع طبيبه، وقد أقسم لي إنّ وضعه ليس خطيرًا».

حدّثتني الخالة فاطمة بشكلٍ هادئ جدًّا ولطيف، وواستني كثيرًا حتّى تحسنت حالي. بعد قليل شعرت بالارتياح وعدنا معًا إلى الغرفة. أبعدَت الجميع جانبًا، وأمسكت بيدي وأخذتني إلى قرب علي وقالت:

- علي عزيزي، زوجتك فرشته هل رأيتها؟

عندما رآني ضحك وقال: «فرشته ماذا بكِ؟ أبكيت؟».

تعجبت كيف أنّه فجأة تبدّلتُ من زهراء إلى فرشته. أخفضت رأسي ورحت أكفكف دموعي بمنديل ورقيّ كانت قد أعطتني إيّاه الخالة فاطمة.

سألني علي ثانية: «ماذا بكِ يا زهراء؟».

اختلط البكاء بالضحك وقلت: «لا شيء، هل أنت بخير؟».

غمر الهدوء وجهه فأجاب: «الشكر لله، أنا بخير».

وضع إحدى يديه على بطنه وعلّق المصل في اليد الأخرى، أردت أن أمسك بيده فتذكّرت شرطه، فتحت له علبة العصير، أردت أن أضعها في فمه فأخذها بتلك اليد التي كان يضعها على بطنه، أمّا الباقون فكانوا قرب النافذة مستغرقين بالأحاديث.

رشف من علبة العصير رشفات عدّة وقال: «لا أشتهي أكل شيء، اشربيها أنتِ».

ذهب الحاج صادق وحسين فرزان والسيّدة منيرة إلى الغرف الأخرى لعيادة الجرحى في المستشفى، وبقيت السيّدة منصورة والخالة فاطمة قرب النافذة تتجاذبان أطراف الحديث.

نظر علي إلي بعينيه الزرقاوين والعطوفتين قائلًا:

– عزيزتـي فرشته، لقد فعلت حسنًا بمجيئـك، لم أعتقد أبدًا أنّك ستأتين.

تجـرأت ووضعت يدي على السرير قرب يـده، أدنى يده بهدوء من يـدي، أمسكها وضغط عليها ثمّ ابتسم وتحدّثـت عيوننا عن كلّ ما لم تتفوّه به ألسنتنا. كسرتُ برهة الصمت:

– لقد أبعدتنا الحرب عن بعضنا البعض.

– هذه هي ميزة الحرب.

– لا يهـمّ مـاذا سيحصل غدًا، ما يهم أنّـك الآن بخير، وأنّنا قرب بعضنا البعض.

كان هناك دفتر غلاسور زهري اللون (60 ورقة) موضوعًا على طاولة معدنيـة قربنا، رسـم علي عليه جبلًا وإلى جانبه حـرم الإمام الحسين عليه السلام وقبّته الشريفة. أخذت الدفتر ورحت أنظر إليه. كان قد رسم أيضًا علمًا على قمة الجبل. أعجبني ذلك كثيرًا فقلت: «إنك بارع في الرسم!!».

كتـب حول القبـة أسماءً عدّة، وشرعت في قـراءة الأسماء: «قاسم هـادي[1]، مصيـب مجيدي، محمد باقـر مؤمني[2]، أمـير فيصل إلهي،

1- قاسـم هـادي: ولـد بتاريـخ 22/8/1961 فـي قرية سهل مـراد بك، وهي مـن ضواحي محافظة همـدان. تشرف بزيارة كربلاء برفقة عائلته وهو في السابعة من عمره. في تلك الأيّـام حظـي بشرف الحضور في منـزل آية الله مدني مدة 40 ليلـة والمشاركة في صلاة الجماعـة بإمامة الإمام الخمينـي قدس سره. بعد انتصار الثورة الإسلاميـة انتسب إلى الحرس الثوري، التحق بركب الشهداء بتاريخ 27-11-1364 في عمليات والفجر8.

2-محمـد باقر مؤمني: ولد فـي همدان بتاريخ1344 (1965)، كان قدوة للقـوات في وحدة الاستطلاع بالتقـوى والإخلاص، اقترب موعد عمليات صاحب الزمان وطلب المشاركة في العمليات لكن القائد علي تشيت سازيان حال دون اشتراكه فيها، ظل محمد باقر يبكي حتى الصبـاح لعلّـه يستدر عطف ورأفة قائـده. في اليوم التالي، في تاريـخ 8-2-1365 وبينما هو يستريح أصابت الخندق قذيفة واستشهد مع عدد من رفاقه.

محمد قربانيان موحد[1]، وحسن سرهادي[2]».

سألته: «هل هذا من صنعك؟».

هزّ رأسه موافقًا، فقلت له: «إن رسمك رائع!». وكأنّ تشجيعي له قد فعل فعله فسألني: «أتريدين أن أرسم لكِ؟».

أخرجت دفتر مذّكراتي الموجود دائمًا في حقيبتي وناولته إياه فقال: «ناوليني إحدى هذه الأزهار».

وُضع على الطاولة أمام سريره زهرية بداخلها باقة ورود زنابق حمراء وبيضاء وزهرية اللون. تناولت غصنًا منها، كسرته من وسطه وأعطيته الوردة. عدّل جلسته ووضع الوردة بين ركبتيه وشرع في رسمها بواسطة قلم حبر أزرق. مهارته في الرسم لا غبار عليها؛ إذ إنّه وبعدّة حركات سريعة رسم شكل زنبقة بجانبها شمعة وفراشة، يقطر من جناحها قطرات دماء بعد أن أصيبت بطلقة، وقد وقع شيء من ريشها على الأرض. ثمّ كتب تحت الرسمة:

«رحل الأصحاب كلهم ناحية العشق

هيا أسرع كي لا تتخلف عن الركب».

قرأت الشعر بصوت مرتفع، ضحكنا ومازحته قائلة: «أتيت إلى طهران وأصبحت طهرانيًا، ومضيت في درب العشق والعاشقين».

1- محمد قربانيان موحد: ولد في عام 1350 (1971) في إحدى القرى الفقيرة التابعة لمحافظة همدان. عمل في وحدة الاستطلاع لعمليات فرقة أنصار الحسين عليه السلام في همدان. لبّى دعوة الحق واستشهد بتاريخ 12-6-1365 عندما كان عائدًا من مهمة موفقة في جزيرة مجنون بشظية قذيفة.

2- حسن سرهادي: ولد في قرية صالح آباد التابعة لمحافظة همدان بتاريخ 1344. عمل أيضًا في قوات الاستطلاع، واستشهد بتاريخ 20-6-1365 في عمليات خاطفة (تضليل أو توغل) داخل الزورق بقذيفة سقطت على الـ(پد) الغربى (پد: موقع مائي فيه تحصينات وإنشاءات دشم، متاريس، وباحات وطريق يربط بينها).

ضحـك وبسرعة وضع خطًّا على كلمة عشق، وكتب مكانها «الموت». انزعجت لدى رؤيتي كلمة «الموت»، قطبت حاجبي وقلت له:

– أنت لا تجيد عمل شيء سوى إزعاجي؟

أراد أن يخرجني من حالي هذه فأعطاني الدفتر قائلًا:

– الإهداء إلى زوجتي العزيزة، عشقي السيّدة فرشته احفظي هذا تذكارًا يا وردتي.

أخـذت الدفـتر منه وقلت: «علي، ما رأيـك في أن نبقى في طهران، لقـد ناسبك جوّها، وأصبحت كالطهرانيين. ورحـت أقلّده «أقدّم هذه الذكـرى إلى زوجتي، عشقـي» لم يبقَ إلّا أن تلفـظ كلمة وردتي بلهجة الطهرانيين، وليس بلهجة الهمدانيين[1]».

ضحـك مليًّا، وأنا كذلك ضحكت لضحكه فقال: «عندما دخلت من الباب دخلت كملاك، حقًّا يليق بك هذا الاسم (فرشته)».

شعـرت بالخجـل. انتزعـتُ الصورة التـي رسمها لي مـن الدفتر ووضعتها في حقيبتي. وضع يده ثانية على بطنه فلم أرَ الساعة، فسألته: «أيـن ساعتـك؟». أجابني بـلا مبالاة: «لقـد أعجبت أحـد الأصدقاء فأخذها ليلقي عليها نظرة، فقلت له إنّها لك».

أزعجني ذلك وقلت: «علي، إنّها هدية عقد قراننا، إنّها مباركة من مكة، مسكين والدي لقـد اشتراها لصهره بشوق وحماسة، إنّها ساعة أصلية ماركة Rado».

هـزّ رأسه وأجاب: «سيأتي يوم نذهب نحـن وتبقى هذه الساعات، فلتكن هذه الساعات فداءً لجذب القلوب».

1- كان الشهيـد يناديهـا (كُلُـم)؛ أي عزيزتـي باللهجـة الهمدانيـة، ولكن أهـل طهران يلفظونها (كُلَم) بفتح اللام. (المترجم)

لم أتفوّه بشيء، لكنّ قلبي احترق من أجل الساعة.

عندما حلّ المساء، أردت البقاء معه «كمرافق للمريض»، لكنّ الحاج صادق قال: «أنا سأبقى عنده».

كان علـي أيضًـا يرغـب في أن أبقـى معه، لكـن أسقط مـن يدينا نحـن الاثنين، فذهبنا ليـلًا إلى منزل الجدّ والجـدّة الواقع في تقاطع كوكاكـولا. كانت اللّيلة الأولى التـي أقضيها في طهران. اضطرب قلبي مـن أجل علي كثيرًا. رغم نجاح العملية التـي أجريت له إلّا أنّ جرحه كان حسّاسًـا، حيث قال الأطبّاء إنّه بحاجـة إلى راحة كاملة وخاصّة، اضطربـت لذلك، وفكّرت ماذا لو قام ومشى وحلّت به بلية، كنت أعلم أنّ علـي لا يفكر في نفسه، ولا يولي أيّ اهتمـام لصحته. في تلك اللّيلة دعوت اللّه حتّى الصباح، وطلبت منه أن يعيد لعلي عافيته.

صـادف أن كانت تلك الأيّام يومـي تاسوعاء وعاشوراء، أذكر أنّني كنـت أقف جانب الطريق وأنظر إلى حلقات اللطم، كنت أخفي وجهي بالعبـاءة وأجهش بالبكاء، وعندما أشعر بالارتيـاح أرفعها عن وجهي وأطلـب مـن كلّ الواقفات حـولي الدعاء من أجل شفـاء زوجي. بقيت أسبوعًـا كاملًا في منزل الجدّة، كان الخـال محمد قد أتى من السفر حديثًـا من دون زوجتة وأطفاله، وأخبرنا أنّه جاء ولن يعود إلى السفر ثانية.

كنـت أمضـي أغلب فـترات الصباح مع مـريم[1]، وبعـد الظهر كنّا نذهـب إلى المستشفى لعيـادة علي، هناك لم أكـن أتزحزح من قربه، كنت أعتصر ألمًا؛ لأنّني لا أستطيع البقاء قربه ليلًا.

عدنـا إلى همدان بعد أسبوع وذلك بعد إصرار الحاج صادق، رغم

1- كانت مريم تسكن في نفس الزقاق في الطابق الثاني من منزل أم زوجها.

أنّنــي كنت أرغـب في البقاء عند علي، كذلك هـو كان يرغب في بقائي معه، وهمس مرّات عدّة في أذني: «فرشته ابقي هنا»، لكن كلانا تهيّب قول ذلك للحاج صادق.

في 19 أيلول رجعنا إلى همدان. بقيت طوال الطريق من طهران حتّى همـدان صامتة مكفهرة الوجه لم أكلّم أحـدًا ولم آكل شيئًا. أحسست أن قطعــة من بدني بقيت في طهـران؛ إذ إنّ القلق والاضطراب وضيق الصدر وغمّ الفراق كادت تكتم أنفاسي.

لا أدري لماذا صرت هكـذا فجأة. لم أتحمّل الابتعاد عنه. أصابتني حــال عجيبة، وانزعجت من نفسي ورحت أدعـو عليها بالويل والثبور، وكأنّ أحدًا قد وضع يده حول عنقي وضغط عليه. فعلت أيّ شيء لأهدأ لكنّني لم أستطع، كنــت كالطائر الذي نتف ريشه، أفرفر حول نفسي، لمَ تركت علي وحيدًا؟ فقط لو أنّني تجرأت قليلًا لكنت الآن قربه.

عندمــا وصلنا إلى همدان ســاءت أحوالي أكثر. كنــت أوبّخ نفسي مئــة ألــف مرّة كلّ يــوم، لماذا عدت؟ لمــاذا لم أبقَ قــرب زوجي؟ أليس علــيٍ زوجي؟ من هــو أقرب إليه منّي؟ لمــاذا لم أصرّ كــي أبقى؟ شيئًا فشيئــا أسقمتني هذه الأفكار، فنحلت وتحول الخوف إلى خفقان قلب، طرحت سجــادة صلاتي شطر القبلة طوال اليوم ورحت ألهج بالدعاء والذكر والصلاة.

في الأول مــن تشرين الأول علمنــا أنّ أصدقاء علي قد أحضروه من طهران. كنت في منــزل والدتي فحملت حقيبتي وأسرعت إلى منزلنا. أحضــره الأصدقــاء، فرشــوا لــه السرير وأرقـدوه. كان تحــت إبطيه عــكّازان، عندما رأيــت العكازين دارت بي الدنيا، مــاذا لو لم يستطع الســير علــى قدميه مطلقًــا؟! عندما دخلــت الغرفة ودّعنــا أصدقاؤه وذهبــوا. كان أول عمــل قمت به عندما أغلقت البــاب أن رفعت طرف

الغطـاء عن قدميه فتنفسـت الصعداء، لا أدري لمـاذا كنت قلقة على قدميه، الحمد لله كانت كلتاهما في مكانهما.

في ذلـك اليوم أتـى كلّ من السيّدة منصـورة، السيّد ناصر، أمير، الحاج صادق، السيّدة منيرة، وليلى، وبقوا عندنا طوال المدّة التي بقي فيها علي في البيت. بدأ توافد الضيوف من اليوم التالي، فجاء مسؤول الحرس والمديرون والموظفون، وإمام الجمعة، وقائد الجيش، جميعهم للاطمئنان إليه.

كانـت السيّـدة منيرة أستاذة في مادة التربيـة، ولأنّنا كنّا في بداية العام الدراسي كانـت تذهب كلّ يوم إلى المدرسة. كذلك السيّد ناصر كان يذهـب إلى محله، وهو عبارة عن مغسل سيارات يقع في أول جادة ملايـر أسفل حديقـة «بهشت»، فكنا أنا، السيّـدة منصورة، ليلى ابنة السيّدة منيرة، وعلي الممدد على السرير، نبقى وحدنا، وبالتأكيد أمير الذي أخذ إجازة من عمله في جهاد البناء.

كان أمير كلّ يوم صباحًا يتسلّم لائحتنا الطويلة ويذهب إلى السوق مـن أجل شـراء الأغراض. وأنـا أصبحت ممرّضة علـي الخاصّة، أنا أردت ذلـك. كنتُ أعطيه العصـير والفاكهة المعلّبة عند رأس الساعة. عنـد الظهـر كنتُ أجلس قربه وأجبره علـى تناول الدجاج بـالأرز أو اللحـم المشـوي. وإذا لم يكن لديه رغبة في تنـاول الطعام أو لم يأكله، كنـت أرجع الطعام إلى المطبـخ، ثمّ أعود وأحضره لـه 10 مرّات حتّى أظفر في النهاية، وأعيد الأطباق خالية.

كانـت أيّـام استراحة علـي أيّامًا صعبـة وحلـوة في آن. وفي أغلب الأوقات كان السيّد أمير يبقى في البيت حتّى إذا ما جاءنا ضيوف بغتة استقبلهم.

كنــت أركض إلى هنا وهناك منذ الصباح الباكر، منذ أن أستيقظ لأصلّــي صلاة الصبح وحتّى آخر اللّيل. أحيانًا كانت أوقات استراحتي هــي عندما أحضر الطعام لعلي أو عندمــا أعطيه الدواء. أمّا في اللّيل فكنت أمدّ فراشي أسفل قدميه حتّى إذا ما تحرّك أقفز من نومي. كنت أعشــق مداواته وأستمتع بذلك، تحسّنت حالــه شيئًا فشيئًا، فاستطاع مستعينًا بالعكازين أن يسير في المنزل.

مــرّت تلك الأيّــام بسرعة الريح والــبرق، كانت أيّامًا طيبــة، أيّامًا بقيت أنا وعلي قرب بعضنا البعض، وتحدّثنا فيها بمقدار سنوات.

في 17 تشريــن أول 1986تــرك علــي أحــد العكّازين، وارتــدى بزّة الحرس، واتجه ناحية الدرج بعكّاز واحد.

مهما أصررنا عليه أنا والسيّدة منصورة كي لا يذهب، لم نفلح. ولسوء حظنا لم يكن أمير في البيت ليساعده. ذهب بنفسه إلى الحرس، وعاد بعد ساعــات عدّة ليأخذ حقيبته، رغم إلحاحنــا أنا والسيّدة منصورة على نهيه عن ذلك -لأنّ مدة استراحته لما تنته بعد- لم يصغِ إلينا أبدًا.

في ذلــك اليــوم، ذهــب إلى الجبهة بعــكّاز واحد، وبذهابــه ودّعنا الباقــون واحــدًا تلو الآخر وغــادروا. فالبيت الــذي كان في هذه الأيّام مختلــف العديد من الناس، وتملأه الجلبة والضجيج، فجأة تحوّل إلى بيــت خــاوٍ وحزين. كان الجميع يشعر أنّ المنــزل من دون علي لا يطاق لحظة واحدة. جمعت فراشه ودثاره وأنا أبكي، قبّلت عكازه ووضعته في الخزانة، أغلقت حقيبة اليد وأقفلت الباب وانطلقت إلى منزل أمي.

في 2 كانــون الثــاني (1987)، عــاد علي فرحًا جدًّا، حيــث إنّني لم أشاهده من ذي قبل وهو على تلك الحال من الفرح والسرور.

قال لي: «قرّرنا مع الإخوة في الحرس أن نذهب للقاء الإمام الخميني».

نظرنـا إليه بحسرة وزفرة، ورجتـه أمّي قائلة: «سيّد علي، أيمكنك فعل شيء من أجل أن نأتي نحن أيضًا؟

لقد كانت هذه رغبتنا جميعًا، رغم أنّنا كنّا نعلم أنّها رغبة مستحيلة التحقّق.

ذهـب للقاء الإمـام يوم الثلاثاء، وعـاد يوم الخميسـ في الأسبوع ذاته، عـاد مشحونًا بمعنويات عالية. واستقبلـه الأهل بالعناق الحارّ. بمجـيء علي وأحاديثه الجميلة حلّ في منزلنا جوٌّ آخر، كنّا نحن نسأل وهو يجيب.

بعـد العشاء، ناولتني أمّي حقيبة اليـد الجاهزة دومًا، واتجهنا نحو منزلنا، كان الزقاق مظلمًا والأرض بدت كألواح زجاج من شدّة هطول الثلـج، وفي اللّيل، عندما يشتّـد البرد يتجلّد الثلج الذي ذاب في النهار، ويصبح السير على هذا الجليد صعبًا جدًّا. كنت أرفع قدمي على حذر، وأسـير بخوف على مهـل، كانت أسناني تصطـكّ ببعضها البعض من شدّة البرد. انزلقت قدماي مرّات عدّة على الجليد، كنت أمسك بساعد علي عندما أشعر أنّني سأهوي أرضًا. وفي ظل هذا الوضع القاهر قلقت بشأن «قانون همدان»؛ لذا كنت أترك ساعده ما إن يزول الخطر.

عندمـا وصلنـا إلى البيت، وبسبب فرحه وسـروره وحماسته جراء لقائه الإمام قال لي: «فرشته، لا أدري لماذا أنّني ما زلت أشعر بالجوع، اطهي شيئًا لنأكله».

كنـا قد أقفلنا بـاب المنزل وغادرنـاه مدة شهريـن. دخلت المطبخ فتبعنـي، ورحت أفتح خزائنه وأغلقها لعلّي أجد شيئًا أعدّ منه طعامًا. فتّشـت في الـبراد ووقفت قرب الجلاية. اتكأ علـي على خزانة المطبخ ووضع يده عليها من الخلف ناظرًا إليّ.

قــال بحماســة وشوق: «فرشتــه، عندما ذهبنــا إلى اللقاء الخاصّ بالإمام تقدّم أحد الإخوة وقبّل يد الإمام، وبينما هو يقبل يده حاول نزع خــاتم الإمام من يده للتبرّك، سحبــه إلى أن وصل إلى نصف إصبعه، لكنّــه لم يفلــح. عندما جاء دوري، أعدت الخــاتم إلى إصبع الإمام ثمّ قبّلت يده، تبسّم الإمام وهزّ رأسه مؤيّدًا فعلي».

بعد ذلك حدّثني عن قطعة قماش بيضاء اللون كان قد أخذها معه ومسح عليها الإمام بيده مباركًا إياها.

في اللّيلة التاليــة كنّا في منزل الحاج صادق، كذلك أمير والباقون، قسّمنا قطعة القماش إلى قطع صغيرة (150 قطعة تقريبًا).

كان مــع علي سبحــة من تربة حسينية، لا أدري مــن أين أحضرها، كانت رائحتها طيبة جدًّا. قطعنا خيطها بالمقصّ، ووضعنا في كلّ قطعة قماش حبة من السبحة قدر المستطاع، وثنينا القطع الصغيرة كالصرر، ووضعناها داخل كيس من النايلون. أراد علي بذلك أخذها إلى عناصره بعنــوان هدية لقاء الإمام، لكن أعطــاني أنا والسيّدة منصورة حصتنا قبل الجميع، قطعة قماش مباركة، وحبتين من السبحة الكربلائية.

كانت تلك اللّيلة هي اللّيلة الأخيرة لعلي في همدان، تأهّب في صباح اليوم التالي للذهاب إلى الجبهة، أغلقت حقيبته، وكلّما تفطّنت لشيء ما كنت أفتح الحقيبة من جديد وأدخل هذا الشيء.

كان يتبعنــي أينمــا اتجهــت، أخيرًا قــال: «فرشته، اهدئــي قليلًا، اجلسي، أريدك في أمر».

نظرت إليه بتعجّب، أمسك يدي وجلسنا وسط الغرفة مقابل بعضنا البعض.

قال: «أريد أن أسألك شيئًا، أتقولين الحقيقة؟».

خفق قلبي بسرعــة، ولم أستطع أن أحدس بما يريد قوله لي. قلت: «نعم. قل ماذا هناك!».

عضّ على شفتيه وقــال: «بالتأكيـد أصبح معلومًا لديـكِ كم أنّني إنسان كتوم».

ضحكت وقلت: «نعم، كثيرًا».

ثم ضحك هو وقال:

- لكن، هذه المرة سأحكي من صميم قلبي.

لم أدر مــاذا يقصـد، نظـرت إلى عينيه الزرقاويـن بتعجّب فقال: «غدًا سأذهب، لكن الذهاب من دونك صعب عليّ، لا أدري لماذا صرت هكذا!».

كاد قلبي ينخلع من مكانه، أطلقت أنفاسي الحبيسة، أحقًّا هذا هو علــي الذي يتفـوّه بهذا الكلام؟! علي الذي كان بالــكاد يبرز مشاعره، ترى ماذا أصابه الآن!

قال: «أتأتين معي إلى دزفول؟».

في تلك الأيّام كانت دزفول تتعرّض لأشد أنواع القصف والصواريخ، فرحت لسماعي هذه الجملة، أمسكت يده وقلت: «يا إلهي لقد أخفتني! كنت أفكّر ماذا تريد أن تقول! نعم، ولماذا لا آتي معك».

سألنــي مبتسمًــا وقلقًا في آن: «مــاذا عن السيّـدة وجيهة ووالدك، أيأذنان بذلك؟».

تنفّست الصعداء ثانية، وقلت:

- عــذرًا! بمــا أنّنــي زوجتــك أنت، فــإذن ذهابــي بيــدك، فهذان المسكينان لا يقولان شيئًا.

قال والقلق ذاته يعتريه: «ولكنّ الخطر هناك كبير».

فرحت لطلبه كثيرًا إلى حدّ أنّني شرعت في جمع أغراضي من دون الالتفات إلى الخطر المحدق بدزفول، فقلت: «أليس الخطر عليكم أيضًا؟!».

أجابني: «ثمّة فرق بيننا وبينكم، فرشته فكّري جيّدًا».

فتحت باب الخزانة لأتناول منها ألبسةً لي فسألته: «كيف الطقس هناك؟».

قال: «ربيعيّ كالجنة».

استدرت ولمزته بطرف عيني قائلة: «أيها الشرّير! أتريد الذهاب إلى الجنة وحدك؟».

لم يردف شيئًا. نهض وجمعنا أغراضنا الضروريّة ليلًا، كانت أغراضنا عبارة عن طنجرة وملاعق وعدة أكواب وصحون نزهات وشنطة ألبسة وصور علي وعدة أغطية. كذلك جمعنا أغراضنا الأخرى ووضعناها في كرتونة لنودعها في منزل أمي. استغرق الوقت لإنجاز هذه الأعمال حتّى الصباح، فجأة قرّر علي إخلاء البيت وتسليمه إلى صاحبه، فقال: «نحن لسنا هنا، وقد يحتاج أحد غيرنا إلى البقاء فيه مدّة من الزمن».

عملنا معًا على توضيب الأغراض، وأبلغني أنّهم قد أعطوه وصديقه هادي فضلي منزلًا في إحدى قرى نواحي دزفول، حيث إنّ هادي فضلي قد سبقه إلى هناك برفقة زوجته وطفلتهما الصغيرة بعد أن نقل أثاثه إلى هناك.

وضّبنا الكراتين بعضها فوق بعض، لم يتبقَّ لحلول الصباح إلّا وقت قصير، وجدنا مكانًا نبيت فيه بين الأغراض، ونمنا مدّة ساعة

أو ساعتين. عند الصباح أخذنا الأغراض ووضعناها داخل المخزن في فناء الدار عند أمي.

حـدّث علي والدي بموضوع ذهابنا، لم يعقّب والدي بشيء، واكتفت أمّي بالتأكيد علينا كي ننتبه لأنفسنا: «انتبهوا لأنفسكم، عندما تصلون إلى هناك اتصلوا بنا، لا تتركونا بلا أنباء عنكم».

وضع علي الأغراض التي قرّرنا أخذها معنا إلى دزفول في صندوق السيّارة التي كانت بحوزته.

لم تكن السيّـدة منصورة في همدان؛ إذ إنّ ابنتها مريم قد وضعت وليدتهـا الأولى «مونا» منذ أيّام عدّة فذهبـت إلى طهران لمساعدتها. بعد توديع العائلة في همدان، ركبنا السيّارة وانطلقنا ناحية دزفول.

خلال الطريق من منطقة «معمولان» وصولاً إلى «دزفول» وضع علي شريط أناشيد ثورية في آلة التسجيل، أحبّ علي نشيدًا من بينها كثيرًا فصار يعيد الشريط لسماع النشيد ذاته.

- هو اللّيل ووجه الوطن يكسوه السواد
- حرام علينا الرقاد في الظلام
- هات بندقيتي لأبحث عن الدرب
- فكل عاشق قد سلك الطريق
- هذا أخي ألهبه الجوى والهيام
- صدره حقل من ورود الأقحوان
- هو اللّيل والبحر المهيب هو الطوفان
- ويشغل بالي إخوة التراب
- آتني بكفني وخنجري

- فها هي القلوب الوالهة تقطر دمًا
- ها هو أخي اليافع؛ غارق في دمائه
- جمال شعره كالبركان
- يا من تدرك وجع العاشقين
- أنت ترافقنا في هذه الدروب
- انظر إلى دماء هؤلاء الأطياب قد نُقشتْ على الجدران
- اصدح بصوتك وكن سفيرًا للصبح المضيء
- أخي لا يقرّ له قرار؛ أخي اليافع المغوار

عندما وصلنا، ظلّ علي يدندن هذا البيت: «ها هو أخي اليافع، غارق في دمائه، جمال شعره كالبركان». كان علي محقًّا؛ إذ إنّ دزفول في ذلك الوقت من السنة تشبه الجنّة، أمر لا يصدّق، لقد غادرنا همدان صباحًا والثلج يملأ جوانب الأزقة، حتّى إنّ الجدران الثلجية كانت أحيانًا ترتفع أعلى من جدران بيوت الآجر أو الباطون. بدت قناديل الثلج معلّقة في مزاريب الأسطح، والطقس بارد جدًّا، حيث إنّه لا يمكن لأحد الخروج من المنزل من دون معطف وقبعة وقفازات.

والآن، فجأة خرجنا من مدينة ثلجية إلى جنّة. كان الجوّ بهيجًا وربيعيًّا، وأشجار البرتقال والليمون نضرة كثيفة الأغصان. وأوراقها الخضراء والبراقة تسرّ الناظرين. وعطر الورود يملأ فضاءات المدينة، ورائحة أوراق أشجار الكينا تسكر الناس.

ولأنّ الطقس كان لطيفًا، خلعنا الألبسة الشتوية منذ أن عبرنا «خرم آباد». كنّا على عكس أهل همدان الذين احدودبت ظهورهم من الصقيع وانكفأوا في منازلهم. كان أهل دزفول فرحين مسرورين يجولون في المدينة بكنزات وقمصان قصيرة الأكمام، ظننت أنّ دزفول

خاليــة من الســكان، ولكــن لم تكن الحال هكــذا، فقد دبّــت الحيوية والحياة في المدينة.

كان الأولاد يلعبــون في الشــوارع، وتحلّقــت النســوة أمــام المنــازل يتجاذبــن أطــراف الحديث، وكذلــك الطرقات الساحليــة بدت مليئة بالأشجار النضرة.

عبرنــا طرقــات عــدّة، أحيانًــا كنّــا نشاهد خــلال مسيرنــا بعض البيــوت المدمّرة والأعمدة المعوجّة، وهــي علامات على القصف ورمي الصواريــخ، وشاهدنــا النوافذ المحطّمة والإسفلــت المقتلع من الأرض بسبب القصف، والطرقــات المليئة بالحفر، أمّا شجيرات النخيل فقد روت بنفسها حكاية الحرب المريرة.

دخلنــا حــي الـ 500مبنــى، عبرنا شوارع عــدّة، فوجدنــا أنّ أزقتها مقارنــة مع طرقات المدينة خاليــة نسبيًا، كانت ترابيــة قاحلة. دخلنا الزقاق وعلي ما زال يدندن بكلمات النشيد: «ها هو أخي اليافع؛ غارق في دمائــه؛ جمال شعره كالبركان». ثمّ توقّف أمام أحد المنازل منشدًا: «هــا هو أخي اليافع؛ غــارق في دمائه؛ جمال شعره كالبركان». هذا هو منزلك؛ تفضّلي يا وردتي، أهلاً وسهلاً بكِ».

7

ليتنا لم نذهب مع السيّد سعيد

عندمـا دخلنا المنزل، بدا في حالٍ مزريـة والغبار يعلو كلّ شيء. لم يكـن السيّد هادي فضلي وزوجته فاطمة قد استقرّا بعد في هذا المنزل الجديد، فانشغلا بترتيب الأغراض المكوّمة في الممرّ. وأوّل شيء خطر على بالي منذ اللحظة الأولى أنّ المنزل بحاجة إلى حملة تنظيف عامة.

في صباح اليوم التالي غادر السيّد علي والسيّد هادي، ثمّ حصلت تلك الحادثة، وحصل ذاك الخطأ الذي ارتكبته، والذي نتج عن قلّة خبرتي وحذاقتي في الحياة. ما زال الشعور بالندم إزاءه يلازمني حتّى اليوم.

بعـد وصولنا دزفول بيومين أو ثلاثة، قُـرع باب المنزل عند الساعة العاشـرة صباحًا. ظننّا في البداية أنّه الشخص الذي أخبرنا علي عنه بأنّه سيأتي لتفقّدنا.

تأزّرت بعباءتي، ووقفت خلف الباب سائلة إيّاه: «من الطارق؟».

كان صوتًا غير مألوف وأجابني: «أنا سعيد صداقتي، معاون علي».

وأكمل السيّد سعيد قائلًا: «أتيت لأرى إن كان لديكم مشكلة».

أجبـت: «لقد غادر السيّد علي والسيّد هادي صباح يوم السبت إلى الجبهة، وأخبرانا أنّهما لن يعودا عمّا قريب».

تعجّب وقـال: «أنا ذاهب إلى الأهواز، زوجتـي هناك، ومعها عائلة الحاج حسـين همداني والسيّد بشـيري وعدد آخر مـن الأُسَر، تعالوا واذهبوا معنا».

– ولكنّ السيّد علي لا علم لديه بذلك، قد يعود اللّيلة ويقلق علينا.

– سأبقيكـم في الأهـواز، وأذهب إلى السيّد علـي وأخبره بنفسي، فقط أسرعوا قليلًا، فبقاؤكم هنا غير محمود.

ولسـوء حظنا صارت الوضعيـة حمراء في تلـك اللحظة، وارتفعت أصوات المضادات الجوية فقـال السيّد سعيد قلقًا: «أسرعوا أسرعوا، سأذهب إلى السيّارة!».

بقيـت متحيرة لا أدري ماذا أصنع. أخـبرت فاطمة بالأمر فقالت: «فرشتـه، من الأفضل أن نذهب، في الحقيقـة عندما تصبح الوضعية حمـراء ليلًا أشعر بالخوف، نذهب إلى الأهـواز، وعندما يريد السيّد علي والسيّد هادي العودة نعود معهما».

عندمـا سمعت وجهة نظر فاطمة انشغلـت في جمع أمتعتنا، لكنّني بقيت أشعر بإحساس سيّئ، وكأنّ هاتفًا في داخلي كان يقول باستمرار: «لا تذهبي».

في كلّ مـرّة أتذكّـر تلك الحادثة أقول في نفسـي ليتني لم أذهب مع السيّـد سعيـد إلى الأهواز، ليتنا لم نكن في المنـزل، ولم نفتح له الباب، فبالتأكيد لجرت الأمور على نحو آخر؛ لكنّي للأسف فتحت الباب. حتّى في ذلـك الوقـت، كنت أفكّر في معارضـة السيّد سعيـد، لكنّني لا أعلم لماذا لم أقاوم، أساسًا لا أعلم لماذا ذهبت مع السيّد سعيد رغم مخالفة هـواي لذلك. ركبنا سيّارة السيّد سعيد، وانطلق مسرعًا ناحية الأهواز فيما اجتاحني اضطراب شديد، ورحت أهمس لفاطمة بهواجسي. انتبه

السيّـد سعيد لاضطرابي فقال: «لمَ أنت قلقة إلى هذا الحد؟ لا تقلقي، لقد أخبرتك أنّني سألتقي اليوم بالسيّد علي وأخبره بالأمر».

أخيرًا، وصلنا إلى الأهواز. عبرنا جسر كارون وخلّفنا وراءنا شوارع عدّة مزدحمة ومستشفى كبيرًا. توقّفنا أمام فيلّا جميلة، ضغط السيّد سعيـد مرّات عدّة علـى بوق السيارة قائـلًا: «إذا اجتمعت النسوة معًا سيرتاح بالنا أكثر».

بعد قليـل، فتحت الباب سيّدة متجلببة بعباءة بيضاء معرّقة بورود بيضاء، أدركتُ أنّها حاملٌ رغم ارتدائها العباءة، وبعد قليل عرفنا أنّها زوجة السيّـد سعيد. رحّبت بنا ودخلنا الفنــاء. كان المنزل على عكس منزلنــا؛ كبيرًا وواسعًا وأنيقًا، تملأ الأشجار والحدائق المزهرة فناءه، وعُلّقـت في وسطه أرجوحة أطفال بيضاء اللون، وبسرعة تصاحبنا مع زوجة السيّد سعيد التي صادف أن كان اسمها أيضًا فاطمة.

قلت لها إنّني أخشى أنْ ينسى السيّد سعيد إبلاغ السيّد علي والسيّد هادي بوجودنا هنا. فأجابتنــي: «سعيد! سعيد ينسى؟ مستحيل! حتمًا سيبلّغهما».

ارتاح بالي قليلًا عند سماعي كلامها. كانت الغرف في المنزل كبيرة وكثيرة، ونصيب كلّ عائلة غرفة واحدة. باستثناء المطبخ ودورات المياه فقد اشترك الجميع في استخدامها.

بعـد قليل، جـاءت زوجة الحـاج همـداني لاستقبالنــا ورحّبت بنا أيضًــا، كان إلى جانبها أطفالها، وهــب ومهدي وزهراء. في تلك اللّيلة نمنــا في غرفـة السيّد سعيد؛ لأنّه لم يــأتِ إلى المنزل. بقيتُ مستيقظة حتّـى الصباح أتقلّب علـى السرير بسبب القلـق والاضطراب. عندما نهضت لصلاة الصبـح سيطر عليّ القلق أكثر. وما إن جلسنا صباحًا

حول مائدة الفطور حتّى قُرع جرس المنزل فنهضنا جميعًا.

ذهبت إحدى السيدات لتفتح الباب، عادت وقالت: «سيّدة فرشته، السيّد تشيت سازيان يريدك على الباب».

نظـرتُ إلى فاطمـة، عضضتُ على شفتي وهـززت برأسي، تأزّرت بالعبـاءة بسرعـة وهرعـت نحو البـاب. كذلك فاطمـة لم تطق ذرعًا فلحقت بي.

وقـف علي خلف الباب، وقد بدا نظيفًا وأنيقًـا كأنّه قد أخذ حمامًا أيضًـا. أمّا هادي فبـدا غاضبًا وما إن رأى فاطمة حتّـى نهرها: «أين أنتم إذًا؟!».

لم يقل علي شيئًا، ووقف ينظر إليّ بصمت.

سلّمـتُ عليـه بهـدوء وأمسكـت يـده قائلـة: «ادخـل، هـل تناولت الفطور؟».

لم يجبنـي، انقطـع نفسـي لتصرفاتهمـا، فأدركـت أنّ كلّ ذاك الاضطـراب والخوف لم يكونا جزافًا. سألت بارتباك وخجل: «ألم يقل لكما السيّد سعيد شيئًا؟ لقد قال إنّه سيخبركما بنفسه حتمًا!».

نظر علي إلى السيّد هادي بتعجّب: «من! أيّ سعيد؟».

– سعيد صداقتي.

– كلّا، لم نره منذ البارحة.

– لكن كيف علمتما أنّنا هنا؟

أجابني بتذمّر: «لقد رآكم أحد الجيران وأنتما تركبان سيّارة سعيد صداقتي، فقدّرنا أنّه ربما أتى بكما إلى هنا».

وبدلًا من أن يمتعض علـي منّي، انزعجتُ أنا؛ لكنّني سيطرت على

نفسـي كي لا أبكي. أتـت السيّدة فاطمة زوجة السيّـد سعيد صداقتي أيضًا ودعت الرجلان إلى الدخول. ذهب السيّد هادي وفاطمة وزينب إلى غرفة، وذهبت أنا وعلي إلى غرفة أخرى.

كان في المنزل الكثـير من الغرف الخالية. استأتُ من نفسي فكيف لم أصـغِ إلى حديث قلبي. فأنا أعلـم أنّ قلبي لا يخدعني، فقد جرّبت هـذا مـِرارًا، لا أذكر إن بكيـت أم لا، لكنّـني أذكر أنّـي استأت كثيرًا، فقلـت لعلـي: «أقسم بـالله، علي حبيبـي لم يكن خطأنا، لقـد أخبرنا السيّـد سعيد أنّه سيراكما بالتأكيـد، وسيخبركما بوجودنا هنا، أقسم لك إنّني لو كنت أعلم أنّه لن يراك، لتكسر قدمي ولا آتي معه».

بعد ذلـك رحت أرجوه قائلة: «علي، بالله عليك، المعذرة، لا تنزعج مني، أعتذر منك».

تبسّم علي وقال: «يعني أنا منزعج الآن؟!».

لما رأيته يضحك بهدوء عادت لي روحي من جديد. نهضت وذهبت بكلّ سرور لأحضّر له فطورًا. كان خبز الـ «لواش» الأهوازي أسمك من الـ «لواش» الهمـداني، وعندما يكون طازجًا وساخنًا يكون لذيذًا جدًّا. صرت كفراشة أطير بخفّة وسعادة، وأحضر له الشاي والخبز والمربى. رغـم أنّه تناول الفطـور بصمت، لكنّـني كنت أعلم أنّـه في عمق قلبه منزعـج مني. خلال هـذه الأشهر المعدودة اكتشفـت أخلاقه، فعندما ينزعج أو يغضب من شيءٍ يعزف عن الكلام.

عندما أنهى تناول الفطور نهض وقال: «نحن ذاهبان، لدينا أعمال كثيرة، ابقي هنا الآن».

لم أعقّـب من خوفي، وفرحتُ لأنّ الموضوع قد ختم على هذا النحو، ذهبت إلى الممر وقلت بصوت عالٍ: «أيتها السيدات لا تخرجن فالرجال

سيخرجون».

بعـد ذهابهما، هرعت إلى غرفة فاطمــة، وجدتها مكفهرة الوجه. عندما رأتني سألتني: «ماذا حصل؟ هل شاجرك السيّد علي أيضًا؟!».

- كلّا.

- وهل قال لك السيّد هادي شيئًا؟

تململـت وتأوّهـت قائلة: «لقد كان هادي غاضبًـا جدًّا، لكن، الحق معـه. يا لحظّنا العاثر.. فمن بين كلّ هذه الليـالي، ذهبا ليلة البارحة إلى البيت!».

حبســت أنفاسي من التعجّب وقلت: «أأنت جادّة فيما تقولين؟ ذهبا ليلة الأمس إلى المنزل؟!».

حلّ دور فاطمة لتتعجّـب، سألتني وهي تهمّ بالوقوف: «ألم يخبرك السيّد علي بذلك؟».

أومأت لها بالنفي، وبدأت فاطمة بشرح القصة:

- مـن حظنا العاثر، ذهبا ليلة البارحـة إلى المنزل، عندما شاهدا أنّ الأضــواء مطفـأة ولا أثر لنا خاف المسكينان كثـيرًا، حتّى إنّهما لم يتجـرّآ على الدخول إلى الغرفة، قال هادي إنّه دفع السيّد علي ليتقدّم إلى الأمـام والسيّد علـي دفعه ليقوم هو بذلـك؛ إذ إنّهما خافا من أن تكـون نائبة ما قد أصابتنـا. كذلك كانت «وصلـة الكهرباء» (الفيوز) مفصولـة، بعد معاناة شديدة عملا على توصيلها ودخلا المنزل. فرحا مـن ناحية؛ إذ إنّه لا حادثـة وقعتْ كما ظنّا في بادئ الأمر، ومن ناحية أخـرى احتارا؛ إذ أين نحن؟ وطار النوم من أعينهما جراء التفكير في هذا الموضوع. أخيرًا قال علي: «فرشته لديها أقارب هنا، لعلّهما ذهبتا إلى هنــاك». هكذا ارتاح بالهما قليلًا. ولأنّهما لم يستطيعا النوم انكبّا

علـى العمل في المنزل، فنفضـا كلّ الموكيت وفرشاه، قـال هادي إنّهما فرشا كلّ الأدثرة في غرفة الاستقبال بشكل مرتب.

عندمـا وصلت فاطمة إلى هنا طرفت بعينها وقالت: «والأفضل من ذلك أنّهما قاما بتنظيف كلّ النوافذ. ألم تري كم كانا مرتبين وأنيقين. بعد أن اتسخا جراء التنظيف استحمّا عند الصباح».

حدّثتنـي فاطمة بكلّ هذه التفاصيل بتأثّـر وانفعال، ورحت أنا منذ تلـك اللحظة وما بعدها أفكّر كيف أنّ علي لم يخبرني بشيء من هذا، وكيـف استطاع إخفـاء انزعاجه. أدّى هذا الأمـر إلى أن أكتشف علي أكـثر. عندها فهمت أنّه يختلف عن الآخريـن، على الأقلّ يختلف عنّي كثيرًا، وعن الأشخاص الذين التقيتهم حتّى ذلك اليوم. لقد كانت تلك الحادثة بمنزلة صفعة شديدة لي.

في الأيّـام العشـرة أو الأحد عشر التي أمضيناهـا في ذلك المنزل، أتى علي والسيّد هادي لرؤيتنا مرّات عدّة، وبعد ذلك لم نعد نراهما.

عندما كنّا في الأهواز، ذهبنا مع فاطمة زوجة السيّد سعيد صداقتي مرّات عدّة إلى السـوق، واشترينا بعض الأغراض حتّى لمنزلنا الكائن في دزفول.

في أغلـب الصباحـات كنت آخـذ أولاد الحاج السيّـد همداني إلى الفناء وأركبهم على الأرجوحة. ولكن، في ذلك اليوم، وبمشيئة الله كان الأطفـال نائمين، فذهبت لوحدي إلى الفناء، وجلستُ على الأرجوحة. فجـأةً اكتسح الفضاء صـوت طائرة حربية، وراحـت تدنو أكثر فأكثر فأدركـت أنّها عراقيّة. كانت طائرة ميـغ سوداء مرعبة. مع أنّني كدت أمـوت مـن الفزع، لكن، لا أدري في تلك اللحظـة أيّ قدرة منحني الله إيّاهـا. فمـا إن رأيت صاروخين ينفصلان عن طائـرة الميغ باتجاهي، حتّـى قفزت عن الأرجوحة بسرعة فائقة واتجهت ناحية الجدار، فيما

بعـد وكلّما تذكّرت ما جرى، لم أصـدّق نفسي. وضعت يدي على أذني وفتحت فمي وبسرعـة نطقت بالشهادتين. كنت أرى كيف أنّ القذائف تتجـه صوبـي مباشـرة، وانتظـرت اللحظة التاليـة التـي تشتعل فيها النـيران وأستحيل رمادًا أو أقطّع إربًا. هزّت أصداء انفجارات متتالية كلّ شيء، ادلَهمّ المكان وغشّى الدخان والتراب كلّ شيء أمامي، ملأت رائحـة البارود والغبار عمق حلقومي، وكأنّ القذائف قد انفجرت على بعد مئات الأمتار مني.

فهمـتُ للتوّ أنّ هدف الطائـرات كان مستشفى «كلستان» الذي يقع خلف منزلنـا. عبقت في الأجواء الرائحة الكريهـة مع حرارة الطقس الخانقة. لا أدري كيف نجوت مـن تلك الشدّة. عندما هدأت الأوضاع قليـلاً، رأيت قطع حديد، وأسـلاكًا، وشظايا كبيرة وصغيرة في الفناء وأمام قدميّ، ولكن، أشكر الله أنّه لم يصبني شيء منها.

في تلـك اللّيلـة، كنت قد رأيـت في نومي أنّ علي قـد أصيب بجروح في خصـره، قفزت من فراشي ولم أستطع النوم حتّى الصباح. حينها انتابنـي شعـور سيّـئ. في الصباح أخـبرت الجميع بمنامـي، حاولت جاهـدة كي أتناول طعام الفطور، لكنّنـي لم أستطع ولم يقرّ لي قرار، كنت أدخل من المطبخ إلى الغرفة ومن الغرفة إلى الفناء.

بعد قليـل، جاء السيّد هـادي والسيّد سعيد مـن دون علي. عرفت تفسير رؤياي في تلك اللحظة، وعرفت أنّ خوفي وفزعي لم يكونا عبثًا. مهمـا فعلت لم يخبراني بالحقيقة. قـالا: «اتصلوا من المقرّ وطلبوه في جلسة، وذهب السيّد علي إلى همدان».

بعد ذلك قالا: «نحن نريد الذهاب إلى همدان وأنت تعالي معنا».

حدسـت أنّ شيئًـا ما قد حـدث؛ وأنّ كلّ هذا ما هـو إلّا خطة. رغم ذلـك قلت: «لا، لـن آتي، ففي المرة السابقة التـي أتيت فيها مع السيّد

سعيد تعلّمت درسًا لولد ولدي».

قال السيّد سعيد بانزعاج: «هذه المرة تختلف عن سابقتها، لقد تركنا السيّد علي للتو وهو بنفسه طلب منّا كي نأتي في أثرك. كان السيّد علي على عجلة من أمره؛ لذا اضطر إلى الذهاب مبكرًا مع أشخاص آخرين».

قلت: «سيّد سعيد، لقد قلت لي هذا الكلام ذاته في المرة السابقة، لقد قلتم لي إنّكم سترون علي بالتأكيد، أتذكر؟ مستحيل لن أتزحزح من مكاني».

عندما رأوا أنّ الوضع هكذا راحوا يلحّون عليّ ويقدّمون حججًا واهية، ولما رأوا أنّي لا أعير لكلامهم أيّ اهتمام، استنجدوا بخالي محمود. بعد ساعة، جاء خالي محمود برفقة محمد خادم، صديق علي، ومن جديد عملا على تكرار الكلام السابق.

– نحن نريد الذهاب إلى همدان، وطلب السيّد علي منّا أن تأتي معنا.

قلت: «أقسم عليك يا خالي، هل أصاب علي مكروه؟».

– أنا لا أكذب عليك، قلت لك إنّ ثمّة اجتماعًا طارئًا هناك، وذهب إلى همدان».

من جهة أخرى، جاءت النسوة وأصررن عليّ كي أذهب مع خالي إلى همدان، حتّى إنّهنّ رحن يساعدنني وأغلقوا لي حقيبتي. عندما رأيت ذلك، فكّرت أنّه عليّ الوصول إلى همدان بأسرع ما يمكن.

ركبت سيّارة محمد خادم «لاند روفر»، وأتى معنا خالي أيضًا، جلس هو في المقعد الأمامي وأنا في الخلف، ومحمد خادم خلف المقود.

عندما ركبنا السيّارة قلت لخالي: «فلنمر على دزفول لأحضر

ملابسي».

عندما وصلنا دزفول تذكّرت أنّني نسيت إحضار المفتاح، فاضطر خالي إلى تسلّق الجدار وفتح باب الفناء، لكن أيضًا لم يكن معي مفتاح المبنى، فصعد خالي إلى السطح وقفز من هناك إلى الباحة الخلفيّة، وبعناء شديد استطاع العثور على حقيبة ملابسي وأحضرها.

كنا على جادة «پل دختر» عندما قال لنا محمد خادم: «انظروا هناك، طائرة ميغ عراقية». كان صادقًا في قوله، فالطائرات كانت تحلّق على ارتفاع منخفض بمحاذاتنا.

قال محمد خادم: «اجلسوا بإحكام»، وداس على دواسة الوقود بكلّ ما أوتي من قوة، وعبر جادة «پل دختر» المليئة بالمنعطفات، وتقدّم إلى الأمام. عندما انتبهت الطائرة العراقية لوجودنا خفضت ارتفاعها أكثر وبدت كأنّها فوق رؤوسنا. أمسكت بإحكام بمقعد خالي من الخلف، وعند بداية كلّ منعطف كانت السيّارة تميل كثيرًا حتّى إنّني كنت أظنّ أنّها ستهوي على الطريق، أو أنّها ستنقلب أو أنّها ستصطدم بالجبل.

أصبحت طائرة الميغ على علوّ منخفض كثيرًا بنحو يمكن رؤية الطيار. وزاد من خوفي صوت طلقات رشاش الطائرة، كانت الطلقات تصيب إسفلت الجادّة، الجبل، وأطراف الطريق ثمّ ترتد نحونا. كان محمد خادم يقود السيّارة بحرفية عالية، ولحسن حظّنا لم تكن أيّ سيّارة أمامنا، فلو أنّ سيّارة ما كانت أمامنا، لاصطدمنا بها قبل أن تصيبنا الطائرات بسوء. في تلك اللحظات المهولة، دعوت الله أنّه إذا كان علي قد استشهد أنْ أستشهد أنا أيضًا هنا، وبهذه الفكرة هدأت بعض الشيء.

أفلتُّ مقعد خالي، وأسندت رأسي إلى ظهر مقعدي ورحت أقرأ الشهادتين بهمس، لكن بعد قليل، مرّت طائرة الميغ من أمامنا، وتركتنا لا مبالية، وغيّرت مسير تحليقها واختفت بسرعة خلف الجبل.

قال خالي إنّ هدفها كان محطة توليد الكهرباء.

وصلنا همدان عصرًا. كانت سحابة دخان كثيف تحجب سماء المدينة؛ والطقس بارد بخلاف طقس أهواز الربيعي، فالأشجار هناك خضراء، حتّى إنّنا زرعنا في الحديقة بعض الخضار. لكنّ طقس همدان كان باردًا كسيبيريا. والأشجار عارية ومنكمشة على بعضها البعض، تغطّيها الثلوج.

ضغط محمد خادم على مكابح السيّارة، وسأل رجلًا: «يا عم، ماذا استهدفوا؟».

قال الرجل: «لقد استهدفوا مخازن النفط، ومضخّة الوقود في درويش آباد منذ أربعة أيّام. واشتعلت حافلة صغيرة بالنيران مليئة بالركاب، وقضى جميع المسافرين فيها».

تعجّبنا كثيرًا، هذا يعني أنّ حاويات النفط اشتعلت منذ ثلاثة أو أربعة أيّام! أيّ منذ 30 دى إلى ذاك اليوم!

تابع الرجل: «لقد جرح 400 إلى 500 شخص، واستشهد 50 إلى 60 شخصًا».

ولأنّنا قدمنا من الأهواز، لم أكن أرتدي ملابس شتوية؛ لذا، صارت أسناني تصطكّ ببعضها البعض من شدّة البرد.

عندما وصلنا إلى محطة عباس آباد[1]، رحت أبحث بعينيّ في

1- شارع شريعتي أحد الشوارع الستة المتفرعة من مستديرة (الإمام الخميني – همدان) وهو يتصل بمستديرة تحمل هذا الاسم نفسه (شريعتي)، ثمّ بشارع مهدية. منذ القديم

الشوارع عن أحدٍ أعرفه. قال خالي: «فرشته، حقًّا، أتدرين ماذا حصل؟».

فجأة تجمّد قلبي كالثلوج على الطرقات، وصارت أسناني تصطكّ ببعضها البعض بقوة. أحسست أنّ الدماء قد تجمّدت في عروقي، عندما وجد خالي أنّني لم أجب قال: «السيّد علي...»، لم أدعه يكمل كلامه فقلت: «استشهد؟!».

نظر إليّ محمد خادم وقال: «كلّا يا حاجّة، أقسم لك إنّه جرح».

غضبت كثيرًا وانزعجت إلى حدّ لو أنّني طُعِنتُ حينها بسكين فلن تخرج منّي قطرة دم واحدة. صرخت أمامهما: «بلا فائدة! لا تكذبوا عليّ، لقد أخبرتكم أنّني رأيت منامًا ليلة البارحة، كنت متأكّدة من أنّ علي قد أصابه مكروه. لماذا خدعتموني؟ لمَ لمْ تقولوا لي الحقيقة في دزفول؟ توقّفا هنا أريد أن أنزل من السيّارة!».

حاول خالي تهدئتي فقال:

– انظري عزيزتي فرشته، لقد تعمّدنا ذلك كي لا تنزعجي، ولا تضطربي، ولا تراودك الأفكار السيئة، أقسم لك إنّ علي بخير، لقد جرح، وهو الآن في مستشفى شيراز.

– أريد أن أنزل من السيّارة!

انعطف محمد خادم داخل زقاق منزل والدتي، انزعج خالي كثيرًا وقال: «فرشته عزيزتي، سامحيني بالله عليك، أقسم لك إنّنا فعلنا ذلك من أجلك!».

ما إن توقّف محمد خادم أمام المنزل، حتّى أمسكت بقبضة باب

كان أهل همدان يستقلّون السيارات المتواجدة على خط متنزّه "عباس آباد" و"كنج نامه" الجميل..؛ لذلك سميت هذه المستديرة « ايستكاه» أي (مستديرة المحطة).

السيّـارة وفتحته. كانـت أمّي تنتظر خلـف باب الفنـاء، وكأنّها كانت تعلـم بمجيئنـا، بينما أنا أنزل قلـت لهما: «لقد أخطأتمـا! لقد لعبتما بمشاعري من الأهواز إلى هنا!». ثمّ أغلقت الباب بقوة.

هرعـت أمّي أمامـي فعانقتها وقبّلتهـا. وكالعادة، فـاح منها عطرٌ طيّبٌ، واحتضانها لي بثّ في السكون والراحة. وشكوت خالي إليها:

- أيظنّان أنّني فتاة صغـيرة ضعيفة، فلم يخبراني أنّ علي جريحٌ، قالـوا لي إنّ لديـه اجتماعًا، كنت أعلم ما حلّ بـه، لقد رأيت أوّل أمس منامًا*.

قبّلـت أمّـي رأسي وهدّأت من روعي وقالـت لي بحنان: «لا مشكلة، لقـد أخبرنا السيّد أمير، ليس بالأمر المهم. ما شاء الله، إن علي قويّ، وسيتحسّن بسرعة».

في تلك الإصابة مرت رصاصة طائشة من جنب خاصرته واستقرت في الحوض واستعصى أمر إخراجها حتّى على الأطبّاء.

بعـد أسبـوع، ذهب علـي لعيـادة أصدقائه الجرحـى في مستشفى طهـران وهـو على تلك الحـال. ومن هنـاك عاد إلى همـدان. جمعنا أغراضنا الضروريّة وعدنا معًا إلى دزفول.

* أنّ علي قد جُرح.

8

الستائر البنفسجية والوردية

بعـد شهر تقريبًـا عدنا إلى دزفول مجـدّدًا. عاهـدت نفسي أن لا أبرحها، وأن أبقى قرب علي.

في شبـاط من عـام 1987، كان الجوّ ربيعيًّـا. اشترى علي في اليوم الـذي عدنا فيه إلى دزفـول كيلوات عدّة من الدجاج وقـال: «فرشته، اطهـي لنا طعامًـا لذيذًا كالطعـام الذي يقـدّم ليلة العمليـات، فإنّنا سننطلق إلى الجبهة بعد الغداء».

شرعـتُ في تنظيـف الدجـاج بسرعة، غسلتـه وأضفـت إليه الملح والعقـدة الصفراء وكثيرًا مـن البصل، ثمّ وضعـت الخليط على غاز الرحـلات[1] تحت نار عالية. كان السيّـد هادي وعائلته في غرفتهم. لم تمض نصف ساعة من الوقت حتّى سمعنا صوتًا مهولًا مصدره الطابق الثاني، اهتزّ المنزل على أثره.

في البداية ظننت أنّه قصف. هرع علي والسيّد هادي حافيَي الأقدام وصعـدا الدرج، وتبعناهما أنا وفاطمة، نظرنا إلى المكان فلم نجد أثرًا لطنجـرة الضغط على الغاز، بينما ألسنـة النار تتأجّج من الغاز. كان غطـاء الطنجرة في مـكان، والطنجـرة في مكان آخـر، وتوزعت قطع

1- Picnic gaz.

الدجاج والمرق على الجدار والسقف.

أحنيت رأسي خجلًا وحياءً. ضحك علي، وراح يجمع قطع الدجاج المتناثرة عن الباب والحائط ويأكلها بفرح طفولي. وتقدّم ليحضر الطنجرة، كان كمن وجد كنزًا؛ فقال فرحًا: «الحمد لله ما زال يوجد بعض الدجاج في قعرها!». تناولنا ذلك المقدار المتبقّي بلذّة عارمة.

كانت الحياة في دزفول -وأنا ابنة منطقة همدان الباردة- تختلف كثيرًا. ففي أوّل أيّام وجودنا في دزفول، نهضت مرّة من النوم، ورحت أوضّب سريري -لم يكن الرجال في المنزل- كنّا أنا وفاطمة وزينب ننام في الغرف السفلية حيث غرفة نومنا. وبينما كنت أجمع فراشي صرخت فاطمة وأيقظت زينب بصراخها.

رأينا تحت الفراش حشرة سوداء قبيحة المنظر، لها مخلبان طويلان وثماني أقدام بشعة، وذنب منتفخ ومعوجّ كالقوس في نهاية بدنها. أمسكت فاطمة بيدي وقالت: «إنّه عقرب!»، كنت قد سمعت بالعقرب سابقًا، وعلمت أنّ لسعته قاتلة وسامّة كلسعة الحية. رجعت فاطمة خطوات عدّة إلى الوراء من شدّة خوفها فقلت لها: «لا تخافي، العقارب تملأ المكان، إنّها تعيش في المناطق الدافئة، إن لم تؤذها فلن تؤذِيكِ».

قالت فاطمة: «لنقتله!».

أجبتها بهدوء: «إن قتلتِ هذا، ماذا ستفعلين بذلك؟». وأشرت إلى حواف الأبواب.

وبجولة واحدة عثرنا على 3 أو 4 عقارب أخرى. كانت فاطمة قلقة أكثر بشأن زينب فقلت لها: «لا تخافي، الآن ستختفي بنفسها، فالحشرات تخرج من حجورها ليلًا لتأمين طعامها وعند الصباح تختفي بين ثقوب الأبواب وفي فجواتها».

انحنيــت ورفعت فراشي ووضعته في زاوية. كانت فاطمة من مدينة مريــانج[1]، وترعرعت بين أحضــان الطبيعة، لذلك ما لبثت أن تمالكت أعصابها.

أحضــرتُ مكنســة وكنســت العقارب إلى خــارج الغرفــة. ركضت العقــارب الدميمة بسرعة وأخفت نفسها مــن أمام أعيننا من دون أن ننتبــه متــى وإلى أين اتجهت. لم نكن نراها طــوال النهار، ولكن ما إن يحــلّ اللّيل حتّى تخرج واحدة تلو الأخــرى. لم أستطع النوم في الليالي الأولى، كنــت أخال دائمًــا أنّ عقربًا ما تحت غطائي أو وسادتي. ولدى سماعــي صــوت خشخشة، كنت أهبّ مــن الفراش وأضــيء الأضواء، لكنّني اعتدت بسرعة على كلّ شيء.

كل صبــاح، عند استيقاظي من النــوم، كنت أوضّب فراشي بحذر، فأجد عقارب عدّة مستقرة تحت وسادتي وفراشي. شيئًا فشيئًا صارت رؤية العقارب بالنسبة إليّ أمرًا اعتياديًّا. كنت أحضر المكنسة من دون أيّ جلبــة وأكنس العقارب. رغم ذلك، لم أستطع القضاء على الخوف عند رؤيتها.

في أحــد الأيّام، جاء علي والسيّد هــادي مسرورين وقالا إن لديهما ضيفَــين أو ثلاثــة ضيوف علــى العشاء. فكّرنــا أنا وفاطمــة وقلنا، إنّ مسألة ضيفين أو ثلاثة ليست بالشيء الصعب.

في تلــك الأيّــام، نزلتُ لأول مــرّة إلى الســوق أشــكال مختلفة من المعكرونة، اشترينا منهــا ذات الشكل اللولبي، وطهونا طنجرة كبيرة.

1- مريانــج: بلدة صغيرة هادئة بمحاذاة همــدان. أهلها المتدينون معروفون بانحيازهم للثــورة. وتقــع على سفــح جبل الونــد الجميــل، وفيها ميــاه وافــرة وجوّها منعــش. فيها محصــولات زراعية وفيــرة. وقدمت العديــد من الشهداء أيّــام الدفــاع المقدس، ولهذا تُصنّف في المرتبة الأولى بين قرى المحافظة.

خلطنا اللحم وكثيرًا من البصل مع الصلصة وسكبناها على المعكرونة، فبدا لونها جميلًا جدًّا.

عنـد حدود الساعة الثامنـة من مساء يوم الجمعـة، بدأ الضيوف بالتوافـد برفقة زوجاتهم وأطفالهم. نظرنا أنـا وفاطمة من النافذة، كانت بداية صفّهم على الدرج ونهايته في الزقاق. دخل علي مناديًا: «يا اللّه»، ما إن سلّم حتّى اعترضته قائلة: «عزيزي، لقد قلت إن الضيوف شخصان أو ثلاثة، لم تقل إنّك دعوت كلّ دزفول».

ضحك وقال: «لا تنزعجي».

– مـاذا يعنـي لا تنزعجـي! لم نطهُ سـوى طنجـرة معكرونة، تعال وانظر، هل تكفي هذه الجميع؟

أجابنـي بهـدوء: «لا تنزعجـي، لم يأتِ أحـد من أجـل العشاء، لا تزعجي نفسك، يأتي الضيف ويأتي رزقه معه».

جلسـت النسـوة في البهـو والرجال ذهبـوا إلى غرفـة الاستقبال. شعـرت أنـا وفاطمـة بالاضطـراب مـن أجل العشـاء، مهمـا أجرينا حساباتنا وجدنا أنّ طنجرة المعكرونة لا تشبع كلّ هذا الجمع.

لهـذا السبـب، استأذنا من النسـوة ودخلنا المطبـخ وقمنا بتقطيع كلّ مـا كان لدينـا من بطاطا و«فقشنا» فوقهـا 10 أو 15 بيضة وطهونا «مقلاتين» أو 3 مقالٍ كبيرة من البطاطا المهروسة مع البيض.

ثم سكبنا المعكرونة في أطباق كبيرة، بدت جميلة اللون مليئة بالدهن. كان قعـر المقلاة برتقالي اللون محمّرًا. جعلنا المعكرونة وقعر الطناجر مـن نصيب مائدة الرجال. أمّـا البطاطا المهروسة بالبيض فوضعناها على مائدة النسوة، وأضفنا إليها البندورة، كبيس الخيار، والخضار.

بعد العشاء، وبينما كنّا نجمع المائدة ارتفعت أصوات المزاح وضحك

الرجـال من غرفة الاستقبال. كان علي زعيم المشاغبين. جلست قرب الباب حيث أستطيع رؤيته من الشقّ.

رأيته يحرّك كلتا يديه ويقول: «من يليني فليتناول منّي»[1].

لقـد فـرح الجميـع في تلـك اللّيلـة، في آخـر اللّيـل وعندمـا غادر الضيوف، قال علي: «أرأيتِ؟ لم يحدث أيّ بلبلة واضطراب، أرأيت كم فرح الإخوة، لم يغادر أحد وهو جائع».

– أنـت لا تدري كم اضطربنا أنا وفاطمة، لقد أُثقلنا همًّا، ونازعنا حتّى استطعنا تهيئة المائدة.

– عافاكمـا الله، سامحانـا إن تعبتمـا وشعرتما بالغـم. الإخوة في الجبهة لا يتنزّهون ولا يجدّدون نشاطهم، فدعونا الجميع. كان القليل من المشاغبة ضروريًّا ليضحكوا ويشحنوا بالمعنويّات.

في اليـوم التـالي، فكرنـا أنّه إذا أردنـا العيش مـع الولائم في هذا المنزل، ينبغي لنا إجراء تعديلات عليه. ولأجل ذلك قصدنا السوق أنا وفاطمـة، وبقينا نسأل حتّى وجدنا محلًّا لبيـع الأقمشة. كانت المدينة نصـف مأهولة بالسكان، وأغلب المحـال مقفلة، ما خلا تلك التي تبيع اللوازم الضروريّة للناس. اشترينا من محل بيع الأقمشة قطعة قماش 10 أو 12 مـترًا للمطبخ، شطرنجيّة الشـكل، ولونها ورديّ وأبيض، كان جذابًا جدًّا. واشترينـا كذلك لغرفة الاستقبال قطعة قماش بنفسجيّة

1- تنـاول يا رفيـق: وهي لعبة تقليدية تتألف مـن ثلاثة أشخاص أو أكثـر. يبدأ الشخص الأول بتحريـك عضـو من جسده (يديه مثـلًا)، يحركهما على نحـو مضحك ويقول «خذ رفيـق» ويعطي الحركة للشخص الـذي يليه فيضيف الشخص الثاني عضوًا آخر ويحركه، فيحرك يديه وإحدى قدميه ويقول «خذ رفيق» ويعطي الحركة للشخص الذي يليه فيحرك القـدم الأخرى مضافًا إلى اليدين والقدم الأولى، وهكذا دواليك، إلى أن يصل الدور إلى آخـر شخص فيحرك تمام بدنه كالمرتعش، ويضحك لذلـك جميع أعضاء اللعبة ضحكًا مدوّيًا. (المترجم).

منقوشة بالورود، فكم رضينا وقنعنا بذلك المنزل!! كنّا متحمّستين للوصول إلى البيت، إلى درجة أنّني جلست خلف ماكينة الخياطة فور وصولنا، وشرعت في خياطة الأقمشة.

كانت زينب متعبة، بعد أن نامت بدأت فاطمة بالطهو. قبل كلّ شيء خطت ستارة غرفة الاستقبال، كانت نوافذ غرفة الاستقبال قبالة الفناء وتطلّ على الزقاق، فعمدنا إلى تغطيتها بأثواب الصلاة. عندما أنهيت خياطة الستارة ونصبتها بمساعدة فاطمة تغيّر شكل المنزل برمّته. إن جمال المنزل بسجاده وستائره. صحيح أنّه لم يكن لدينا سجاد، لكن تلك الستارة جعلت منه منزلًا يشبه المنازل. كانت الستارة بنفسجية اللون، معرّقة بورود صغيرة صفراء وبرتقالية.

بعد غرفة الاستقبال جاء دور المطبخ، لقد أضفت الستارة عليه انشراحًا وحيويّة. كان في وسط المطبخ طاولة حديدية كبيرة فوضّبنا عليها كلّ ما يوجد من طناجر وأوعية ومعالق وشوك، أمّا في أسفلها فوضعنا أكياس خيش البطاطا والبصل، وعلب الفاصوليا الحمراء والحمص والعدس. جلست خلف ماكينة الخياطة وأدرت دولابها حتّى خطت شرشفًا كبيرًا لطاولة المطبخ، وأحكمت أطرافه بالمغيط كي لا ينزلق.

رتّبت الطاولة مع فاطمة، وفرشنا الشرشف المكشكش عليها، ووضعنا كلّ الأشياء الصغيرة تحتها. كان جمال الشرشف أنّه أخفى كلّ الأشياء الموضوعة تحت الطاولة. كذلك خطت قميصًا جميلًا للمجلى المعدني الذي لا يوجد أيّ خزائن في أسفله. كان قماش الشرشف والمجلى أيضًا من قماش ستارة المطبخ نفسه.

فرحنا كثيرًا لكلّ هذه الألوان والتنوّع. كنّا نروح ونجيء وننظر إلى الستائر، ثمّ نقف في غرفة الاستقبال ونقول: «كم غدت جميلة!»، ثمّ

نأتي إلى المطبخ ونقول: «صار شبيهًا بالمطابخ».

خطت أيضًا من قطع القماش الإضافية قطعة سميكة توضع على طنجرة الأرز بعد طهوه لتنضج حبّاته على مهل، ويحافظ على سخونته، وعدة مقابض قماشية علّقناها على باب وجدران المطبخ.

بعد ترتيب وتزيين الطابق العلوي، نزلنا إلى الطابق السفلي. قرّرنا أن تقوم كلّ واحدة منّا بترتيب غرفتها. وجدت في الزقاق كرتونة فارغة، أحضرتها كطاولة زاوية في الغرفة وضعت بداخلها ألبومات علي لتصبح ثقيلة ولا تهتز، وغطيتها بقطعة قماش.

أحضرت معي من همدان شرشف كروشيه، كنت قد حكته بخيط أبيض حريري، وملأت البطّات ذات المناقير الحمر والنافرة وسط الشرشف، وحشوت البطّات بالقطن، كان للبطّات مناقير حمراء وأجنحة صغيرة نصف مفتوحة.

منذ سنوات درجت موضة الكروشيه، وأحبّ معظم النسوة والفتيات أنواعه المختلفة كثيرًا. وضعت الشرشف على الطاولة الكرتونية، وكنست الغرفة ومسحت الغبار. في اليوم التالي ذهبت أنا وفاطمة وزينب إلى السوق، واشترينا طقم صحون طعام. وانشغلنا أيّامًا عدّة بالكنس والغسيل وترتيب المنزل.

في إحدى الليالي، كانت كلّ المصابيح مضاءة، وكنا مشغولتين بإعداد الطعام في المطبخ. شاهد علي والسيّد هادي الستائر وهما في الزقاق. عندما كانت الأضواء تشعشع عليها ازداد جمالها أضعافًا. نزلا من السيّارة مسرورين.

قال السيّد هادي لعلي: «انظر! لقد صار لمنزلنا ستائر، ما أجملها!».

عندما دخل علي والسيّد هادي تعجّبا لكلّ التغير والألوان والجمال الحاصل في المنزل. فرحا وراحا ينظران إلى كلّ مكان بسرور.

في تلك اللّيلة، وكالعادة كانا متعبين معفّرين بالتراب، فخلدا إلى النوم بسرعة. انتهزت الفرصة أنا وفاطمة وخرجنا إلى الفناء، ومسحنا لهما حذاءيهما جيّدًا ولمعناهما. ومن ثمّ غسلنا زيّيهما العسكريَّين. عند الصباح، تفاجأ الرجلان كثيرًا عندما شاهدا ملابسهما على الحبل، وحذاءيهما ملمّعين خلف الباب.

في تلك الأيّام شعرت أنا وفاطمة بالاشتياق إلى أهلنا كثيرًا. كان السيّد بختياري مكلّفًا بالمجيء كلّ يومين للقيام بشراء حاجيّاتنا. عندما قرع جرس الفناء كي نذهب إلى السوق فرحنا كثيرًا، وجهّزنا نفسينا أنا وفاطمة وقلنا له: «نريد الذهاب إلى مركز الاتصالات».

كان مركز الاتصالات (السنترال) يقع وسط المدينة، وهو عبارة عن قاعة كبيرة تضمّ حجرات عدّة للهاتف، ومقاعد خشبيّة، أكثر من كان يجلس عليها الجنود المجاهدون. كان المركز يغصّ بالأفراد في معظم الأوقات، فجلسنا ننتظر دورنا مدة ساعة.

أثارت زينب الفوضى حتّى أنهكت فاطمة. في النهاية حان دورنا، اتصلت بمنزل جارتنا السيّدة سكينة، وكم عانت أمّي حتّى وصلت إلى مكان الهاتف وتحدّثنا مليًّا. بعد أن أنهينا المكالمات كان السيّد بختياري ينتظرنا في السيّارة على بعد مسافة قليلة من مركز الاتصالات.

بينما كنّا نتّجه صوب السيّارة، ارتفع صوت المضادات الجوية، كان الشارع خاليًا، وزينب في حضن فاطمة، فجأة ضعضع المكان أصوات محركات عدد من الطائرات، ومن ثمّ توالت الانفجارات.

لم أدرِ إلى أيّ اتجاه أذهب، قالت فاطمة: «فلنذهب إلى ذاك الاتجاه!».

عندما هممنا بالذهاب إلى الاتجاه الذي أشارت إليه، امتلأ فجأةً

بالدخـان والغبار والتراب، وأظلم كلّ شيء، لم أستطع الرؤية وسمعت أصـوات صراخ الناس ونحيبهم، وهبّ في وجهي حرّ شديد وسط ذاك الدخان والغبار.

اتجهـت شظية حمراء وكبـيرة بسرعة كبيرة ناحيتـي. لا أدري أيّ قـوة مدّني بهـا الله في تلك اللحظة. تركـت المكان وانبطحـت أرضًا. سمعت صوت الشظية وهي ترتطم بقوة بجدار دكان خلف رأسي، وقد أحدثت فجوة في جداره، كلّ هذا حصل في لحظات عدّة. لم أرَ فاطمة، ناديتها: «فاطمة! فاطمة!». سُمعت أصوات انفجارات أخرى من أماكن أبعد، كان مشهدًا مرعبًا.

مرّت الشظايا من جنب أذني كالجراد المتوغل في مزرعة، كان علي قـد نبّهني مسبقًا إلى أنّه في مواقف كهذه ينبغي لي التمدّد أرضًا، وأن أضع يديّ على أذنيّ وأفتح فمي.

فكّرت طوال هذا الوقـت في فاطمة وزينب. بعد مرور وقت قصير، هـدأت الجلبة قليلًا. رفعـت رأسي ورأيت سيّـارة السيّد بختياري من بين الـتراب والجوّ الملوّث بالغبـار. نهضت وأسرعت ناحيـة السيّارة، وارتميت على المقعد الخلفي.

في هذا الوقت وصلت فاطمـة وزينب، حملتُ زينب وقبّلتها، أغلقتْ فاطمة الباب بخوف واضطراب وقالت: «فرشته، هل أنت بخير؟».

كانـت حالي جيّدة. وضعت رأس زينب على صدري، سمعت صوت قلبهـا الـذي كان يخفق بسرعة كقلـب عصفور. في تلـك اللّيلة فزعنا كثيرًا، وقرّرنا أن لا نخبر زوجَينا بما حدث؛ لأنّهما سيقلقان علينا.

عندمـا كان يحضر زوجانا لا نشعر بالشـوق إلى أيّ أحد أو إلى أيّ مـكان، لكن، مـا إن يغادرا حتّى يبدأ غمّنا وحزننـا. في إحدى المرات،

عندما همّا بالذهاب إلى الجبهة قلت لعلي: «عزيزي علي، لقد اشتقت إلى همدان بعض الشيء».

- لهمدان أم للهمدانيّين؟

أجبته ضاحكة: «للاثنين معًا».

في اللّيلة التالية، عاد علي على عجل وقال: «فرشته، ضعي عباءتك على رأسك لقد جاء أحد أقربائك».

تعجبت وسألته: «أيّ أقارب؟».

ضحك وقال بشقاوة: «ألم تشتاقي إلى الهمدانيين؟!».

تجلببت بالعباءة وذهبت إلى الفناء. غمزني بطرف عينه وقال: «هذا ابن عمّك».

كان قد أحضر معه وحيد ابن عمّي باقر. رأى وحيد علي في الجبهة فتقدّم إليه وعرّفه إلى نفسه.

أمسك علي بيده وقال: «ستأتي اللّيلة وتتناول العشاء في منزلنا، فرشته مغمومة، ستُسرّ برؤيتك حتمًا».

في الحقيقة لقد سررت كثيرًا، جلست أنا ووحيد واستغرقنا بالحديث.

- أتذكر يا وحيد عندما كنّا صغارًا كم كنّا نثير الشغب؟

ضحك وحيد وقال: «أتذكرين كم كنتُ مشاغبًا؟».

عندما رآنا علي مستغرقين بالأحاديث فرح كثيرًا، فأحضر طعام العشاء بنفسه، ومدّ السفرة، وبعد العشاء جمع الأواني ونقلها إلى المطبخ. عندما علا صوت قرقعة الصحون احترق قلبي لأجله، قلت في نفسي إنّ علي متعب، فذهبت إلى المطبخ كي أغسل الصحون بنفسي،

فلم يقبل وقال: «ألم تكوني مغمومة! اذهبي وتحدّثي إلى وحيد فيذهب عنك الغم».

لم أذهب، بل ساعدته وغسلنا الصحون معًا. عندما دخلنا الغرفة وجدنا أنّ وحيد نائم في إحدى زوايا الغرفة من دون فراش. انزعجت كثيرًا، وتفطّر قلبي عليه، أردت إيقاظه كي أفرش له فراشًا، لكنّ، علي لم يقبل فقال: «دعيه، اتركيه نائمًا، إن هؤلاء اعتادوا في الجبهة على النوم على الحجارة والتراب، فوحيد الآن يشعر أنّه نائم على ريش النعامة في فندق هيلتون».

رغم ذلك، لم يطاوعني قلبي فقلت: «عزيزي علي، لقد أتى ضيفًا ليلةً واحدة، فلو كانت زوجة عمي هنا الآن أتترك ولدها ينام من دون فراش؟!».

غطّيته بالشرشف وأعطيت علي وسادة ليضعها تحت رأسه.

كان طقس دزفول بالنسبة إلينا -نحن الهمدانيّين- شديد الحرارة، وكأنّ الصيف هنا يبدأ من أواسط أسفند (أوائل آذار)، فكنا نضطر في ذلك الفصل من السنة إلى تشغيل المبرّدات. أحضر الرجلان مبرّدًا قديمًا وعملا على تركيبه وتلحيمه في نافذة غرفة النوم لجهة الفناء. كانت قناة المبرّد الحديدية تمتد في الغرفة كالبئر إلى ما لا نهاية، وعندما تسكن الأصوات ليلًا، نلتفت إلى أنّ صوت المبردات مخيف جدًّا، وغير محتمل، لكن بعد مرور ساعات عدّة نعتاد على أصواتها وننام.

في صباح أحد الأيّام، استيقظت من أجل صلاة الصبح، عندما فتحت باب الشرفة تعجبت كثيرًا؛ إذ رأيت علي نائمًا هناك من دون غطاء وفراش، متوسّدًا حذاءه العسكري، وضامًّا قدميه إلى بطنه،

كان قد عاد باكرًا. تفطّر قلبي عليه، انحنيت وهززت كتفه.

– علي، علي عزيزي لمَ أنت نائم هنا؟

نهض وجلس، لم يكن قد اكتمل طلوع الشمس بعد، عندما رآني تبسّم وسلّم عليّ وسألني عن أحوالي.

سألته: «لمَ نمت هنا؟».

أخذت حذاءه العسكري لأضعه جانبًا، فركض عقربٌ مسرعًا من تحت حذائه العسكري باتجاه الحائط فقال: «لقد طرقت الباب والنافذة كثيرًا ليلة البارحة لكنك لم تستيقظي».

– ألم يكن معك مفتاح؟

– ظننت أنّ فاطمة قد تكون نائمة في البهو، فلا يصح أن أدخل كيفما كان.

جلست قربه وأمسكت بيده وقلت: «المعذرة كان صوت المبرّد قويًا فلم أسمع طرقك، هل تأذيت؟».

– كلّا، لحسن الحظ كان ذلك جيّدًا، كنت أعلم أنّك تنامين خلف الباب فرأيت أحلامًا جميلة حتّى الصباح.

ذهب علي ظهر ذلك اليوم إلى الجبهة، ولكن رغم حرارة الجوّ لم نشغّل المبرد بعد ما جرى تلك اللّيلة.

ها قد أفل شهر اسفند[1]، ونحن على أبواب عيد رأس السنة (الشمسية)، العيد الأول لحياتنا المشتركة. وعدنا الرجلان أن يحضرا إلى المنزل عند بداية السنة الجديدة. في تلك السنة كان لدينا حماسة وشوق عجيبان لتعزيل المنزل. رغم أن الوضعية في دزفول

1- اسفند: وهو آخر شهر في السنة الهجرية الشمسية (ما بين20 شباط الى 20 آذار).

كانـت دائمًا حمراء، وكنّا كلّ ساعات عـدّة نسمع صوت انفجار قريب أو بعيد. في تلـك الظروف دبّت فينا مشاعر جيّدة. كنّا نستيقظ باكرًا ونقـوم بتنظيف الأبواب والجدران جيّـدًا، ونلمّع زجاج النوافذ، وننزع الموكيت من الأرض، ونأخذه إلى الفناء، ونغسله بواسطة المكنسة بالماء ومسحـوق الغسيـل ونصعد به إلى السطح بمشقة كبـيرة، ونعلّقه على حافة السطح.

رغـم أصـوات المضادّات الجويـة وأصوات الانفجـارات والقذائف شطفنـا الفنـاء وعقّمنـا دورة المياه. مـلأت رائحة المبيّض ومسحوق الغسيل المنزل، عشيّة العيد، أصبح كلّ شيء نظيفًا ورائحته جميلة.

عندمـا انتهت أعمال المنزل، انتقلنا لتجهيز طاولة الـ «هفت سين». بشـوق عارم فرشنا خوانًا وسط الغرفة، ووضعنا عليه كلّ ما استطعنا الحصول عليه، أو ظننّـا أنّه يصلح لمائدة الـ «هفت سين»: قرآن، رحل (مسنـد التـلاوة)، ساعـة، لـيرة ذهبية، وتفـاح. لم يكـن لدينا نبتة خضـراء، ومن أجل شرائها جُلنا أيّاما عـدّة داخل المدينة، وحتّى إنّنا جلنا في كلّ دزفول، ومع ذلك لم نجدها.

ففكّرنـا أنّ نضع على المائدة خضارًا مكان النبتة الخضراء. حملت سلّتي واتجهت نحو الزقاق. لسوء حظنا كان محل بيع الخضار في ذاك اليوم مقفلاً. مررت لأول مرّة بعدّة أزقة في ذاك الاتجاه بسرور، رأيت مـن بعيد امرأة تجلس أمام باب منزلها وأمامها علـى الأرض بسطة مليئـة بالخضار. حثثت الخطـى نحوها، كانت امـرأة عربيّة المظهر، ترتدي شالاً أسود اللون، وعباءة بأكمام، ورُسم على ذقنها وشم أزرق.

سلّمت عليها وسألت: «هل الخضار للبيع؟».

أجابت المرأة بلهجة غليظة: «ها! بكم تومان تريدين؟».

- أريد كيلوًا واحدًا.

وضعت السلّة قربها، كانت تعفش الخضار بقبضتي يديها الغليظتين وترميها في السلة حتّى امتلأ نصفها.

- لقد صارت كثيرة.

كانت ملامحها توحي بالجديّة والصلابة ومن دون أن ترفع رأسها، ناولتني السلّة قائلة:

- أعطني ثمن كيلو.

لم أفهم ماذا قالت. مررت يدي بين الخضار، ونقيّت منها أوراقًا عدّة رطبة وقلت: «إنّها مليئة بالأعشاب».

نزعت المرأة تلك الأوراق من يدي بسرعة وهي على تلك الحال من الجدّية وراحت تمضغها قائلة: إنّه «پربين[1] وليس عشبًا، هو مضادّ للحرارة والاستفراغ، يفيد القلب، وله خصائص جمّة، تذوّقيه حتّى تري كم هو لذيذ، فهو مع البصل المقلي والنعنع اليابس لذيذ جدًّا».

وبصعوبة بالغة فهمت من كلامها أنّ پربين ليس عشبًا أو علفًا، وهو نوع من الخضار المفيدة للقلب، ومضادّ للاستفراغ والحرارة. بالتأكيد، فيما بعد علمنا أنّ الهمدانيّين يطلقون عليها اسم «خرفه».

عندما أردت أن أدفع ثمن الخضار، تناولت المرأة الكثير من خضار «الخرفه» ولاكتها أمامي.

لمّا وصلت إلى المنزل، رحت أحدّث فاطمة عن الخرفه، وكأنّني اكتشفت أمرًا عظيمًا.

قالت فاطمة: «نحن أهل مريانج نعتبر هذا عشبًا ونرميه بعيدًا».

1- بربين أو بربهن أي الفرفحين. (المترجم)

حملت أوراقًا من الخرفه ووضعتها في فمي مقلّدةً المرأة العجوز، كان مذاقها رطبًا وحامضًا قليلًا، وطعمها مختلفًا وجديدًا، فقلت: «لها فوائد كثيرة: جيّدة للقلب، مضادّة للاستفراغ، والإسهال، من قال إنّها أعشاب!».

ضحكنا لذلك ورحنا ننظّف الخضار. وخلافًا لما اعتدنا عليه حيث كنّا نرمي الخرفه، أخذنا نأكلها بشهية هذه المرة قبل الغسل وبعده قدر ما استطعنا. وضعنا الخضار المغسّلة في طبق كبير وسط خوان الـ«هفت سين».

ثمّ وضعنا داخل طنجرتين منفصلتين قشر بصل وخضارًا وقليلاً من الماء، ووضعنا الطنجرتين على الغاز. عندما غلا الماء رمينا داخل الطنجرتين بيضاتٍ عدّة لتغلي مع الخضار وقشر البصل وتصطبغ بالألوان.

بقي القليل من الوقت لحلول السنة الجديدة. بدّلنا ملابسنا، وألبسنا زينب طقمًا جميلًا، وغسلنا يديها ووجهها، وسرّحنا شعرها على شاكلة أذنَي فأرة، فبدت جميلة جدًّا، وجلسنا بجانب الخوان ننتظر زوجينا وحلول العام الجديد.

كلما اقترب موعد حلول السنة الجديدة تضاعف القلق في داخلنا. كنّا نعلم أنّ عمليات «كربلاء 4، و«كربلاء 5 وكربلاء6»[1] ستستمر ابتداءً من شهر دى (ك1 - ك2) فصاعدًا. كنّا قلقتين على زوجينا، وانتظرناهما حتّى وقت متأخّر من اللّيل خلف النافذة.

1-بدأت عمليات كربلاء 4 في تاريخ 3-10-1365 (24/ ك1/ 1986) في منطقة البصرة أبو الخصيب. وعمليات كربلاء 5 بتاريخ 19-10-1365 (9/ك2/ 1987) في منطقة شلمجه. وعمليات كربلاء 6 بتاريخ 23-10-1365 (9/ك2/ 1987) في منطقة كرمانشاه (نفت شهر). واستغرقت كل واحدة منها مدة من الزمن. أحدثت عمليات كربلاء 5 ملحمة كبرى، حيث قال محسن رضائي حول هذه العملية: «لقد وصلنا في عمليات كربلاء 5 إلى كل ما أردناه».

رفعت فاطمة الستارة من زاوية وأنا من الزاوية الأخرى. عندما كنّا نرى سيّارة ما تدخل الزقاق، تغمرنا الفرحة لذلك، لكن ما إن تتوقّف أمام منزل أحد الجيران، وتفتح الباب زوجة أحد القادة، نزفر آهًا لخيبتنا، ونترك طرفي الستارة ونجلس في أماكننا.

لكنّنا ما نلبث أن نعاود الكرّة، فترفع فاطمة طرف الستارة من زاوية وأنا من زاوية أخرى. حلّ وقتٍ رأس السنة الجديدة ونحن ما زلنا واقفتين خلف النافذة ننتظر. أُطفئت مصابيح المنازل من حولنا الواحد تلو الآخر، فيما بقينا مستيقظتين ساعات عدّة بعد منتصف اللّيل والرجلان لم يحضرا بعد. لم نطفئ المصابيح، جلسنا طويلًا جنب خوان الـ«هفت سين» حتّى ثقلت جفوننا شيئًا فشيئًا وغفونا.

في الأول من فروردين يوم السبت 21 آذار1987. كنّا بين النوم واليقظة عندما تناهى إلى سمعنا صوت على الباب. نهضنا بسرعة ورفعنا طرفي الستارة. كانا قد حضرا معًا: متّسخين، أسودين، وبمجيئهما كأنّهما أعطيانا الدنيا كلّها عيدية. دخل علينا أول ضيوفنا لرأس السنة باكرًا مع طلوع الفجر ملطّخين بالوحل والتراب.

عندما دخلا الغرفة سلّما علينا ضاحكين. وضع علي يده في جيبه، وتناول منها بعفويّة ومن دون مقدّمات زجاجة عطر خضراء اللون وقدمها لي قائلًا: «كل عيد وأنت بخير».

كم كانت هدية رائعة جاءت في وقتها! غمر الجميع البهجة والسرور، ولكنّ فرحتهما بدت كفرحة الأطفال لدى رؤيتهما مائدة الـ«هفت سين». تسمّر علي على المائدة، وبينما هو واقف راح يعدّ الأشياء التي تبدأ بحرف سين واحدًا تلو الآخر.

قلت بامتعاض: «عزيزي علي، للأسف لم نجد سمكة حمراء!».

فمــا كان منه إلّا أنْ مثّل بحركات خدّيه وفمه شكل سمكة قائلًا: «أنا سأكون سمكــة مائدة الـ«هفت سين» خاصّتكم، وقــد أتيت للتوّ من قناة السمك[1]. المعذرة لقد أصبحت سمكة دخانية بدلًا من السمكة الحمراء!».

جلس الرجــلان عند المائدة بذينك اللباســين العسكريين، تحدّثنا وضحكنا وأكلنا الشوكولاتة والحلوى، ورششنا عليهما ماء الورد.

بعــد الظهر، ذهبنا إلى مزار «سبزه قبــا» -وهو ضريح أحد أحفاد الأئمة عليهم السلام- وقــد مدّتنا الزيارة بشعور جيّد، وأشعرتنا بالهدوء. ومن بعدهــا ذهبنا إلى شوش، إلى مزار النبي دانيال عليه السلام وعدنا من هناك بحال وشعور طيّبين.

يوم الأحد 22 آذار 1987، قصدنا سد «دز». كان سدًّا جميلًا ورائعًا بطبيعته الخلابة وأرضــه المتموّجة. انتعلت حذاءً رياضيًّا أزرق وأسود اللون، ورحت أصعد التلال بخفّة وسرعة. فرح علي كثيرًا لذلك وقال: «لطالمــا أحببت أن تكون زوجتــي رياضية. إنّني سعيد جدًّا؛ لأنّك لست متقاعسة، ابقي دائمًا هكذا».

انتهــى شهــر فروردين وأتى شهــر ارديبهشت بِحَــرِّه وقيظه، وكأنّ الشمســ كانت تهبط على سطــوح المنازل صباحًا، وتفــرغ حرّها على المدينــة فتبدو وكأنّ الجدران يتصاعــد منها اللهب. كان المبرّد يقرقر منذ الصباح حتّى المساء، لكنّه لم يقدر على فعل شيء. كان الجوّ حارًّا مثقــلًا بالرطوبة، فلم نــبرح غرفة الاستقبال لوجود المــبرّد فيها. كنّا نــتردّد على معظــم الجيران الذين هم أبناء مدينتنــا، وكان أزواجهم

1- قنــاة السمك: أنشأ العدو في منطقة شلمتشــة عوائق دفاعية كثيرة طبيعية وصناعية. كانــت قناة السمك العائق الثامن من حيث الضخامة والحجم. أنشئت قناة تربية السمك قبــل الحرب بطول 29 كلم وعرض متر واحد، وعمقها 2.5 متر. وحتّى هذا العائق لم يكن شيئًا أمام إرادة المجاهدين الحديدية.

في الجبهة مثل زوجينا، لكن بمجرد أن ترتفع حرارة الطقس ينقطع التواصل وكأنّ الجميع مثلنا قابعون تحت المبرّدات. شيئًا فشيئًا، جمع الجيران أمتعتهم وغادروا. في كلّ يوم، كانت إحدى العائلات تطرق باب منزلنا لتوديعنا.

بعد أيّام عدّة تدهورت حال زينب الصحية؛ إذ أصيبت بالإسهال والاستفراغ جرّاء ضربة شمس. كذلك أنا، لم تكن حالي أفضل من حالها. فقد ساء مزاجي، ولم أستطع أكل شيء سوى شرب الماء. صارت فاطمة ممرّضتي وممرّضة زينب. عندما جاء علي ورأى ما حلّ بي، وعندما رأى السيّد هادي جسم زينب النحيل ولونها الأصفر قالا: «اجمعا أغراضكما لنعود إلى همدان».

قاومت ذلك بشدّة، لم أشأ العودة إلى همدان، لقد أتيت إلى هنا لأبقى إلى جانب زوجي، وأعيش في دزفول، فقلت لعلي: «هذا منزلنا فأين نذهب؟».

- «أنتما لم تعتادا على طقس هذه المنطقة.. ستمرضان».

- وأنتما ستمرضان، أنتما في الصحراء ونحن تحت المبرّد».

أصرّ علي على أن نترك دزفول فقال: «إن تكبّدكما العناء لأجلنا في هذا الحرّ الشديد يعذّب وجداني، فعملنا ووضعيّتنا غير واضحين؛ يحتمل أن نذهب غدًا أو بعد غد إلى جبهة الغرب، عندما تكونان في همدان يرتاح بالنا أكثر».

أجبته بانزعاج: «وأنا ماذا عن بالي غير المرتاح، ألا تفكّر فيّ! ماذا أفعل؟ لقد أتيت لأؤدي ديني، أريد أن يكون لي دور في هذه الحرب».

ضحك وقال:

- لقد قمت بوظيفتك إلى الآن على نحو جيّد، المعذرة، سيكون بالنا

مرتاحًا أكثر إن ذهبتما إلى همدان.

كلّمــا أصررت على البقاء أصرّ هو على المغادرة، فقلت: «على الأقلّ دعونا نبقى هنا إلى حين ذهابكما إلى الغرب».

في النهاية انتصر علي والسيّد هادي، وضّبنا أغراضنا في كراتين، ووضعناهــا في السيّــارة، وعدنا من حيث أتينا. في ذلــك اليوم وصلت حــدّة القصف وسقوط الصواريخ في دزفــول إلى الذروة، ما إن عبرنا الطريــق حتّــى سمعنا بعد دقائــق صوت انفجار، وارتفــع خلفنا دخان غليظ في الأجواء.

داســ علــي على دواسة البنزيــن وبسرعة أبعدنا عــن تلك المهلكة. خــلال هذه المرات العديدة التي أتيت فيها دزفول، كنت أستمتع بشعور جيّــد، وعنــد العــودة منها يجتاحنــي شعــور بالخــوف والاضطراب. كنــت أعلم أنّه في همدان سيُكتب لي أيّــام عصيبة من البعد والوحدة والانتظــار. رغبت في البقاء، ظننت أنّنــي لم أقاوم كما يجب، والأنكى من ذلك كلّه كنت أسمع علي والسيّد هادي يخطّطان للعودة وحدهما.

مــرّت الساعات الثمانية من دزفول إلى همدان بالنسبة إليّ وكأنّها ثمــاني دقائق، لم أرغب في الوصول إلى همــدان أبدًا، ولكن هذه المرة ما كان أسرع الوصول!!

قبل وصولنا إلى همدان أمطرت السماء، وغسلت الأرض والأشجار جيّــدًا، كان الجوّ لطيفًا، وفاحــت في الأجواء رائحة البراعم الربيعية، ولبست السماء قطعًا من الغيوم المتداخلة فيما بينها.

وضعنــا الأغراض في المخزن في فناء منــزل والدتي، وذهبنا لرؤية السيّدة منصورة. لم تكن حالها جيّدة، وعاودها الكسل في كُليتيها من جديد. فأمير أرسل في الرابع من فروردين إلى جبهة الغرب، وبذهابه

فقد المنزل نشاطه وحيويّتــه السابقين. كانت السيّدة منصورة متعلقة بأمــير أكثر من الآخريــن. فعندما لا يكون أمــير في الجبهة، تكون كلّ أعمال التسوّق ومتطلّباتها على عاتقه، وبعد ذهابه يفقد المنزل رونقه.

كانت السيّدة منصورة تشكو من الوحدة والبعاد عن أمير، فمريم في طهران مشغولة بحياتها وطفلها، الحاج صادق أيضًا مشغول في وظيفته وحياته، كذلك نحن، ومع ظروف كهذه كان ذهاب أمير صعبًا عليها.

احترق قلبــي لأجل السيّدة منصورة ووحدتها؛ لهذا السبب، قرّرت العيشـ عندها إلى أن نجـد منزلًا لنا. في اليوم التــالي، عاد علي إلى الجبهــة. تتالت الأيّام، وساءت حــالي، ذهبت إلى الطبيب بعد إصرار السيّدة منصورة في الثلاثين من أيار، طلب لي الطبيب بعض التحاليل. أخذت نتيجــة التحاليل مع أمّي إلى الطبيب، فرحت أمّي كثيرًا عندما سمعت الخبر، وأخذتني ليلًا إلى منزلها لتهتمّ بتغذيتي على حدّ قولها، لم أبقَ في منزل والدتي سوى أيّام قلائل.

كنــت قد وعدت علي أن أبقى عنــد السيّدة منصورة. في تلك اللّيلة كانت عائلة الحاج صادق أيضًا في منزل السيّدة منصورة، وكان المنزل مزدحمًا. اتصل علي ليلًا، أردت أن أخبره قبل الجميع بالخبر، حملت السماعة وكالعادة سلّمنا على بعضنا البعض، حاولت أن أخبره، لكنّني لم أستطــع، وضعت يدي على السماعــة وقلت بهدوء: «لقد حدث شيءٌ مهمّ، اسألني كي أجيبك».

بــدا علــي وكأنّــه في وضعيــة لا تسمح لــه بالتكلّـم بحريّــة، فقال: «ساعديني».

- أنا أحبّه وكذلك أنت.

- لم أفهم مَن تقصدين، ساعديني أكثر.

- هــذا هو، ماذا أقول بعد؟ في بعض الأحيان كنّا نتحدّث عنه، أنت تحبّه..

انتبــه السيّد ناصــر بشكل أسرع مــن علي، فنهض وقــال للجميع: «فلنذهــب إلى البهو لتُسلِّــم السيّدة فرشته براحة أكــثر على زوجها، ماذا يعني هذا؟ كلّكم قد تموضعتم هنا!».

انتظــرت حتّــى خرج الجميــع من الغرفــة لأخبره بالأمــر. قلت له بسرور: «علي عزيزي، ستصبح أبًا».

فــرح كثيرًا، سكت قليلًا ثــمّ قال: «أحقًّا ما تقولــين؟ خيرًا إن شاء الله، مبــارك! إذًا مــن أجل هذا الأمــر كانت حالك سيّئــة؟ والآن هل تحسّنت حالك؟».

- لم تتحسّن حالي، ولكن لا مشكلة.

في تلك اللّيلة علم الجميع بالموضوع. أظن أنّ السيّد ناصر قد أخبر الجميع بموضوع الحمل، لكنّهم تظاهروا أمامي بأنّهم لا يعرفون شيئًا.

بعــد أيّام عدّة ذهبت إلى منــزل والدتي وكتبت رسالة إلى علي. ردّ علــي سريعًا، وطلب منّي الذهــاب إلى الطبيبة لتشكّل لي ملفًا. ساءت حــالي يومًا بعد يــوم، ولم ينفعني لا طبيــب ولا دواء. في هذه المدة أتى علي إلى همدان مرّة أو مرّتين، بقي أيّامًا ورجع سريعًا إلى الجبهة.

9

التفّاح الموشّح[1]

في الخامس والعشرين من شهر آب 1987 كنت في منزل والدتي وحالي سيّئة. وكعادتها انهمكت أمّي في أعمالها ما بين مشغل الخياطة وأعمال دعم الجبهة. عند الظهر، جاء «وحيد» ابن عمّي إلى منزلنا، بدا مرتبكًا مشوّش الفكر، كان مجيئه على هذه الحال يكفي لأنْ أحدس بكلّ الأفكار السيئة الموجودة في العالم. سألته بقلق: «ماذا حصل؟ قل الحقيقة، هل حدث مكروهٌ لعلي؟».

لم يستطع وحيد أن يجيبني من شدّة حزنه، بعد قليل قال: «فرشته، ليس خبرًا جيّدًا، طلب منّي علي أن أخبرك بهدوء».

– «أخبرني بسرعة، سيبلغ قلبي حنجرتي».

– «أتعديني أن لا تجزعي؟».

– «وحيد باللّه عليك، أسرع!».

– «لا أحد يدري سوى علي، يقول لك أن تذهبي إلى منزل والدته».

ضقت ذرعًا منه فقلت: «هل ستخبرني أم لا؟ باللّه عليك لا تلعب بأعصابي!».

1- التفّاح الموشّح: وهو تفاح جرديّ صغير الحجم، لونه أخضر موشّح بالزهري ورائحته زكيّة جدًّا. (المترجم)

غصّ بالبكاء وقال: «سأقول لكِ، لقد استشهد السيّد أمير وطلب منّي علي أن أخبرك بهدوء». ثمّ أجهش بالبكاء قبلي.

وقعت في حيرة من أمري، ولم أدرِ ماذا أصنع، صدمني الخبر، وكأنّ أحدًا ضرب رأسي بمطرقة كبيرة فلم أعِ شيئًا، ورحت أحدّث نفسي، ترى ماذا قال وحيد، ولماذا كان يبكي؟!

كان الطقس حارًّا وتدهورت حالي الصحيّة من هول الخبر، أسرعت ناحية دورة المياه في الفناء ولفظت كلّ ما في جوفي وأنا أفكّر في أمير غير مصدّقة ما قاله وحيد، كلّا لم أصدّق، أحسست بثقل في رأسي، ظننت أنّني أحلم، فهل رحل أمير بهذه السرعة؟!

كانت مياه الصنبور في الفناء باردة، أحنيت ظهري ووضعت وجهي تحت الماء، لعلّي أفيق من الحلم، لكن ما كنت يومًا بوعي كهذا. أغلقت الصنبور، وجفّفت وجهي، مضى شهر على ذهاب علّي إلى الجبهة، وها هو يعود، ولكن بأيّ حال تراه يعود؟! ارتديت ملابسي وذهبت إلى منزل والدته. كانت السيّدة منيرة هناك أيضًا، شعرت أنّها على علم بذلك، لكنّها لم تبدِ شيئًا. سلّمت بحزن، وسألت الجميع عن أحوالهم. كانت حال السيّدة منصورة جيّدة وتتصرف بشكل عادي، بدا أنّها لم تعلم بشهادة أمير بعد.

دخلت السيّدة منصورة إلى المطبخ، لتحضر عصير الكرز. في هذا الوقت، جاء علي والسيّد ناصر والحاج صادق، تبعها علي إلى المطبخ وقبّلها، كم بدا هرمًا وحانيًا، أمسك علي والحاج صادق بيدَي أمّهما، ودخلا مع السيّد ناصر إلى غرفة النوم.

كنت أسمع خفقان قلبي وكأنّه بلغ حنجرتي، أثقل الحزن فضاء المنزل، ورحت أفكّر كم هي صعبة تلك المهمة التي ينبغي لعلي القيام

بهـا. احترق قلبي من أجل السيّدة منصـورة، وكادت أنفاسي تتوقّف. وددت لـو أنّنـي أستطيع الخـروج من ذلـك البيت. فجـأة علا نحيب والـدة زوجي مـن داخل غرفة النـوم، وصارت تنوح وتنـادي أميرها. كان الجميـع يعلم أنّها تحب أمير بشـكل مختلف عن محبّتها لأولادها الآخرين. خرج علي من الغرفة، وارتفع صوت نحيبها أكثر:

- أمـير!! حبيبي، يا ولدي الجميل، يا روحـي ويا عمري، يا إلهي.. لقد ذهب كلّ عمري، أمير ولدي الجميل رحل، يا إلهي...

قطّع نواحهـا نياط قلبي، وأحـرق أنينها أحشائـي. أسرعت باكية ووقفت أمام علي: «علي، قل الحقيقة، ماذا حصل؟».

احمـرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، لكنّ الدمـوع لم تسحّ من عينيه، وكأنّـه رآني للتـوّ، نظر إليّ بحنـوٍّ وحزن، ثمّ قال: «لقـد استشهد أخي أمير».

هرعت السيّدة منصورة من الغرفة تنتحب: «علي، علي، قف هنيهة وأخبرني الحقيقة، أين أمير الآن، أين أمير؟».

غصّ فؤاده حزنًا، لكنّه لم يبكِ، فتح ذراعيه وحضن أمه وراح يلاطف كتفيها ورأسها ويرنّم في أذنيها: «أمّي، قاومي! استعيني بالسيّدة زينب والسيّـدة الزهراء عليها السلام، اطلبـي العون من الله، عليـك بالصبر! أمّاه، أمـير الآن إلى جانب شهداء كربلاء، لقد لبّى نداء الحسين عليه السلام ونحن أيضًا، أنتِ، أبي، أنا والجميع علينا أن نلبّي النداء. أمّي، إن مقام أمير عند الله ليس مقامًا بسيطًا، فلا تنزلي من شأن مقامه، كوني كالطود، فهـذا كله امتحان، لا تبكي لشيء قدّمتـهِ في سبيل الله. افتخري، أمّي، أقسم بالله لقد أصبحت اليوم مسلمة حقيقيّة».

هدأت السيّدة منصورة قليلًا. التفت إلينا علي وقال: «أمسكوا عن

البكاء قدر ما تستطيعون، ارفعوا هاماتكم واستقبلوا ضيوف أمير بعزّة وافتخار، من اليوم، كلّ تصرفاتنا ستكون تحت مجهر العدو، لا تظهروا ضعفًا من أنفسكم».

شيئًا فشيئًا، بلغ الجيران والأصدقاء والمعارف نبأ شهادة أمير، وجاؤوا للتبريك والمواساة إلى منزل والدة زوجي. لم يعتقد أحد أنّ أمير سيستشهد بهذه السرعة. كان الجميع قلقًا على علي أكثر من أمير. فعلي شارك في الجبهات منذ بداية الحرب بينما أمير بدأت مشاركته منذ أربعة أشهر فقط. لم تكن حال السيّدة منصورة جيّدة، لكنّها حاولت أن لا تبكي، وأن تصطبر كما أمهات الشهداء.

وصل أبي وأمّي وأختاي، واتّشح الباب والجدار بالسواد، وعُلّقت صورة أمير على الحائط، وحولها شرائط سوداء، كان الحزن ينضح من كلّ زوايا البيت.

توجّه الجيران إلى المطبخ للمساعدة وتحضير الماء البارد وعصير الزعفران، وليقدّموا للضيوف التمر والـ«ميشكا»[1]، وملأت أرجاء البيت رائحة «الحلواء». كنت عليلة لا أقوى على فعل شيء، أردت الذهاب إلى مكان خالٍ والنوم فيه بهدوء، وعندما أستيقظ أرى «أمير» حيًّا بكلّ عطفه ورأفته وحيويّته.

كان أمير بنظّارته ذات الإطار الكوتشوكي الأسود يضحك عندما يراني ولا ينفكّ يناديني: «أختاه فرشته، أختاه فرشته».

جاءت مريم وعائلة زوجها، كذلك الجدّ والجدّة والخال محمد والخالة فاطمة والعوائل الطهرانية مساءً، دخلوا باكين مولولين، وانبعثت عاشوراء من نحيبهم وعزائهم. لقد كان أمير قرة عين العائلة

1- ميشكا: نوع من الحلوى الإيرانية تشبه الرقائق الهشة المحشوّة بالشوكولاتة. (المترجم)

كلها، وبالأخص الجدّ والجدّة.

لـولا وجود علي لانهرنـا جميعًا في تلك الليلة. تـارة كان يضع رأس السيّـدة منصورة في حجره ويهـدّىء من روعها، وتـارة أخرى يجلس قـرب السيّـد ناصـر يحضنـه ويواسيـه، كذلـك كان يفعل مـع الجدّ والجـدّة فيهدآن لحديثـه، لكنّه ما إن يصل الـدور إليّ حتّى يبدأ ببثّ شكواه ولواعج فؤاده فيقـول: «منذ بدء الحرب وإلى الآن استشهد من الأصدقاء والرفقاء بعدد أفراد كتيبة وأنا ما زلت حيًّا، أمير ذهب إلى الجبهة منـذ أربعة أشهر فقط، وأنا منذ سبـع سنين، هذا ليس عدلًا! أيّ ذنـب اقترفـت كي لا يتقبّلني اللّه، وبدلًا من ذلـك يأخذ أمير بهذه السرعة! لماذا استشهد أمير وأنا ما زلت حيًّا؟!».

كنت أصغي إلى كلامه وأتجرّع الغصّة من أجله.

- علي، لا تجحد! ألم تقل لي يومًا رضىً برضاك يا رب.

في صباح اليوم التالي، غصّ الزقاق بسيارات Land Rover التابعة لجهاد البناء وسيارات Patrol الحرس، والحافلات لنقل الناس الذين تجمعوا أمام المنزل والزقاق إلى روضة الشهداء.

كان علي يرتدي قميصًـا بنّيًّا، يهلهل على بدنه لشدّة ضعفه، وكأنّ عظـام أكتافه فقـط هي التـي تمسك بقميصـه. كان وجهـه ضامرًا شاحبًـا. بدا واضحًـا أنّه أمضى ليلة مريرة. منـذ البارحة، لم يتناول أحدٌ من أفراد العائلة شيئًا من الطعام.

حضـن علي السيّـدة منصـورة وراح يهمس باستمـرار في أذنيها: «أمّـي، سيطـري على نفسك، قاومـي، تصـرّفي كالسيّدة زينب عليها السلام، احذري أعداء الثورة».

لم تستطـع مـريم أن تتغلّـب على دموعهـا، كانت تبكي بـكاء أخت

فقدت أخاها. قال لها علي: «عزيزتي مريم، ابكي، لكن ليس بصوت عالٍ، انتبهي كي لا يسمع صوت بكائك غير المحارم».

منذ أن سمعت نبأ شهادة أمير ساءت حالي أكثر، شعرت بتحفّز للتقيّؤ، أسرعت باتجاه الحمّام فرآني علي، سألني: «ماذا بكِ؟ ألم تتحسّني؟ أتريدين أن أطلب من أحد الإخوة إرسالك إلى المستشفى؟».

لم يخطر على بالي أنّ علي يفكر فيَّ وهو في تلك الظروف، فكيف به يريد إرسالي إلى المستشفى. أجبته: «كلّا، ليس بالشيء المهم، سأتحسّن بعد قليل».

كانت حرارة الطقس تزيد حالي سوءًا. خرج الجميع من المنزل على هون، وبقي عدد من الجيران لكي يعدّوا العصير والحلواء والماء البارد للمعزّين بعد عودتهم من التشييع.

نزلت مع أمّي وأبي، وحضرتْ جموع غفيرة لتشييع أمير. ركب الجميع الحافلات والسيارات الخاصة، واتجهوا نحو روضة الشهداء. كان الطريق إلى هناك يزدحم بالسيارات العسكرية التابعة للحرس، والسيارات الرباعية الدفع التابعة لجهاد البناء، حيث غطّت صور أمير والرايات السوداء معظم زجاج نوافذها وهياكلها.

عندما وصلنا روضة الشهداء كانت فرقة الموسيقى تعزف، ويقف على الجانبين عدد كبير من الجنود والحرس يؤدون التحية احترامًا، ويقيمون مراسم العزاء بصمت عميق. كان التابوت قد وضع في باحة المغسل مغطّى بالعلم والورود.

ارتجفت قدماي لدى رؤيتي تابوت أمير، وقف كلّ من السيّد ناصر، السيّدة منصورة، الحاج صادق، وعلي، تحت شرفة المغسل. أمّا وجها السيّدة منصورة ومريم فقد تشيّطا احمرارًا، لكنّهما لم تبكيا.

أمسكتني أمّــي من معصمي وقدماي ترتجفــان، تذكّرت يوم أتيت لتشييــع جثمان مصيِّب. توقّفت الموسيقى وارتفــع صوت تلاوة القرآن من مكــبّر الصوت، كان القارئ يتلو القرآن مــن على الشرفة. صارت الجمــوع تــزداد لحظة بعد أخرى، صعــد الحاج صادق وعلــي والسيّد ناصر وإمام الجمعة والمحافظ وعدة أشخاص آخرين إلى الشرفة.

عندما انتهــت تلاوة القرآن، طلب مقدّم الحفــل من إمام الجمعة أن يقــف خلف المنصة. ألقى إمام الجمعــة والمحافظ كلمتيهما، وجاء دور علــي من بعدهما. كان طقس روضة الشهداء حارًّا، وصارت حالي تسوء في كلّ لحظة، وعلي يلقي كلمته:

– السلام علــى الحسين، السلام على أنصار الحسين، أشكر أهالي محافظة همدان حاضنة الشهداء جزيل الشكر لمجيئهم إلى هنا لتشييع جثمان أمير تشيت سازيان. لقد تحمّلتم المشقات، لكن، أيها الناس أريد منكم مطلبًا أكبر من ذلك، وهو أن لا تتركوا الإمام وحيدًا. تلقّفوا كلام الإمــام بأسماع قلوبكم، لقد طلب منّا الإمام منــذ 3 سنوات أن لا نخلي الجبهات واعتبر الدفاع واجبًا شرعيًّا. لا ينبغي أن نفتعل جبهات متفرّقة، الجبهــة هي فقط الخط الأمامي، والوجــود فيها واجب على الجميع. لا تدعــوا الإمام يقف ثانية خلف المنصة ويطلب منّا مجدّدًا أن نذهب إلى الجبهة. إن كنّا جنودًا لائقين، فقد أمر الإمام العزيز مرّة واحدة، وهذه المرّة تكفينا. علينا أن نؤكّد للعالم أنّ كلّ ما يطلبه الإمام نلبّيه بأرواحنا وقلوبنــا، ارفعــوا القــرآن بيد والسلاح باليــد الأخــرى، وتحرّكوا ناحية جبهات الحق ضد الباطل، واهتفوا: حربًا حربًا حتّى النصر.

هتف الناس بصوت واحد: «حربًا حربًا حتّى النصر».

كانــت روضة الشهــداء مزدحمة على نحو لا يمكــن الحراك فيها. توقّفــت أنفاســي فقلت لأمي: «حــالي سيّئة جدًّا». أمسكــت أمّي بيدي

وشقّت الطريق قدر المستطاع، وذهبنا لنجلس تحت شجرة في روضة الشهداء. كان معها قارورة ماء، ملأت كفّها بالماء وغسلت وجهي به.

انتشر صوت علي عبر مكبر الصوت قائلًا: «أشكر الله أنّ أخي استشهد على أيدي أعداء الله، وليس على أيدي الأصدقاء المموّهين. لقد استشهد أمير بعد أربعة أشهر من ذهابه إلى الجبهة وكأنّه خطف الأسبقية منا».

جلست تحت شجرة صفصاف وراحت أمّي تجول في الأطراف تقرأ الفاتحة على القبور. بعد قليل، توقّف صوت المكبّر، أتت أمّي وقالت: «أعتقد أنّهم يصلّون، ابقي هنا، سأصلّي وأعود».

بعد أن ذهبت أمّي بقليل، علا صوت الجموع:

من أجل دفن الشهداء   أقدم يا مهدي أقدم..

حُمل تابوت أمير على أكتاف الجنود، وأسرع الناس خلفه. نهضت من مكاني ورحت أنظر إليهم، كان علي والحاج صادق في المقدّمة تحت التابوت. ما إن هممت بالتقدّم إلى الأمام حتّى غصّ المكان من حولي بالجموع وهم يهتفون: «لا إله إلّا الله»، ويركضون من كلّ حدب وصوب، فلم يعد هناك طريق لأتقدّم إلى الأمام ولا لأرجع إلى الخلف. كذلك هتفت الجموع:

هذه الوردة المرفرفة من أين أتت

أتت من زيارة كربلاء

وردتنا المرفرفة هذه

نهديها إلى قائدنا

ضيّق الحرّ والازدحام المساحة من حولي، فشعرت بأطرافي ترتجف وأنفاسي تتوقّف من الوهن. وانتابني شعور سيّئ جرّاء تفكيري أنّ أمير

داخل التابوت. وكأنّ كلّ شيء قد انهار، كأنّ أحدًا يجرّني إلى القبر، لا أدري كيـف أعبر عن تلك الحال والمشاعر، لكن، ما أعلمه أنّ كلّ شيء في تلـك اللحظات بات محزنًا، مدلهمًّـا، هامدًا بلا روح، وغدت دناءة الدنيا وحقارتها ماثلة أمامي.

كان الناس يركضون إلى الأمام من دون انتباه إلى ما يوجد حولهم، فذكّروني بيوم القيامة. أخذ رجل مسنّ تعبويّ يرشّ على رؤوسنا رذاذ ماء الورد بمرشّة معدنية يحملها على كتفه؛ إذ ألهبت الهاجرة الأديم، والسماء الحرّى لا غيوم فيها.

بدت روضة الشهـداء رغم الحشود المتجمهرة فيها وحيدة، حزينة وموحشة. وعجّت الأصوات بصنوف الخلائق فلم يسمع معها أيّ صوت آخـر، لا صـوت عصفور، لا صوت فرح ولا نسيـم، لقد غادر أمير حرًّا طليقًـا بجناحين خفيفين، ولبس المكان ثوب العزاء. جلستُ على شاهد أحد القبـور، كان شاهد القبر قديمًا ترابيّ اللون، واختفى أثر الكتابة عنـه بسبب تحاتّها مع الريح والمطر على مـرّ السنين. أمّا عمر شجرة الصنوبـر المعمّـرة التي ألقت بظلّها على القبر فـكان يبلغ قرابة 40 أو 50 عامًـا؛ إذ اسودّت أوراقها بسبب الحر وقلّة الريّ. جلست في ظلّها، وملأت رأسي أفكار مشوّشة ومقلقة.

بالتأكيد، مضت ساعات عدّة حتّى تفرق الناس عن بعضهم البعض كقطـع الغيـوم التي تناثـرت للتـوّ، وكلٌّ ذهب في اتجـاه. كانت حرارة الشمـس القاتلـة تمور وتتصاعد مـن على القبور كالبخـار. اصطفّت الحافلات فاتحـة أبوابها للناس الذين هرعـوا باتجاهها. وصلت إلى إحداهـا، كنت أشعر بروح أمير الحنون وهي تحلّق فوق رأسي باسمة. ركبـت حافلة تفوح منها رائحة ماء الورد، وفيها نسوة يرتدين عباءات سوداء يصلّين على النبي وآله عن أرواح الشهداء بذريعة وبأخرى.

جلسـت في الصف الثاني قرب إحداهـن. شعرت بدوار ورغبت في النوم. أغمضت عينيّ وقلت: «أمير، وداعًا!». انطلقت الحافلة وارتفعت أصوات الصلوات أكثر فأكـثر. رمقت من خلف النافذة أناسًا تجمعوا حول القـبر، أغمضت عينـيّ ثمّ فتحتهمـا، ثمّ أغمضتهمـا وهمست: «وداعًا، عزيزي أمير، سامحني إذا لم أستطع فعل شيء لك، ولكن، لا تنسى أن تشفع لنا».

كان الوقـت ظهـرًا، والبيت يعـجّ بالضيوف، لم أكـن على ما يرام، لكنّنـي سيطرت علـى نفسي. كنت أخجل من الذهـاب إلى دورة المياه كلّ لحظـة أمام كلّ هـذه النسوة وهؤلاء الرجـال، لم أستطع النهوض للمساعدة، ولم يكن وضعي ملائمًا للجلوس بشكل عادي.

غطّيـت وجهـي بعباءتـي ونمـت في غرفة نـوم تطـلّ نافذتها على الزقـاق. كان في الغرفة أيضًـا بعض النسوة، سمعـت إحداهنّ تقول: «أرأيـتِ أنّ علي نزع زرًّا من ملابس أمير!»، أجابتها الأخرى: «كلّا، لم أره، لماذا فعل ذلك؟».

– يقولون إنّه أخذ الزر رهنًا.

سألتها المرأة بتعجب: «رهنًا؟».

أرهفت سمعي أكثر.

– نعم، «أبعد الله عنه الشرّ وقطع لساني» يقولون إنّه نزع زر قميص أخيه وأقسم عليه أن يأخذه معه ويستشهد بأسرع وقت ممكن.

قفـزت من نومي، ورحـت أنظر إلى الامرأتين بحـيرة واضطراب، عرفتهما، كانتا من أقربـاء السيّدة منصورة، علا صوت خفقان قلبي وبلغ حنجرتي ثانيةً. سألتهما: «ماذا حصل؟».

عندما رأتني الامرأتان اضطربتا وقالتا بخجل: «لا شيء!».

مسكينتــان، لم تتوقعّــا رؤيتــي. نهضــت ودخلت إلى البهــو، كانت النســوة ينظّمن المائدة والرجال يناولونهــنّ الأغراض من على الدرج كالمياه الغازية، الخبز، الخضار.

كانــت أمّــي أمام البــاب تساعد في هــذه الأعمال. أظلــم كلّ شيء أمامــي، ودار كلّ شيء فوق رأســي، ما إن رأتني أمّي حتّى أسرعت إليّ وقالت: «عزيزتي فرشته، هل أتيت؟ أين كنت؟ أأنت بخير؟».

فتحت باب المرحاض، أمسكت أمّي بيدي ودخلنا معًا إلى المرحاض الموجــود قبالة المدخل. حفّزت رائحة الكبــاب شعوري بالتّهوّع، وغليان مــا في أمعائي، غسلت وجهــي بكفّها مرّات عدّة، وتركتني أتقيأ قدر ما أستطيع.

عندمــا تحسّنت حالي وضعت رأسي في حضنها، كم كانت رائحتها طيبــة، جعلتني هذه الرائحــة أتحسّن، فضحكت أمّــي وقالت: «هيا يا ابنتــي، لا تتدلّعي!»، ومن ثمّ أمسكــت بيدي وأخذتني إلى غرفة النوم. أحضــرتُ مروحة ووضعتُها أمامي، خلعــتُ عباءتي وأغلقت عينيّ، كم أحببت أن أغطّ في سبات عميق.

دخل علي الغرفة وجلًا.

– عزيزتــي فرشته، وردتي، ماذا حصــل؟! أتريدين أن نذهب إلى المستشفى؟

وبإشارة من حاجبي وعينيّ أجبت بالنفي.

– أتريدين تناول الغداء؟

أجابته أمّي بدلًا عني: «إن حالها تضطرب بسبب رائحة الطعام».

قــال علــي منزعجًا: «ولكن يا وردتي هذا لا يصــحّ، عليك أن تأكلي شيئًا في النهاية، ماذا تريدين لأحضر لك؟».

قلت: «أريد تفاحًا».

كنت أرغب فقط في تناول التفاح. ذهب علي مسرعًا. كانت أصوات الملاعق والشوك المرتطمة بالصحون تُسمع من داخل غرفة الاستقبال، لم ترقني رائحة الكباب، فقلت لأمي: «أمّي باللّه عليك أغلقي الباب».

فجأة، شعرت بدوار، وانقلبت أمعائي، صار كلّ ما في الغرفة يدور من حولي، ثقلت جفوني، هرعت أمّي مضطربة إلى الخارج، سمعت صوتها تنادي: «سيّد علي، اتصلوا بالمسعف ليأتي، فرشته...».

دخل علي إلى الغرفة حاملًا بيده كيس نايلون بداخله 2 أو 3 كيلوات من التفاح الموشّح، ويرافقه رجلان يرتديان زيًّا كحليًّا، كان أحد الرجلين يحمل حقيبة صغيرة، وأمّي تشرح له ما حلّ بي. وصل الرجل بيدي مصلًا، وأفرغ إبرًا مقويّة داخله. مرّت حينها في ذهني رسمة علي والطلقات التي أصابت جناح الفراشة.

قال الرجل: «إن ضغطها منخفض جدًّا، دعوها تستريح».

أغمضت عينيّ وأحببت أن أغطّ في سبات عميق.

10

سبيل الشهادة هي الدموع

في الأسبوع التالي، بدأ المنزل يخلو شيئًا فشيئًا من الناس والأقارب إلّا منّا نحن الذين لم يكن لدينا مأوى، الجدّ والجدّة، الخال محمد، مريم وابنتها مونا ذات الأشهر الستّة، كذلك الحاج صادق وعائلته أيضًا بقوا في بيت السيّدة منصورة. ليلًا، كان كلّ واحد منّا ينام في أيّ مكان يجده. كان علي والحاج صادق معظم الأوقات ينامان على الشرفة، بينما أنام أنا والسيّدة منصورة ومريم ومونا في غرفة الاستقبال قرب باب الشرفة.

في إحدى الليالي، استيقظت منتصف اللّيل فرأيت علي في تلك الفينة يخرج من الشرفة ويمرّ من قربنا على مهل كي لا يوقظ أحدًا، أماط الستارة المعلّقة ما بين البهو وغرفة الاستقبال، ودلف باتجاه دورة المياه. ظننت أنّه سيعود بسرعة. انتظرته كثيرًا، لكنّه لم يرجع. نهضت ولحقت به، وجدته في البهو ساجدًا وكتفاه يهتزان من البكاء. جلست خلفه، واستندت إلى الجدار على نحو لا يشعر بوجودي. كم كان قلبه ممتلئًا بالشكوى، راح يبثّ مناجاته بحرقة خاضعًا مستكينًا. تفطّر قلبي لأجله، ما رأيته يومًا يبكي على هذا النحو! عندما استشهد أمير لم أرَ علي يذرف قطرة دمع واحدة. كان منذ الصباح وحتّى المساء يحنو على والديه ويشحذ همّتهما ويواسيهما ويمازحهما، لكن الآن ها

هــو يبكي ويبكي بحرارة. انتظرته كـي يرفع رأسه من السجود، ناديته همسًــا كــي لا يسمعني أحــد: «علي عزيــزي». استــدار ناحيتي، كانت نافـذة البهو مفتوحة، وأضــواء الزقاق تضيء المـكان، بحيث نستطيع رؤية بعضنا بشكل جيّد.

دُهش لوجودي وقال متعجبًا: «فرشته!».

أجبته: «حبيبي».

سألني: «ماذا تفعلين هنا؟».

- لا أستطيع النوم.

- هل ساءت حالك ثانيةً؟

- لا.

قــال: «أعلم أنّك لســت على ما يرام، أنت الآن أقرب إلى اللّه منّي، ادعي لي».

نظرت إليه متعجبة، كان لا يزال في صوته حجرشة بكاء وتابع: «لقد وعـد اللّه المجاهدين بالجنة، هنيئًا لأمير، استطاع بجهاد أربعة أشهر أن ينال أجره. أظنّ أنّ لديّ مشكلة، ثمّ أضاف متّهمًا نفسه بالتقصير، أنــا صاحب الدواهي العظمى مضــى على ذهابي إلى الجبهة 7سنوات وما زلت حيًّا أُرزق».

أجبته باكية: «علي، لا تكن جاحدًا».

شرّع مواجع فؤاده قائلًا:

- أنــا لا أكـذب يــا فرشته، فاللّه يعلــم أنّني لا أرغـب في ميتة على الفراشــ، أعلــم أنّ الحرب ستنتهي عاجلًا أم آجــلًا، وسيعود الجميع إلى منازلهــم ومعاشهــم، أمّا نحن الذين سيكتب لنــا البقاء على قيد الحياة سنموت ونعيش الحسرة كلّ يوم مئة ألف مرة.

- «علي، ما هذا الكلام! ارضَ بما يرضاه اللّه».

- «وأنتِ، أترضين بما يرضاه اللّه؟».

قلت واثقة: «نعم أرضى».

سألني بسرور: «وإذا استشهدت فهل ترضين أيضًا؟ ألن تحزني؟!».

تمهلت قليلًا، ثمَّ قلت له:

- أيّ حزن؟! سأموت حزنًا عليك، أنت زوجي، أعزّ إنسان لديّ، أنت نصف وجودي، نحن نحبّ بعضنا البعض، أنت والد طفلي، إن مجرّد التفكير في ذلك لأمرٌ صعبٌ عليّ، لكن عندما يكون أمر اللّه فأنا سأصبر وأرضى.

سُرَّ لإجابتي فسألني بلهفة: «حقًّا ما تقولين؟!»، بكيت لهذا الكلام.

لم ينتظر جوابي، بل تابع قائلًا: «فرشته، إن هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ستنتهي يومًا ما. سنموت جميعنا في النهاية، وفرصة الشهادة هي في هذه الأيّام المعدودة».

بعد ذلك جلس باتجاه القبلة ورفع يديه بالدعاء قائلًا: «إلهي، أنت مطّلع على كلّ حاجات عبادك، وأنت تعلم أنّ الموت على الفراش بالنسبة إليّ مذلّةٌ وهوانٌ، إلهي اجعل الشهادة من نصيبي».

ما بكى علي يومًا أمام أحد قطّ. ففي ذروة الحزن والغم كانت أوداجه تنتفخ، لكنّه لم يكن يبكي، بينما في هذه المرة بكى أمامي وقال بحسرة: «عندما استشهد مصيّب رأيته في نومي، أمسكت بيده وقلت: «مصيّب لقد جرّبنا كلّ السبل معًا، باللّه عليك أخبرني عن هذا السبيل الأخير الذي لم أفلح فيه»، لم يجبني مصيّب، أمسكت يده بإحكام، كنت أعلم أنّه إذا أمسك أحد في المنام بيد ميت وأقسم عليه فسيجيبه عن أيّ سؤال يسأله إيّاه: «لن أفلت يدك ما دمت لم تخبرني

عـن السبيل الأخـير»، برأيكِ ماذا قال لي مصيّب؟ قـال: «إن السبيل لذلك هو الدموع»، الدموع، يا فرشته، إن سبيل الشهادة هو الدموع».

ثمّ رفـع يديه ثانية بالدعاء وقال: «إلهـي، إذا كنت تعطي الشهادة بالدموع فاقبل دموعي وبكائي أنا العاجز العاصي».

بعـد شهادة أمير تبدّلت أحوال علي كثيرًا. وأضيف «سبيل الدموع» إلى خصالـه الجديدة أيضًا. صار كثير الصمـت، حييًّا ومنطويًا على نفســه، فلا شقاوة ولا مزاح ولا صخب، قلّ مطعمه وهزل جسده، لكنّه صـار أكثر حنانًا ورحمة، كذلك هجر النوم وصـار بكّاءً يمضي لياليه بالتهجّد والصلاة.

بعـد انتهاء مراسم أربعين أمير، ومـن أجل تغيير معنويات السيّدة منصورة والسيّد ناصر، نسّق علي مع عدد من أصدقائه لزيارة مشهد، وشاركنـا عـدد من عوائـل الشهداء في هـذه الزيارة، فعائلـة الشهيد ترنجيـان تصاحبت مع السيّدة منصورة والسيّد ناصر، وساعدتنا في تغيير الأجواء المعنوية لهما.

عندمـا عدنا من مشهد ذهب علـي إلى الجبهة، لم تتحمل السيّدة منصـورة ذلـك، فذهبـت إلى منـزل الحاج صـادق واضطُـررت إلى الذهاب معها.

صـادف قـدوم شهر أيلـول 1987. مع بداية شهر محـرم الحرام. وعلى حدّ قول علي إنّه منذ 7 سنوات كانت هذه المرة الأولى التي يُمضي العشرة الأوائل من محرم في همدان. في كلّ ليلة كان يذهب إلى مكان ما من أجل المشاركة في التعزية، ومن ثمّ يعود بعد منتصف اللّيل.

كنت أنا وأمّي وأختاي نذهب إلى هيئة الحرس في السنوات الماضية، فهيئة الحرس جيّدة، وبرامج التعزية فيها أفضل من الأماكن الأخرى.

في إحدى الليالي قال علي: «فرشته، أنا أريد الذهاب إلى هيئة الحرس، أتأتين معي؟».

وافقت بسرور؛ لأنّني تذكّرت ذكريات السنين الماضية، والنشاط الروحي الذي رسخ في ذاكرتي حول مراسم العزاء تلك.

في تلك السنة دهم البرد همدان من أواسط أيلول، كان الطقس يشتدّ بردًا في الليالي أكثر. ولأنّنا لم يكن لدينا مأوى ثابت لنعيش فيه، لم أعرف أين وضعت ملابسي الشتوية، فأعطتني السيّدة منيرة سترة سوداء كبيرة لأرتديها. ركبنا السيّارة وذهبنا.

اتشحت المدينة بالسواد، وعُلّقت الرايات واللافتات السوداء والحمراء على الأبواب والجدران. ركن علي السيّارة في مكان قريب من مستديرة ضريح «بابا طاهر». وكالعادة حدّدنا مكانًا لنلتقي فيه عند العودة قبل أن نترجّل من السيّارة؛ لأنّنا كنّا لا نزال نطبّق قانون همدان[1]، خاصّة أنّنا كنّا ذاهبين إلى الحرس، وخلال الطريق هناك الكثير من الأصدقاء والمعارف.

قبل النزول من السيّارة قال علي: «فرشته، ادعي لي».

أجبته: «أنا دائمًا أدعو لك».

قال: «كلّا، لا تدعي أن أعود سالمًا معافىً، ادعي لي أن أستشهد سريعًا».

نظرت إليه بتجهّم.

أردف بحزن: «أنتِ الآن ذاهبة إلى مجلس الإمام الحسين عليه السلام، وأنا منذ أول الحرب اقتديت بسيّد الشهداء عليه السلام وذهبت إلى الجبهة. أريد اللّيلة أن آخذ صكّ الشهادة منه، أتيت ليمنحني لياقة الشهادة

1- أن لا نمشي معًا في همدان كي لا يرانا أحد من عوائل الشهداء.

وأهليّتهـا، لكنّني أعلم أنّه إن لم يتّحـدْ قلبك معي، ولم تدعي لي، فلن أصل إلى أيّ نتيجة، فرشته وردتي ادعي لي».

أحنيـت رأسي ولم أنبس ببنت شفة. كان من الطبيعـي جدًّا أن لا أحمـل كلامه هذا على محمـل الجدّ في تلك اللحظـات، ففي أيّ وقت وعندما يتحدّث عن الشهادة كان يرتجف قلبي.

غمرتـه حال عجيبة عندما قـال: «فرشته، أتذكريـن عندما قلتِ: ارضَ بما يرضاه اللّه، إذا لم يرضَ اللّه عن أعمالنا، ولم يقبل جهادنا، فسنخسـر خسرانًا مبينًا، لا أعلم أبـدًا إن كنّا سننقلب إلى ربّنا بيض الوجوه ومفلحين أم لا! لكنّني تعبت من هذه الدنيا التي تشبه القفص. اطلبـي لي من الإمام الحسين عليه السلام في هذه اللّيلة أن يساعدني لأحطّم هذا القيد كبقية الشهداء الذين كسروا قفص الدنيا ورحلوا، كمصيّب مجيـدي وأمير، كالإمـام الحسين عليه السلام نفسـه. سأذهـب اللّيلة لأقول مجدّدًا لأبي عبد اللّه: «لبيك»، ولأعيش كالحسين حتّى آخر لحظة من عمري. وكما تقولين الباقي على اللّه، رضًى برضاك يارب».

بعد أن أنهى علي كلامه تنفّس الصعداء. ترجّلنا من السيّارة وأقفل بابها، بدا كأنّه يحلّق، كان يتقدّم بسرعة، مهما حاولت الوصول إليه لم أستطع. كانت تهبُّ رياحٌ باردة، وعليّ أصبح في الأمام وقد تقدّم كثيرًا. كان كثـير مـن الناس يسيرون على الطريق، لكنّنـي ما كنت أرى سوى عليّ من بينهم جميعًا بقميصٍ أسود وأكتاف قويّة يتقدّمُ إلى الأمام.

11

الحياكة

حلّ خريف همدان ابتداءً من أواسط أيلول، حاملًا معه الرياح والبرد، وانطلق علي إلى الجبهة بعد اليوم العاشر من المحرّم.

بقيتُ خلال هذه المدّة في منزل السيّدة منصورة. أغلقنا النوافذ باكرًا في وجه البرد، وأخرجنا الألبسة الشتوية من الصرر. قست الريح على أوراق الأشجار الخضراء فأسقطتها عنوة قبل أن تصفرّ، وعرّت الأشجار باكرًا.

علم الجميع أنّ خريفًا وشتاءً طويلَين ينتظراننا، فأمضينا ليالي الخريف الطويلة بحياكة ألبسة المولود المرتقب. أخرجت السيّدة منصورة من خزانتها صنّارتيها وراحت تحيك كنزة جميلة لحفيدها على لحن أهزوجة دندنتها بحزن.

كذلك علّمت السيّدة منيرة كيفية الحياكة بالصنارة، ورحنا نحيك معًا أطقُمًا عدّة من الكنزات والبناطيل والقبعات للمولود المرتقب.

12

الرمان المشقوق

كان الوقـت عصر الثامن عشر من تشرين الثاني. أراد علي الذهاب إلى الجبهـة ليـلاً وهو الذي أتى إلى همدان منـذ أيّام عدّة فقط. حاول خـلال هذه الأيّام المعـدودة أن يعطف قدر المستطاع على والديه. ساءت حال السيّدة منصورة أكثر بعد شهادة أمير، وأخذ كلّ يوم يعتلّ جزء من بدنها، لكن مشكلة كُليتَيها كانت الأسوأ وتردّت أكثر يومًا بعد يوم.

نقلهـا علي مرّات عدّة إلى المستشفى، وتحـدّث إلى أطبّاء ماهرين وذوي خبرة حول موضوع مرضها، لكنّه لم يحصل على نتيجة.

كنّـا جالسين في البهو. نهض علـي ورفع أكمام كنزته، وطوى أسفل بنطالـه طيّات عدّة وذهب ليتوضأ. كان يتوضأ دائمًا في المطبخ، تبعته إلى هنـاك، وكأنّ هاتفًا ظـلّ يردّد في مسمعي: «فرشتـه، انظري إليه جيّـدًا». نظرت إليـه، وحدّقت في تلك القامـة الرياضية، وإلى منكبَيه العريضَـين. كان عنقـه عريضًا ومفتـولاً، لصيقًا برأسـه من الخلف، وساقـاه الممتلئتـان البيضاوان باديتـين للعيان، وكعبـا قدميه بارزين بلونهمـا الزهـري. عندما كان يمشـي في البيت كأنّما يتـد في الأرض قدمه. مسـح على رأسه وقدميه ظنّ أنّني أريـد أن أتوضّأ مثله، ابتعد عن حوض الجلي ليفسح لي المجال، ورحت أراقب كلّ حركاته وسكناته بدقة، وأحسست أنّه ينبغي لي أن أحفر تلك التفاصيل في ذاكرتي.

دلف إلى غرفـة الاستقبال، وأخرج من جيب قميصه رقعة صغيرة كان يحفـظ في داخلهـا سجدة على الدوام. وشـرع في الأذان والإقامة بصوت شجيّ. لحقتُ به وجلست خلفه، نظرت إليه بحزن، كان يصلّي ملـويّ العنق ويردّد في قنوته متضرّعًـا: «اللهم ارزقني توفيق الشهادة في سبيلك».

عندما أتمّ صلاته جلس بجانب السيّد ناصر، وشرع في توصيته:

- أبـي العزيـز، قد أتأخر هذه المرّة في العـودة، ولعلّه بعد شهرين، حتّـى إنّنـي قد لا أستطيع المجـيء من أجل الولادة، لقـد أوصيت أحد الإخـوة أن يحضِر لفرشته سمنًا حيوانيًّا مـن القرية، وكذلك خروفًا، إن لم أكن موجودًا اذبحوه وقدّموه أضحية من أجلها.

عندما انتهت توصياته، تقدّم نحوي وقال:

- فرشته، أحضري الألبوم خاصّتي.

أحضرت الألبوم من الغرفة، عندما أردت الخروج منها اصطدمنا ببعضنا البعض لدى الباب. ضحك وقال: «تعالي واجلسي هنا».

جلسنـا. فتح علـي الألبـوم وراح يتصفّحـه، كان ينظـر إلى صور أصدقائـه الشهـداء ويتـأوه قائـلاً: «أين الشهيـد نظـري[1]؟ الشهيد تكرلي[2]! يا لذكراك الطيّبة شهيد شاه حسيني[3]!».

انتفخت أوداجـه، وتضرّج وجهه حمرةً، وتلألأت الدموع في عينيه.

1- حميد نظري: ولد في 1 تير 1346 في قرية سهل مرادبيك في همدان، واستشهد في 20 شهريور 1365 عندما كان غواصًا وعضو فريق الاستطلاع في جزيرة مجنون.

2- هاني تكرلي: ولد في 3 خرداد 1342 في قرية بيغش ملاير. كان في قوات الاستخبارات لعمليات لواء أنصار الحسين عليه السلام واستشهد في 30دى 1362 في منطقة قصر شيرين.

3- الشهيـد علـي شاه حسيني دستجـردي: ولد في همدان بتاريـخ 11/4/1954 واستشهد بتاريخ 9/ت2/ 1977 في منطقة عمليات ماووت في العراق.

أخذت الألبوم لأضعه جانبًا، فشدّه من يدي وقال: «وردتي، دعيه، هذا الألبوم كلّ حياتي، إنّه سبب بقائي وجهادي».

– «إنّك تؤذي نفسك».

تقاطرت دموعه على خدَّيه قطرةً قطرة.

– فرشته، لقد كان هؤلاء جميعهم عشّاق أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لقد تصبّبوا عرقًا لأجله، وأصيبوا بجراح كثيرة، أرقوا دمًا كثيرًا، عطشوا وجاعوا، اكتووا تحت حرّ اللّظى، لكنّهم لم يقولوا تعبنا، عطشنا، نشعر بالنعاس، حتّى مرّة واحدة. أنظر إلى هذه الصور حتّى إذا ما بقيت حيًّا لا أنسى الشهيد قراكوزلو[1] الذي كان يقوم اللّيل ليصلّي، ويقرأ زيارة عاشوراء، ويناجي بحرقة، بدلًا من النوم والراحة. أنظر إلى هؤلاء حتّى إذا ما تمنيت في إحدى المرات أن يكون لديّ منزلي وحياتي أتذكّر مصيّب وهو يقول: «لا تأملوا كثيرًا؛ لأنّ الموت يضحك من أمانيكم»، لأتذكر أنّ اليوم هو ليس وقت أمانيّ وليس وقت كلام، علينا أن نعمل، فكلّ من لديه رأس عليه أن يقدّمه هدية، ومن لديه يدان أن يفتدي بهما، وإن كان عجوزًا ولا يستطيع المجيء إلى الجبهة عليه أن يدافع عنها.

كنت أعلم أنّه حزينٌ ومتعبٌ، فعلى حدّ تعبيره لقد استشهد منذ أول الحرب ما يقارب كتيبة من أصدقائه. جلست بجانبه، ورحنا ننظر إلى صور الشهداء. كان يذرف الدموع أمامي من دون تكلّف، بينما كنت أبكي لبكائه.

عند المساء تناول عشاءً بسيطًا، ثمّ قال: «وردتي، أريد أن أنام، أيمكنك إيقاظي عند الساعة 2:30؟».

1- محمد مهدي قراكوزلو: ولد في همدان في 20 آذر 1343. كان من وحدة الاستخبارات للعمليات. استشهد في فاو العراق، وكذلك استشهد أخوه مصطفى بتاريخ 7/8/1365.

في كلّ مـرّة قبل ذهابه إلى الجبهة بعدّة ساعات كانت هموم الدنيا تنصـبّ كلّها على قلبي. تلبّدت أفكاري وتشوّشت، ولم أطق فعل شيء. هيّـأت له الفراش وأطفأت نور الغرفة وتركتـه ينام. كنت أعلم أنّه لن يغفو في السيّارة حتّى الصباح.

خرجت من الغرفة، كانت السيّدة منيرة في المطبخ، أمّا السيّدة منصورة والسيّد ناصر والحاج صادق فكانوا يشاهدون التلفاز. عرض التلفاز برنامجًا وثائقيًّا عن الشهيد خرازي، اقتربت عدسة الكاميرا على وجه ابنه الصغير مهدي بينما كانت زوجته تروي ذكرياتها مع الشهيد.

فجـأة، ارتجـف قلبي وتغيّرت أحـوالي، فكّرت في نفسـي -وليُقطع لسـاني- أيعقل أن يستشهد علي ويصبح ولدي هكذا؟! نهضت وذهبت إلى الغرفـة، أضـأت مصباحهـا. كان علي قد غفا بسرعـة، لقد كان نومه عميقًا لدرجة أنّ ضوء الغرفة لم يوقظه. جلست عند رأسه بقلب كسير. تذكّرت العصر، كيف غصّ حزنًا من أجل أصدقائه الشهداء.

كـم كان شكلـه بريئًا وهو نائـم!! وكأنّ هاتفًا ظـلّ يطرق في أذني: «فرشتـه، حدّقـي فيـه جيّـدًا. فرشته، احفظـي ملامح هـذا الوجه، وتفاصيله، احفظيها إلى الأبد».

حدّقـت في وجهه مليًّا، وفي كلّ خطوط تجاعيد جبينه وحول عينيه، يـا إلهي! إنّه في الخامسـة والعشرين من عمره، فما كلّ هذه التجاعيد على جبهته!!

كانـت قدماه ظاهرتين من تحت الغطاء. نظرت إليهما جيّدًا كي لا أنسى شـكل أصابعه البيضاء. بدت قدماه البيضـاوان كقطعة بيضاء رقيقة مدّت على العروق الزرقاء الكثيرة التي تشبه شجرة قوية. أردت أن أحفـظ كلّ تفاصيل جسده، عليّ أن أحفـظ شكل ذينك الساعدين

المفتولين، ذاك القد الممشوق، تلك الذقن المرخاة الشقراء، العينين الزرقاوين، الحاجبين المبعثرين والكثيفين، الشعر المبعثر الذي لم يُسرّح جيّدًا أبدًا. كيف كان حاجباه يسترسلان بسرعة!! أحيانًا كنت أحمل المقصّ وأركض خلفه قائلة: «دعني أقصّ لك حاجبيك»، لم يدعني أفعل ذلك، لم يستسلم لتقصيرهما، بل كان وبإصرار منّي يرطّب أصابع يديه بلعابه ويمسح على حاجبيه فينتظمان.

تلك العينان الزرقاوان لم تهنئا يومًا بنوم عميق، كان ينام وكأنّه يغمض عينًا وتبقى العين الأخرى مستيقظة. لكنّه في تلك اللّيلة! كم كان نومه عميقًا! جلست فوق رأسه وقتًا طويلًا، ثمّ نهضت وخرجت.

أغلقت حقيبته. كنّا في موسم الرمان واليوسف أفندي، فوضعت له رمانتين كبيرتين مشقوقتين داخل الحقيبة. كان الحاج صادق والسيّدة منيرة والأطفال في غرفة نومهم، بينما السيّد ناصر والسيّدة منصورة نائمين في البهو.

ذهبت إلى المطبخ. جليت الصحون وبكيت، مسحت الخزائن، ولم أستطع النوم. لم تكن حالي جيّدة، انقلبت أحوالي مجدّدًا، أردت أن أتقيأ ثانية، ورحت مع ذلك البطن الممتلىء[1] وتلك الحال أشطف أرض المطبخ المصنوعة من السيراميك الأبيض.

كم أحببت أن يصبح لديّ منزل بسرعة، فقد سئمت من الإزعاج الذي نسببه لهذا وذاك. كلّا، لست سئمة، كذلك لا اعتراض على ذلك، ما دام أنّ علي موجود فأنا مستعدّة لأن أعيش إلى جانبه هكذا طول عمري.

جفّفت الصحون ووضعتها في الخزانة. لم أستطع النوم ولم أرغب

1- في الأشهر الأخيرة من حملها. (المترجم)

في ذلـك. كنت أنظر إلى الساعة في المطبخ بعجالة ويزداد اضطرابي. وضعـت شـادوري علـى رأسي، ومن ثـمّ ذهبت ووقفت علـى الشرفة، فهبّت ريح باردة. كانـت أضواء المنزل المجاورة مطفأة، قلت في نفسي هنيئًا لمن ناموا منعّمي البال. كان الطقس باردًا، باردًا جدًّا، لم أستطع تحمّل لسع البرد، فعدت إلى الداخل. تمشّيت في المطبخ والبهو وغرفة الاستقبال وأنا مشوّشة الفكر مبلبلة الخاطر.

عدت إلى الغرفة، وجلست قرب رأسه، كان المصباح مطفأً والغرفة مظلمـة، كان يكفيني أن يكون موجودًا داخـل الغرفة ويتنفّس. هدأت، وأحببـت أن يتوقّـف الزمن عند تلـك الحال وأن لا يتقـدّم إلى الأمام مطلقًا، إلّا أنّ عقارب الساعة كانت تعاندني وتدور بشكل أسرع وأسرع وأسـرع مـن ذي قبل. بلـغ الوقت الثانيـة والربع بعد منتصـف اللّيل. وضعت يدي على كتفيه وهززتهما بلطف.

- علي، علي حبيبي انهض.

استيقظ على الفور، استوى على السرير وسأل وجِلًا: «كم الساعة؟».

أجبته بهدوء: «لا تقلق، إنّها الثانية والربع».

نهض وتوضّأ، ارتدى ملابسه، وناولته الحقيبة بيده قائلة:

- لقد وضعت لك في الحقيبة رمانتين للذكرى. تذكّرني مع كلّ حبة رمان تأكلها، بالله عليك تعال هذه المرّة سريعًا!

نظر إليّ وقال: «سآتي، سريعًا جدًّا، ولكن لا تخبري أمي».

سألته: «مثلًا متى ستأتي؟».

- سريعًـا، بعد أيّام عدّة، فليبق ذلك بيننا ولا تخبري أحدًا، وكحدٍّ أقصى إن طالت غيبتي كثيرًا فلأسبوع فقط.

سررت لهـذا الكلام. استيقظت أيضًا السيّـدة منصورة فقال علي

منزعجًا: «أماه، لماذا استيقظت من نومك؟ لا داعي للوداع كنت سأذهب إليكِ بنفسي».

انحنى علي وقبّل وجه أمه. وضعت السيّدة منصورة يدها حول رقبته وضمّت رأسه على صدرها قائلة: «حبيبي علي، انتبه لنفسك، اذهب بأمان اللّٰه».

قال لها: «أمّاه، انتبهي لنفسك».

استيقظ كذلك السيّد ناصر فقبّله علي أيضًا وقال: «أبي انتبه لكلّ شيء، ولا تنس الوصايا، انتبه لأمي».

ربّت علي على كتفَي أمّه وقبّل وجهها ثمّ نظر إلى ساعته. ربط شريط حذائه على عجل، ثمّ قال لي وللسيّدة منصورة: «ادخلا أنتما إلى الداخل، فالطقس بارد».

لكننا تبعناه رغم البرد القارس. كنت أرتدي لباسًا رقيقًا، فارتجفت من البرد وراحت أسناني تصطك ببعضها البعض. كانت السيّارة مركونة في الزقاق، خنقتني العبرة وأردت أن أصرخ وأقول: «علي لا تذهب! علي! من أجلي ومن أجل طفلك لا تذهب!».

رغبت في الصراخ: «أيها الجيران! استيقظوا! لا تدعوا زوجي كلّ سعادتي يذهب! باللّٰه عليكم فليعترض طريقَه أحد!».

ولكن، بدلًا من كلّ هذا، قلت له عند الوداع والغصّة في عمق حلقومي كالعادة: «علي حبيبي، لا تنس أن تشفع لنا، من أجل...». خجلت أن أقول شيئًا عن الطفل أمام السيّدة منصورة، فقلت بصوت خافت: «عُد بسرعة».

نظر إليّ مبتسمًا: «وردتي فرشته، حبيبتي سامحيني».

ثمّ فتحت السيّدة منصورة ذراعَيها ثانية وعانقته مليًّا. قبّلْته عشر

مـرات، وشمّتـه. كنت واقفة أنظـر إلى تلك القبلات. وضـع رأس أمه علـى صـدره وهمس شيئًا في أذنهـا، لكنّه كان يوجه نظـره إليّ، حدّق في بطنـي وبدا قلقًا، قلقًا عليّ وعلى طفله. أكان يوصي والداه بنا؟! لم أسمع همسه، ذهب بسرعة وجلس داخل السيّارة، شغّل المحرك، دارت السيّارة، وضغط على دواسة الوقود وانطلق. كم حوت تلك السيّارة من ذكريـات لنا. انطلقت السيّارة وهـو يلوّح لي بيديه، لكنّه فجأة انعطف وعـاد من منتصف الطريق. عاد بهـدوء وعبر من جانبنا، أنزل زجاج النافذة وقال بقلق: «ادخلوا إلى الداخل، فالطقس بارد».

بقيـت واقفـة حتّى انعطفت السيّـارة باتجاه الشـارع. كنت أراه في اللّيل المظلم يلوّح لنا بيده. دخلنا مع السيّدة منصورة إلى الداخل. كم صـار المسير من الفناء حتّى المبنى طويلًا. لم ينبس أحدنا ببنت شفة، وبصمت عميق أطفأنا الأنوار بحزن وهدوء.

نمت علـى سرير علي وغطّيت رأسي بالغطـاء، كانت رائحته تفوح مـن الغطاء والسرير، فبعد الآن لن تسبّب لي هذه الرائحة حال تهوّع، فشممت وشممت، وأجهشت بالبكاء تحت الغطاء.

13

العيش مع رجل ذي مروءة

ليلة واحدة أفضل

من العيش مع رجل عديم المروءة كلّ العمر

في ليلة الخامس والعشرين من تشرين الثاني، كنّا ما زلنا نقيم في منزل الحاج صادق. كان علي قد قال لي قبل مغادرته إلى الجبهة: «ابقي عند والدتي أثناء غيابي، فبوجودك معها ستشعر بوجودي قربها». ولأنّه كان قد أخبرني أنّه سيعود بعد أسبوع فضّلت انتظاره، وأن لا أذهب إلى أيّ مكان.

في تلك اللّيلة شعرت بالاضطراب ولم يغلب عليّ الكرى. لجأت إلى غرفة الاستقبال، وتناولت من المكتبة كتابًا للأستاذ مطهّري، قلّبت صفحات عدّة منه من دون أن أعي منها شيئًا. لم أستطع التركيز مهما حاولت، رحت أقلب صفحة واحدة كلّ نصف ساعة، تركزّ نظري على الكتاب، لكن تفكيري شتّ في مكان آخر.

أخرجت دفتر مذكّراتي وأشغلت نفسي بكتابة مقاطع من الكتاب. تذكّرت اللّيلة الأخيرة وتلك النظرات العميقة، خالجني الروع، لماذا حاولت تلك اللّيلة أن أحفظ كلّ تفاصيل وجهه؟ ربما شعور ما حينها

قـد أُلهِم إليّ إلهامًا. فكرت في نفسي: كلّا، لا ينبغي أن تراودني أفكارٌ سيّئة. لقد أخبرني بنفسه أنّه سيأتي سريعًا. إذا كان سيأتي فلماذا لا أنام؟ لماذا أنا مضطربة إلى هذا الحدّ؟ واسيت نفسي قائلة: «فرشته، لا ينبغـي أن تراودك أفكار سوء، فهذا ليس محمودًا للطفل، وبالتأكيد فهـذا الاضطراب طبيعيٌّ، وهو مـن عوارض الحمل. وهذا القلق أيضًا له علاقة بالحمل، فكلّ النساء الحوامل يشعرن بهذا الاضطراب».

وبينما نحن نتناول الفطور، انتبـه السيّد ناصر إلى تعبي ونعاسي، سألني عن ذلك فأجبته: «لم أنم ليلة البارحة، كنت مضطربة».

وكالعادة واساني بحنوّه الأبوي. حاولت أن أعدّل مزاجي، وهل رنين الهاتـف يسمح بذلـك؟! كان يرن من دون توقّف منـذ الصباح الباكر يطلبون الحاج صادق.

لم يذهـب الحـاج صادق إلى عمله، هـدّأت من روعـي وعلّلت ذلك أنّـه ربما يكون لديهم عمل ما معه، ولكن أيمكـن خداع القلب! لقد عمّ الضجيـج كيـاني، قلت في نفسـي: «لا مشكلـة، إن عمل الحـاج صادق حساس بعض الشيء، فالمسؤولية هكـذا، إن لم يذهب يومًا إلى العمل سيتضعضع كلّ شـيء، وسيضطرون إلى الاتصال به لمشاورته في بعض الأمـور»، لكـنّ هاتفًا في داخلي صـار يردّد: «حقًّـا! لمَ لمْ يذهب الحاج صـادق إلى عمله؟»، تشاجرت مع نفسي قائلـة: «وما دخلك أنتِ؟ أأنت مفتش! لم يذهب فلا يذهب! لا يرغب في الذهاب، يريد البقاء في المنزل يومًا للراحة».

لكـن، ليت رنـين ذاك الهاتف اللعين يتوقّـف، تسمّرت إحدى عينيّ على الباب، والعين الأخرى على فم الحاج صادق الذي كان يتكلّم على الهاتـف بعيدًا عن البقية بشكل مثير للريبة. لماذا لم يفتح الباب أحد؟ لماذا لم يأتِ عليّ؟ لقد قال بنفسه إنّه سيأتي خلال أسبوع. كم كان يوم

الأربعاء قاسيًا.

انتظـرت نهار الخميس كـي يُفتح الباب منذ الصبـاح الباكر، لقد وعـدني علي أنّـه سيعود سريعًا، وها قد مضـت 7 أيّام على ذهابه، لم يقـل يومًا إنّـه سيعود بسرعة على هذا النحو مـن اليقين، كم ساورني القلق! ولماذا طلب منّي أن لا أخبر والدته؟

خـرج الحاج صادق يوم الخميس من البيت باكـرًا، ولم يقرّ للسيّد ناصر قرار. بدا منقبضًا ومرتبكًا، كان الهاتف مقطوعًا ولا يرنّ، وظلّ الهاتـف ذاته في داخلي يجلـب لي الأخبار السيّئة، وينبئني أنّ مكروهًا قـد حصل، لكنّني تظاهرت بأنّني لا أعلـم شيئًا، وأخذت منّي الحيرة كلّ مأخـذ. كنت دائمًـا أحدس تصرفات الآخريـن المشكوكة والمبهمة جيّدًا، انقبض قلبـي، وسدّت الغصّة مجرى حلقومي، أحببت أن يقول أحد لي: «فوق عينيك يوجد حاجبان[1]»، كي أبكي، لكن كان كلّ فرد منّا منطويًا علـى نفسه، وأطبق على المنزل صمت مريب. يا له من خميسٍ قاسٍ وحزين!!

عنـد صباح يـوم الجمعة، جاء والـدي في أثري. مـا إن رأيته حتّى دبّ الخـوف في قلبـي؛ إذ لم يسبق أن أتى أحد من أفـراد عائلتي إلى منـزل الحاج صادق من قبل، حدسـتُ أنّ مكروهًا قد حدث بالتأكيد. حاول أبي أن يُظهر نفسه أنّه بحال طبيعية، لكن الاضطراب كان يمور من خلف هاتين العينـين العطوفتين باستمرار. وقف لدى الباب وقال: «فرشتـه، لدينا ضيوف، لقد جاء عمّك وقالت أمك أن تأتي أنتِ أيضًا لتناول الغداء معنا، لنجتمع معًا على مائدة الطعام».

كانت سيّارة رينو بيضاء اللون متوقّفة أمام باب المنزل. جلس خلف

1- كناية عن الأمر الواضح والجلي. (المترجم)

المقـود رجل لا أعرفـه، وباضطـراب كبير ذهبت وارتديـت ملابسي، وعدت لأجلس في المقعد الخلفي.

قلت لأبي: «من المقرّر أن يأتي علي اليوم؛ لذا عليّ العودة بسرعة».

لكنّـه لم يلتفـت لينظر إليّ حتـى! داس الرجل علـى دواسة الوقود واتجه بنا من تلك الشوارع الباردة والخالية نحو المنزل. كانت الأشجار اليابسة والعارية متجمّدة بطبقة رقيقة من الثلج.

وصلنا إلى المنـزل، ولم يكن أثرٌ لعمّي أو للضيوف. كانت أمّي تذرع الأرض مشيًا في فنائنا الصغير، ما إن رأتني حتّى هرعت نحوي، وقبل أن تقول شيئًا سألتها: «أمي، ماذا حصل؟ أخبريني الحقيقة».

استنجـدت نظراتها بأبي وقالت بصعوبـة بالغة: «لا شيء، لا شيء إنّما... إنّما».

صرخت: «إنّما ماذا؟!».

فـرّ اللون من وجههـا، بينما رؤيـا ونفيسة كانتا تنظـران إلينا من خلف ستائر النافذة بقلق.

قالـت أمّي بهـدوء: «لا تفزعـي، لم يحصل شيء لقـد أصيب علي بجروح قليلًا فقط».

لا أدري مـاذا أصابني، غضبت بشدة وقلت: «حسنًا جُرِحَ فليُجْرح! مـاذا تعني لعبة القـط والفأرة هذه؟! فليست المـرة الأولى التي يُجْرح فيها، لقد جُرِحَ حتى الآن مئة مرة!!».

خرجـت الكلمات من فـم أمّي بصعوبـة، قالت على نحـو متقطّع: «ولكن، هذه المرة تختلف عن سابقاتها، يده! يده... لقد قطعت».

فجـأة فكّـرت أنّه ليـس بالشيء المهـمّ، فقلت: «حسنًـا قُطِعَت يده فلتُقْطَع، فلا إشكال في ذلك، على أيّ حال هو حيّ».

نظـرت أمّــي إلى أبــي نظـرات يأس ومسكنــة فقال أبــي: «فرشته عزيزتي، ليت يده فقط قد قُطِعَت، لكنّ قدمه أيضًا قد قُطِعَت».

في تلك اللحظة فكّرت أنّه لو قُطِعَت كلّ أطراف بدنه إربًا فلا ضير في ذلك. أريده حيًّا فقط، فأجبت أَبي بسرعة: «لا ضير في ذلك»، ومن ثمّ أجهشت بالبكاء.

– أقســم باللّه لا يهمّنــي حتّى لو قطعت كلتا يديــه، ولو قطعت كلتا قدميــه أيضًا لا مشكلة بالنسبة إليّ. أخــبروني فقط، هل هو على قيد الحياة!! باللّه عليك يا أبي أخبرني هل هو حيّ؟

أشـاح والدي بوجهه إلى الجهة الأخرى كي لا أرى دموعه. قال وهو يغصّ بالبكاء: «فرشته حبيبتي، أتدرين ماذا حصل؟».

تصلّبــت شرايــين صــدري وأجتثّ قلبــي من بين أضلاعــي، يمّمت وجهي شطر السماء الباردة المتجمّدة وقلت: «يا إلهي... لماذا لا يخبرني أحدهــم بالحقيقــة! أنا أعلم، أعلم أنّ علي قــد استشهد، يا إلهي ماذا أفعل الآن؟».

نظرت إلى أمّي وأبــي ورجوتهما بعجز: «أليس كذلك يا أمّي! أليس كذلك يا أبي! لقد استشهد علي؟! أليس كذلك».

بكــت أمّــي بمرارة، واتخــذ أبي زاويــةً في الفناء وأســند رأسه إلى الحائــط، أمّــا رؤيا ونفيســة، فأسدلتــا الستــارة، وانسلّتــا إلى داخل الغرفة. جلست على الأرض الباردة. أردت أن أتشبّث بالأرض وأقبض قبضةً من التراب وأهيله على رأسي، ولكن لم يكن بين يدي سوى بلاط السيراميك المتجمّد.

انحنيــت ناحية الجنينــة، وقد غطّت طبقة ثلج رقيقــة وجه ترابها. كانــت يــداي تبحثان عن شــيء في الــتراب عبثًا. لم أرغــب في البكاء،

نشجـت قائلة: «كنـت أعلم، لم يُخلـف علي في وعده مطلقـًا، كان يفي بوعـده دائمًا. ولكن، علـي حبيبي، لقد قتلني الانتظـار، لقد انتظرتك منذ ليلـة الأربعاء، لقد وعدتني أن تعود في ظـرف أسبوع، علي حبيبي أيها المجحف، اليوم هو يوم الجمعة، ألم تقل إنّ فرشته لا يمكنها تحمّل ذلـك! ألم تقـل إنّ فرشته ليست على ما يرام! ألم تقل إنّ كلّ هذا القلق والاضطراب سيؤذي فرشته، ماذا أفعل من دونك!».

تقدّمـت أمّي وأمسكت بذراعي، كان وجهها قد اختفى وراء طبقة مـن الدموع، قالت بصعوبة: «انهضي عزيزتي، فديتك نفسي! انهضي فالأرض باردة، سوف تصابين بالزكام يا حبيبتي».

لم أهدأ ولم يقرّ لي قرار، شعرت برغبة في الذهاب إلى مكان بعيد، إلى مـكان لا توجد فيه أنباء كهذه. ماذا عساي أفعل؟ نهضتُ وسألت: «أتدري السيّدة منصورة بذلك؟!».

أومأتْ لي برأسها، فقلت: «لنذهب إليها».

تقـدّم أبي، وقد تلظّـت عيناه كالجمـر، لم أرَه على هذه الحال من قبـل. نفضتْ أمّـي شادوري وقبّلتنـي. كان وجهي نديًّـا. قلت لوالدي: «أبي، أتذكر ماذا قلت لي ليلة العرس؟».

هزّ رأسه والدموع تنهمر من عينيه:

– يـا ابنتـي إن العيش ليلة واحـدة مع رجل ذي مـروءة أفضل من العيش مع رجل بلا مروءة كلّ العمر.

أردفـت أمّي باكيـة: «وكأنّ الجميـع كان يعلم منذ اليـوم الأول أنّ حياتـك ستُختَم على هذا النحو! حتّى أنتِ نفسـك، أليس كذلك، كلّنا كنّا نعلم ذلك!».

تذكّرت يوم الطلبة وحديثي مع علي: «أريد أن يكون لي مساهمة في

الثورة والحرب، أتمنى أن يكون زوجي في الحرس، مؤمنًا ثوريًّا».

إن عناصر الحرس مؤمنون متديّنون. قال علي حينها: «قد أقع في الأسر أو أجرح أو أستشهد».

فأجبته: «ليس من المقرّر أن يحدث كلّ هذا دفعة واحدة».

كنت أعلم أنّ علي لن يُؤسر أبدًا، لكن في نفس الوقت كنت متأكّدة من صميم قلبي أنّه كما كانت دربه محفوفة بالجراح فهي كذلك محفوفة بالشهادة.

مسحت أمّي دموعي بسرعة بطرف شادورها وقالت: «مولاتي يا زهراء، مُنّي بالصبر على ابنتي! مولاتي يا زينب مُدّي ابنتي بالعون!».

كانت كتفاي تهتزّان من دون إرادة منّي، وسيّارة الرّينو كانت ما زالت متوقّفة أمام باب المنزل، ترجّل السّائق مع أبي، وراح ينظر إلينا بحزن وغمّ.

نشجت ناحبة: «أقسم بالله، كلّ هذا كان ليلة واحدة، لقد عشت معه ليلة واحدة فقط».

أردت المسير في الطرقات لا ألوي على شيء، أردت الذهاب إلى مكان بعيد، إلى قمة الجبل، إلى وسط البحر، أو إلى الأعالي حيث السماء. أردت الذهاب إلى مكان لا يوجد فيه أحد، أردت أن أصرخ وأبكي قدر ما أستطيع.

لم أكن أرى أيّ مكان ولا أيّ شيء. كانت أمام ناظري فقط صورة علي. عمّت الضوضاء أمام المبنى السادس، ووقف عدد من الشبان بملابسهم السوداء مقابل منزل والدة زوجي، وراحوا يبكون بصمت.

ساعدني أبي وأمّي وصعدنا 54 درجة بصعوبة. كان باب الشقة مفتوحًا والسيّدة منصورة تجلس وسط البهو. ما إن رأتني حتّى نهضت

وتقدّمت باتجاهي، عانقنا بعضنا البعض، قالت لي وهي تعانقني باكية: «عزيزتي فرشته، أرأيت ماذا حصل؟ لقد رحل علي! لقد رحل علي من بيننا! لقد حُرم رؤية طفله! يا حسرتاه عليك يا حبيبي، والهفتاه عليك يا علي! فدتك أمك أيها العريس! عريس لم يشبع من الحياة!...».

شعرت بيدٍ على كتفي، شعرت بيد تحضنني وتحضن السيّدة منصورة، كان السيّد ناصر قد وضع رأسه وسط كتفينا وعانقنا نحن الاثنتين وقال باكيًا: «يا إلهي، يا ربّاه، الصبر، ألهمنا الصبر! يا إلهي، يا ربّاه، الحمد لك. علي حبيبي! علي ولدي إلى أين رحلت يا أبتاه!».

وراح يبكي معنا بشدّة، ومع بكائه ونواحه ضجّت الجموع من حولنا بالبكاء. وقفت أمّي جانبًا لكنّني كنت أسمع صوتها:

– صلّوا على محمد وآل محمد. يا مولاتنا الزهراء ألهميهم الصبر! يا مولاتنا زينب كوني في عونهم!

بعد قليل، تفرّقنا عن بعضنا البعض، جلس السيّد ناصر في زاوية، ووضع رأسه على ركبتيه، والسيّدة منصورة كانت تذهب إلى هذه الناحية وتلك وتنوح: «علي! الآن على كتف من سأضع رأسي! علي! الآن من سيواسيني! تعال وقل إنّ ذلك كذب! تعال وقل إنّك لم تتركني وحدي! لهفي عليك يا علي! واحسرتاه عليك. يا إلهي لقد انتهت حياتي! علي كلّ ما أملك، حبيبي علي رحل!..».

تسللت إلى حضن أمّي وسألتها: «أين علي؟ فلنذهب لنراه».

همست أمّي في أذني: «لم يأتِ بعد، إنّه عند أصدقائه».

سألتها: «وأين استشهد؟».

– في ماووت العراق على لغم.

قلت وأنا أبكي: «إنّه في جبهات الغرب منذ أيّام عدّة وأصدقاؤه

يودعونه».

وفـد الأصدقاء والمعـارف والأقرباء لتعزيتنا، فلـم يصدّق أحد ما حـدث، كان الجميع ينظـر إلينا مبهوتًا؛ إذ إنّه قـد مضى على شهادة أمير 6 أشهر فقط.

وصلـت مريم والجدّة والجدّ والأقـارب الطهرانيون ليلًا، كم كانت لحظـة مريرة! كـم كان ضجيجًا ملـولًا! كم كان بكاء مـريم بانكسار، والآهـات المظلومـة للسيّدة منصورة والسيّد ناصـر مؤلمًا وجارحًا! كم كان ليلًا لا نهاية له! كم كان يوم جمعة قاتمًا وطويلًا!

في صباح السبت، أخبرنا أحد أصدقاء علي أنّ الجنازة قد أُحضِرت إلى همـدان، وأخذوهـا إلى مريانج، وأقاموا لهـا المراسم هناك حتّى الصباح. كان قلبي يغلي من الاضطراب، ولم يقرّ لي قرار.

ارتدى الجميع ملابسهم فقلت لهم: «وأنا أيضًا سآتي معكم».

قالوا: «كلّا، لا يمكن ذلك».

قلت: «بل سآتي».

قالـوا: «يوجـد كراهية في ذلـك، فمجيئك ليس محمـودًا من أجل الطفل».

بكيت، ووعدتهم أن لا تسوء حالي: «أقسم لكم وأعدكم أن لا أبكي، خذوني معكم».

رجوت الحاج صادق:

- بالله عليك دعني آتي معكم.

قلت لأمي: «لقد اشتقت إليه».

لا فائدة، رجوت السيّد ناصر قائلة:

- باللّه عليك سيّد ناصر خذوني معكم.

استنجد السيّد ناصر بالسيّدة منصورة:

- فلنأخذ فرشته أيضًا.

أمسكت بيد أمّي:

- أمّي، قولي شيئًا، افعلي شيئًا كي آتي أنا أيضًا، أقسم باللّه أعدكم أن لا تسوء حالي.

اتصلت أمّي بعدة جهات، وسألت عدّة أشخاص، فقالوا إن نظر المرأة الحامل إلى الميّت مكروه.

أجبتها: «لكنّ علي ليس ميّتًا، علي شهيد».

في النهاية رقّت قلوبهم لحالي وقالوا: «تعالي معنا لا مشكلة في ذلك».

خفضت رأسي وتبعتهم بهدوء. وكي لا يُحدث «المنافقون»[1] أيّ مشكلة لجثمان علي، تم وضع التابوت في مكان معزول ليلًا في مستشفى الجيش، على مسافة 5كلم من جادة كرمانشاه، وكذلك مُنِع دخول الأفراد الذين ليس لديهم عمل إلى هناك.

دخلنا المستشفى، توقّفنا قليلًا في حرمه، تقدّمت إحدى سيارات الإسعاف وتبعتها سيارتان. كان خلف حرم المستشفى شارع ضيّق طويل جدًّا لا نهاية له. وأحاطت بالمستشفى فسحة تشبه الحديقة، وملأت أشجار الصفصاف المعمِّرة العارية واليابسة جانبي الطريق الذي عبرناه، واستقرت عليها طبقة رقيقة من النفناف. كان الثلج هناك على التلال والجبال أكثر ما جعل اللون الأبيض يكتسح الأرض والسهل والجبل.

1- المنافقون: يقصد بهم منظمة (منافقي خلق).

عبرنـا الشارع الطويل جـدًّا بسرعة، وران الصمـت على الجميع. نظرنـا بسكوت إلى الأرض المغطاة بالثلوج من خلـف نوافذ السيّارة. بعـد قليل، وجدنا في آخر ذاك الشارع حاوية خلف شاحنة كبيرة، وقد توقّف حولها سيارات عدّة تابعة للحرس.

ترجّل بعض الأشخاص من سيّارة الإسعاف واتّجهوا ناحية الحاوية. كذلـك ترجّلنا نحن من السيّارة. فتحوا براد الحاوية وأنزلوا التابوت. تقدّم الحاج صادق نحـوه محنيّ القامة وكتفاه متهدّلان. ركض السيّد ناصـر وحضن التابـوت. أمسكت أمّـي بيدي. فتحـوا التابوت وناحت السيّـدة منصـورة: «فديتك نفســي! فدتك أمك يا علـي! أقضيت ليلة البارحة هنا يا ضيا عيني!».

وضجّ الجميع بالعويل والنحيب، كانت أمّي تشهق وهي تبكي، كذلك أنا من دون أن أحسب للأفراد من حولي حسابًا. كانت يد أمّي تلاطف كتفي، وازدحم المكان حول التابوت. اتجهت نحو علي، كان قلبي يخفق بسرعة وقدمـاي ترتجفان. تنحّى أشخاص عـدّة جانبًا. جلست قرب التابـوت، عانق الحاج صادق رأسـ أخيه. بينما أمسـك السيّد ناصر والسيّـدة منصورة بيده اليمنى. جلسـت على يسار علي. أزحت غطاء النايلـون جانبًا، كانت يده اليسرى ظاهرة، باردة ومدمّاة، لقد أثخنت شظايـا اللغـم الجهـة اليسرى من بدنـه بالجراح، وأدمـت قسمًا من رأسـه. ضغطت على يده، تذكّـرت اللّيلة الأخيرة كم نظرت إلى هـاتين اليديـن وقلـت في نفسي: «علـيّ أن أحفظ شكل هاتـين اليدين، وأن لا أنســى شكل هــذه الأصابع». لم تدفأ يده مهما حاولـت. نهض الحاج صادق وأعطاني مكانه.

بـدا نائمًا بهـدوء وطمأنينة بوجهـه الأبيض المنـير. كان أصدقاؤه قـد وضعوا على جبهته عصبة خضـراء اجتازت شعره الأشقر. وذقنه

مسرّحـة، وشعره نظيف ومهندم، كذلك كان حاجباه مرتبين. كم كنت أستاء لزعل هذين الحاجبين!

انحنت أمّي وأمسكتني قائلة:

- انهضي عزيزتي فرشته، انهضي.

قلت وأنا أغصّ بالدموع: «أنا لا أبكي، أنا بخير».

خاطبت السيّدة منصورة أصدقاء علي: «أهكذا اعتنيتم بعلي! لقد تجمّد ولدي منذ ليلة البارحة من البرد!».

بكى الجميع لكلامها. وضعت أمّي يدها تحت ذراعي وقالت:

- انهضي فرشته حبيبتي، انهضي ستصابين بالزكام.

كان الجميـع يبكي مـا عدا علي، فقلت: «حبيبـي علي، لقد ارتحت الآن، نم قرير العين يا حبيبي، لقد عانيت أرق سبع سنوات. لقد انتهى الأمـر وارتحـت، نم، نم بهدوء، لكنّ قلبي يحـترق؛ لأنّك لم ترَ طفلك، ليتك رأيته ورحلت بعد ذلك!».

تذكّرت الرمانتين من دون إرادة مني، ليتني أستطيع معرفة ما إذا كان قد أكل الرمانتـين المشقوقتين أم أنّه قد وهبهما كما يهب الأشياء الأخرى. تأبّطتْ أمّي يدي من كتفي فنهضت، كانت قدماي واهنتين لا قـدرة بهما، وأسناني تصطك ببعضها البعض ويدي ما تزال متجمّدة مـن برودة يد علي. وقف الجميع حول التابـوت يرتدون أثواب الحداد ويرثونـه، ومـرة ثانية أطبق الوجـوم على كلّ شيء أمامـي، ولم أشعر بوجود شيء، وابتعدت مع أمّي بسرعة.

أحببت أن نبتعد ونبتعد، لم أرغب في أن أصدّق أنّني لن أرى علي ثانية. هو جالس هناك على ذاك الجبل، داخل السماء وسط الغيوم، ينظر إلينا ويرعانا ويحذر من أن أصاب بالبرد، أو أن يصيب طفله مكروه.

قلت لأمي: «لنذهب». وذهبت معها بسرعة إلى مقربة من سفح الجبل من دون أن ننبس بكلمة. لم أرغب في أن أصدّق أنّ علي استشهد، لكنّ تلفزيون محافظة همدان أذاع ليلًا بيانًا جاء فيه: «لمناسبة شهادة القائد البطل علي تشيت سازيان، يعتبر يوم غدٍ الاثنين الثامن من آذر يوم عطلة، وسيعلن الحداد 3 أيّام في المحافظة».

اجتمع أفراد العائلة وتحدّثوا عن مراسم الغد ومراسم الدفن. تقرّر أن يلقي الحاج صادق كلمة في المراسم، أمّا السيّد ناصر فلا يطيق إلقاء الكلمات. وأنا أيضًا كنت متأكّدة من أنّني لست ضمن الأشخاص الذين سيتحدّثون في المراسم.

تجمهر الناس صباح الأحد أمام منزل والدة زوجي كالحشر، وتجمعوا حاملين الأعلام واللّافتات الخاصّة بالتعزية في ساحة مباني المهنية. كنت أقف خلف النافذة أنظر إلى الجموع، فقال أحد الأشخاص من داخل الغرفة: «لقد أحضروا السيّد علي».

دخلت سيّارة الإسعاف الى الزقاق، فتحوا بابها، كان بداخلها تابوت ملفوف بعلم الجمهورية الإسلامية ذي الألوان الثلاثة. ارتجفت قدماي، وضعت يدي على الحائط كي لا أهوي، غصصت بالبكاء؛ إذ إنّ علي بعد سنة وثمانية أشهر من الزواج ما زال لا يملك بيتًا. تذكّرت أغراضنا التي وضع كلّ قسم منها في مكان: قسم منها في أنبار[1] أمّي، وقسم آخر في منزل الحاج صادق، وحقيبة ملابس في زاوية غرفة السيّدة منصورة.

كان الناس يهتفون في الزقاق: «وا ويلاه قُتِل علي، قُتِل أسد اللّه».

كان بدني يرتجف لسماعي هذه الأصوات. أنزلوا التابوت من خلف

1- أنبار: غرفة غالبًا ما تكون في الفناء الخارجي للمنزل؛ تحفظ فيها اللوازم والمعدّات و...، وتشتهر المنازل الإيرانية القديمة بوجودها. (المترجم)

سيّارة الإسعاف، ووقف جيران المباني المقابلة خلف النوافذ يبكون. لم يسع الزقاق حتّى لرمية إبرة؛ إذ إنّ قسمًا من الناس كانوا في شقّة والدة زوجي والقسم الآخر كان في الشارع.

لم يستطيعوا رفع التابوت، فوضعوه ثانية داخل سيّارة الإسعاف. عندما انطلقت السيّارة ركض خلفها الناس وهم يهتفون. كانت الأجواء مثقلة بالحزن، كذلك كان المنزل حزينًا ومنقبضًا. لم يشهد شارع المهنية وساحة المباني حشودًا كهذه حتّى اليوم. كان الناس يهتفون: «يا حسين، يا حسين».

تفطّر قلبي. أحببت أن أفتح النافذة وأطير كطائر وأرحل إلى البعيد حيث علي، أرحل إلى حيث علي وأصدقاؤه الشهداء يتسامرون ويضحكون. تجمّع الناس حول التابوت كاللجج، يلطمون الصدور والرؤوس والوجوه ويهتفون: «يا حسين..».

انطلقت سيّارة الإسعاف وتبعها الناس. لقد أتى الكثير من المشيّعين حافي الأقدام على الثلوج. وقفت أمّي جانبًا، وانتظرنا سيارات عدّة في الزقاق كي تقلنا إلى روضة الشهداء. كان الزقاق ما يزال يغصّ بالجموع. شقّوا لنا طريقًا وركبنا السيّارة. شاهدت بوابة المبنى مغطاة بلافتة وقماش أسود. عندما دخلنا الشارع رأيت صورة علي على الجدران وخلف زجاج المحلّات، وكُتب على الستائر السوداء: «علي أيها الحبيب... شهادة مباركة»، كذلك عُلّقت الرايات السوداء على أبواب المؤسسات وفوق الأسطح والنوافذ والأبواب.

همست أمّي في أذني قائلة: «حبيبتي فرشته، سيطري على أعصابك، فالمسألة في روضة الشهداء مختلفة، هناك يختلط الحابل بالنابل، الأعداء والأصدقاء، كوني قويّة ولا تبدي أيّ ضعف».

كانت الشوارع مزدحمة وعلي يضحك في الصور على الزجاج

الخلفي للسيارات. كان في كلّ مكان كيفما أدرت رأسك. لم يزدحم الطريق في يوم من الأيّام من المنزل حتّى الروضة كما ازدحم اليوم، ولم يطل بالقدر الذي طال فيه الآن. أخذونا من طريق مختصرة فقال السائق: «لقد تجمّع الناس في مستديرة الإمام، ومن المقرّر أن يتم تشييع السيّد علي من المستديرة حتّى الروضة».

يبلغ هذا المسير 5 كلم تقريبًا. عندما وصلنا إلى الروضة، كان صوت علي يُبثّ عبر مكبّر الصوت من شريط كاسيت قديم. كانت حالي سيّئة، كيف عليَّ أن أصدّق أنّ صاحب هذا الصوت لم يعد بيننا. لم أستطع تصديق رحيله وأفوله إلى الأبد. كلّا، كلّا، لقد اشتقت إليه بهذه السرعة، أنا أريده، كنت أتذرّع، أريد علي كطفل يتذرّع يريد أمه.

كذلك مريم لم تتحمّل، عندما سمعت صوت علي بكت من دون أن يرتفع صوت بكائها. كنت أراه قبالتي كالعادة قويًا ثابتًا يمشي بكتفين مفتولتين. فكّرت في نفسي: «إلى أين تراه ذاهب؟ ألم يكن من المقرر أن نحصل على منزل بعد عامين، وأن ننظّم حياتنا! أخبرني إذًا، لقد كان كلّ هذا التملّص من شراء المنزل وامتلاك بيت من أجل هذا، كنت تسعى لمكان أفضل».

بكيت، وفكّرت أنّ علي يعتبر الموت أجمل من الحياة؟! قلت في نفسي: «الشهادة، فهل الشهادة عذبة وجذابة إلى هذا الحدّ حتّى لحقتَ بها على هذا النحو من العشق، وتركتني والطفل، وتركت أبًا وأمًّا يحبّونك كي تحصل عليها! كيف أدركت هذه اللذّة؟ كيف وصلت إلى هذه البصيرة؟ فكم كان عمرك؟ أقصد ما هو شعورك الآن! مسرور، حرّ أم طليق؟ إذا كنت هكذا فلماذا أنا حزينة هكذا! لماذا أنا مضطربة وقلقة!؟ لماذا لا أستطيع ابتلاع غصّتي! لماذا لا أستطيع أن أمسك عبراتي! لمَ أنا قليلة التحمّل إلى هذا الحد!». انكسر فؤادي مع

كلّ هذه الأفكار التي ازدحمت في رأسي.

في تلك اللحظات أحسست جيّدًا معنى انكسار القلب واحتراقه. حضرت جموع غفيرة إلى الروضة، ولم يكن هناك مكان لرمي إبرة. ترجّل شابّ من الحرس من سيّارة رباعية الدفع، تقدّم وتحدّث إلى السائق. بعد ذلك، فتح لنا الطريق أشخاص عدّة، ودخلت سيارتنا إلى باحة تقام فيها صلاة الميّت.

إلى جهة يمين الباحة يقع مغسل الرجال ومغسل النساء، وبين كلا المغسلين درج يصل إلى الطابق الثاني، وهناك أفسح لنا الطريق أفراد عدّة وأصعدونا الدرج. كان في الطابق الثاني غرفتان، جلس في إحدى الغرفتين الرجال وهم: قادة الحرس والجيش والقوة الجوية والمحافظ وإمام الجمعة ومسؤولو المحافظة. كان أمام المبنى شرفة ضيقة وطويلة تستخدم من أجل إجراء المراسم.

عندما دخلنا غرفة السيدات، ساءت حالي. قلت في نفسي: «فلتكسر قدمي يا علي، أتيت إلى هنا من أجلك».

كانت في الغرفة أيضًا السيّدة منصورة والجدّة والخالة فاطمة، وقد وصلن إلى هنا قبلنا. ذهبت أمّي وأحضرت لي كوب ماء. مريم التي أتت بالسيّارة ذهبت وجلست إلى جانب والدتها. بعد ساعة، سمعنا ضجيجًا من الخارج، كان الناس يهتفون:

«ارتدوا ملابس العزا فقد قُتِل علي

وا ويلاه قُتِل علي قُتِل علي».

دخلت سيّدة شابّة إلى الغرفة، وقد غطّت نصف وجهها بالشادور تقريبًا.

قالت تلك السيّدة: «معذرة، أين تجلس زوجة الشهيد؟».

أشارت أمّي إليّ. قلت: «بلى».

تقدّمت السيّدة نحوي، كنت أرى فقط أنفها وعينيها، فقالت: «أختاه، من المقرّر أن تلقي كلمة في المراسم».

ارتبكت لسماعي هذه الكلمات وقلت: «ماذا؟ ألقي كلمة!! لا، ليس من المقرر ذلك».

قالت السيّدة: «اسمك في اللائحة، سيحين دورك بعد أن يلقي أخو الشهيد كلمته».

تأففت بصوت منخفض:

- لمَ لمْ تخبروني من قبل؟ على الأقلّ أخبروني ليلة البارحة.

لم تردف السيّدة شيئًا وذهبت. لم يكن يوجد نافذة في الغرفة التي كنّا نجلس فيها، إلّا أنّ أصوات الخارج كانت تُسمع بشكل واضح. فجأة سمعنا صوت علي، كانوا قد بثّوا شريطًا لإحدى كلماته، فهمّ الجميع بالنهوض، وبكت السيّدة منصورة قائلة:

- فديت صوتك يا علي يا حبيبي! علي ليتني أموت يا حبيبي!

كان علي يقول [في الشريط]: «إن كلّ الفضائل والقيم تكمن في الشهيد. هنيئًا للشهداء، لقد كانوا ورودًا زكية الرائحة فانتقاهم الله. لقد اختارهم الله. إن الشهداء أحياء، إن الشهداء أحياء بالأفراد الذين يكملون طريقهم. كونوا أمناء جيّدين للشهداء».

كانت السيّدة منصورة تنوح قائلة:

- فديتك يا مهجتي، فقد كنت وردة انتقاها الله! فديتك نفسي، كنتَ دائمًا تقول هنيئًا للشهداء! والآن نحن علينا أن نقول هنيئًا لك! هنيئًا لك يا مهجة فؤادي!

كانت السيّدة منصورة تقول هذه الجمل وتبكي.

فكّرت في نفسي: «حبيبي علي، أنا لست متحدّثة لبقة مثلك، أخاف أن أقول شيئًا وأريق ماء وجهك».

أحضرت أمّي قلمًا وورقة وأعطتني إيّاهما قائلة:

– خذي حبيبتي فرشته، اكتبي كي لا تنسي.

أخذت القلم والورقة. كانت المرة الأولى التي ألقي فيها كلمة في حياتي، وذلك أيضًا بين كلّ هذه الجموع، أنا التي لم أحصل على شهادة البكالوريا بعد، ماذا أستطيع أن أقول؟ وماذا يمكنني أن أكتب؟!

قلت: «حبيبي علي، لقد قلت الآن إنّ الشهداء أحياء، الشهداء أحياء من أجل الذين يريدون أن يكملوا طريقهم. إذا كنت الآن هنا عندي فساعدني».

عندما مرّرت القلم على الورقة جرت الكلمات في ذهني ولساني. كنت أكتب على الورقة وأشعر أنّ علي يقف إلى جانبي. كنت أسمع صوته، وكأنّه كان يلقّنني الكلمات. أحببت أن أكتب كما يقول كي أسمع صوته الدافئ من دون توقّف. لكنّ علي ختم قائلًا: «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وأنا كتبت ذلك.

عندما وضعت القلم على الورقة كنت ما أزال أشعر بوجوده. كنت أشعر أنّه يقول هكذا: «حبيبتي فرشته، قفي زينبية، زينبية».

انهمرت دموعي وقلت: «ساعدني، ساعدني كي أقرأ من دون أخطاء».

ابتسم علي وهدأ كلّ وجودي مع ابتسامته. ارتفع صوت الناس من الخارج:

«من أجل دفن الشهداء أقدم يا مهدي أقدم»

وبكت السيّدة منصورة ومريم والجدّة لسماعهنّ هذا الشعار.

كانت أمّي أكثر صلابة. بعد قليل توقّفت الأصوات وسُمِع صوت

فرقــة الموسيقــى، كانوا يعزفــون مارش العــزاء. بعد ذلــك، تلا أحد الأشخاص القرآن بصوت شجــيّ جدًّا، بينما مــريم والجدّة والخالة فاطمة والسيّدة منصورة كنّ يتقبّلن التعازي.

ســاءت حــال السيّدة منصــورة خلال هــذه الأيّام وتــأذّت كُليتاها كثيرًا. فقالت مريم: «أمي، إن بكيت كثيرًا ستسوء حالك أكثر! أنسيت ماذا قال الطبيب، إن البكاء والحزن سمٌّ لكِ».

أجابتها بتململ: «فليكن سمًّا، لا أريد الدنيا بعد علي!».

بعد قراءة القرآن هزّت أصوات الجموع الغرفة:

«اليوم عزاء اليوم عزاء   اليوم هو يوم عزاء

مهدي صاحب الزمان   اليوم صاحب العزاء»

دخلت إلى الغرفة تلك السيّدة الشابّة مجدّدًا وقالت: «سيّدة پناهي كوني جاهزة، فبعد كلمة أخي الشهيد يحين دورك».

فجــأة تجمّدت قدماي، كنت أسمع صوت دقات قلبي، ورحت أهدّئ مــن روعــي. بعد كلمــة الحاج صــادق هتــف النــاس: «اللّه أكبر، اللّه أكــبر، خميني قائد، الموت للمنافقين وصــدّام، السلام على مجاهدي الإسلام، السلام على الشهداء».

نهضت من مــكاني وظهرت السيّدة لدى الباب. كذلك نهضت أمّي ورافقتني إلى أمام باب الشرفة، وراحت تصلّي على النبي وآله بسرعة من أجلي. تنحّى أحد الشباب في الحرس من أمام باب الشرفة قائلًا:

- تفضّلي سيّدة تشيت سازيان.

كانت الجموع تطلق شعار:

«وا ويلاه قُتِل علي

أسد اللّه قد قُتِل

يا حسين...».

غصّت الشرفة بالمسؤولين الواقفين قبالة الناس. فسح لي الطريق أحد شباب الحرس الذي رافقني حتّى المنصّة، وانشغل بتنظيم الميكرو.

عندما وقفت خلف المنصّة، وقع نظري على الجموع الممتدّة داخل الباحة. بعضهم وقف على سطح المسجد المقابل للمغسل، وحمل جنديّان طرفي لافتة، كانت صورة علي على يسار اللافتة، وكُتِب إلى جانبها «علي أيها العزيز! شهادة مباركة».

إلى ناحية اليمين - حيث مرقد آية الله الفاضل ملّا علي معصومي همداني[1] - احتشد الكثير من الناس، كذلك إلى جهة اليسار حتّى أمام مدخل الروضة إلى الأعلى لم يكن يُرى سوى جموع غفيرة. كانت تُرى الحشود باللباس الأسود على امتداد النظر قد أتت لتشييع قائدهم المحبوب.

لم أكن قد رأيت حشدًا كهذا في الروضة لغاية الآن. أشار إليّ الشابّ في الحرس الذي عمل على تنظيم الميكرو لي كي أبدأ.

- باسم الله حارس حرمة دماء الشهداء وناصر المظلومين.

أحسست أنّ صوتي يرتجف، فهتفت في قلبي: «علي، علي حبيبي ساعدني».

وتابعت...

- أرى نفسي أصغر من أن أقف في هذا المكان المقدّس لأتحدّث

1- حضرة آية الله العظمى السيّد ملّا علي معصومي (ولد في عام1274ق) وهو من تلامذة الشيخ عبد الكريم الحائري، العالم الزاهد والتقي ومنشأ البركات المعنوية. كان آية الله خلال وجوده في همدان يعمل على تأهيل المدرسة العلمية للحوزة، وقد أسّس أيضًا مكتبة هذه الحوزة. وفي 31 تير 1357 توفي بعد معاناة مع المرض.

إليكم. أردت فقط أن أكون في خدمتكم أيها الأعزاء الذين تكبّدتم العناء وحضرتم من أجل هذا القائد الإسلامي العزيز «علي تشيت سازيان».

تنفّست الصعداء، كانت الجموع غارقة في صمت عميق. رفعت رأسي، فكانت صورة علي يبتسم على لافتة قبالتي.

فتابعت:

– كذلك أرى نفسي أصغر من أن أكون زوجة شخص كهذا شديد الإيمان، شهم، شجاع، مغوار ومضحٍّ.

في نفس الوقت الذي كنت أقول فيه هذه الجمل تذكّرت علي الذي كان يتحلّى بكل هذه الخصال الحميدة، ونُقش في ذهني مصداق على كلّ خصلة من خصاله.

فقلت: «كان علي معين اليتامى»، وتذكّرت أنّ أحد أصدقائه أخبرنا منذ أيّام أنّ علي وعدّة أشخاص آخرين كانوا يملأون شاحنة بالطعام والمؤن ويذهبون إلى قرية فقيرة تدعى «سنك سفيد»، فيضعون الطعام خلف أبواب المنازل التي تم رصدها مسبقًا، ومن ثمّ يرجعون. عند العودة كانوا يطلقون أبواقًا عدّة فتعرف العوائل الفقيرة معنى تلك الأبواق. كان علي وأصدقاؤه يخرجون بسرعة من «سنك سفيد» كي لا يراهم أحد، فتخرج العائلات من منازلها وتأخذ حصصها التموينية.

تابعت كلمتي: «علي هو شخص تبقى ذكراه في كلّ الجبهات، وبين كلّ إخوتنا الأعزاء والمجاهدين الأفاضل الذين هم في الجبهة».

فجأة ارتفع صوت بكاء الجموع. سيطرت على نفسي.

– أنا الحقيرة[1] أطلب من كلّ الأمهات والزوجات والأخوات أن يرسلن

1- كلمة رائجة في الأدبيات الإيرانية ويقصدون بها التواضع وإظهار العجز والقلّة أمام

أولادهنّ، كما طلب الإمام الخميني، إلى جبهات الحق ضدّ الباطل.

تذكّـرت بأقلّ من ثانية أنّ علي قد وقف على هذه المنصة ذاتها يوم شهادة أمير، وطلب من الناس أن يذهبوا إلى الجبهة. كان صوت علي يطنُّ في أذني قائلًا: «لا تفعلوا شيئًا يجعل الإمام يقف ثانية ويطلب من الناس الإسراع في الذهاب إلى الجبهات».

فقلت: «إن شاء الله ستعمى عيون الأعداء بحضوركم في الجبهات، وسينتصـر جيش الإسلام بسرعة، وأشكركـم ثانية، وأطلب منكم أن تكملـوا طريق كلّ الشهداء، وبالخصوص طريق هذا الشهيد الفاضل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ما إن وصلت إلى هنا حتّى رأيت السيّدة منصورة تقف إلى جانبي، أعطانا أحـد العناصر ورودًا فرميناها معًا أنـا والسيدة منصورة من علـى الشرفة باتجـاه الجموع. هزّت أصوات التكبـير «الله أكبر» ثانيةً روضة الشهداء.

ومـن بـين كلّ هـذه الأصوات قطّـع نياط قلبـي نواح محـرق لعدّة أشخاص:

- سيّد علي... سيّد علي يا حبيبنا...

عـدت إلى الداخل مع السيّـدة منصورة، ولم يتوقّف صراخ وهتاف الناس ولطمهم.

دخلـت تلك السيّدة الشابّة إلى الغرفة وقالت: «شكرًا جزيلًا سيّدة تشيت سازيان. لقد أبليت بلاءً حسنًا».

قلت: «خذوني، أريد أن أكون عند علي خلال التشييع».

نظـرت المـرأة إلى السيّدة منصورة وإلى والدتـي وقالت: «الجموع

قدرة الله. (المترجم)

غفيرة جدًّا، حتّـى إن المسؤولين لن يستطيعوا التقدّم من أجل الدفن. لقـد مدّ أصدقـاؤه منذ ليلـة البارحة سياجًا وحبلًا حـول القبر كي لا يتقـدّم أحـد إلى الأمـام، لكنّهم يقولـون إنّهم لا يأمنون مـن الناس، فالحشود هناك كالحشر. ويقوم أحد أصدقاء الشهيد وهو عالم دين، ويدعـى السيّد «إلهي» بقراءة القرآن وزيارة عاشوراء داخل القبر منذ الصباح، لا تستطيعون الذهاب إلى هناك».

قالت السيّدة منصورة: «ليتهم يدفنون علي قرب أخيه!».

أجابـت السيّدة الشابّة: «يا حاجة، إن القبر الذي يقع على الطرف هـو قبرٌ يخصّ شهيـدًا مفقود الأثر، ولكي يُفرح والـد الشهيد المفقود الأثر قلب زوجته (أم الشهيد) وَضع شاهدًا على القبر وكتب عليه اسم شهيدهـم، وفي ليالي الجمعة يأتون إليـه ويقرأون الفاتحة. لقد أهدى والدا هذا الشهيد المفقود الأثر القبر لولدكم علي، فقالوا طوبى لهم أن يكـون قبر ولدهم من نصيب السيّـد علي، فهكذا هم سيفرحون أكثر، وولدهـم سيكـون راضيًا. ادعوا يا حاجة أن يكـون ولدهم لم يستشهد بعد، وأن يعود إلى كنفهم».

رفعت السيّدة منصورة يديها نحو السماء:

- إلهـي آمين، إلهـي لا تخيّب آمالهـم وأفرح قلوبهـم. إلهي أقسم عليك بحق قلبنا الكسير أفرح قلوبهم، وأن لا يخيب أملهم، إلهي بضلع الزهراء عليها السلام أقسم عليك أن ينتهي انتظارهم لولدهم.

ثـمّ قالت السيّـدة منصورة وهي تنـوح: «أمير، هنيئًـا لك، انهض فاللّيلة لديك ضيف، لقد جاء علي، لقد أتى إليك أخوك علي..».

بكى الجميع لكلامها، ومع الإلحاح الشديد ذهبت السيّدة منصورة، مريم، والجـدّة، والخالة فاطمة إلى التشييـع، لكنّهم مهما حاولت لم

يسمحوا لي بذلك، فجلست أنا وأمّي في الغرفة.

كم كانت الدقائق تمر ببطء وقسوة!! مرّت الساعتان أو الثلاث ساعات وكأنّها يومٌ أو يومان! كم ألححت على أمّي كي تأخذني للوداع الأخير!! أمسكت أمّي بيدي وراحت تقرأ آية الكرسي، والحمد، وقل هو الله أحد. أحيانًا كانت تضع يدها على قلبي وتقرأ تسبيحة الزهراء عليها السلام ليهدأ بعض الشيء.

أنصتُّ جيّدًا، وحاولت معرفة ماذا يحدث في الخارج، أحسست أنّ قلبي قد توقّف لعدة دقائق وتهاوى شيءٌ ما في داخلي، نهضت وأسرعت باتجاه باب الغرفة، أمسكتني أمي، انفجرت بالبكاء وجلست على الأرض أتأوّه وأئنّ:

- أمي، لقد رحل علي، لقد رحل، أنا متأكّدة من أنّه قد رحل الآن من بيننا.

بكت أمّي، ألقيت برأسي على صدرها وقلت لها:

- أمّي لن أراه بعد الآن أبدًا، أنا متأكّدة من أنّهم دفنوه تحت التراب، لقد رأيته يودّعني.

أمّي التي إلى ذاك الحين كانت تسيطر على أعصابها انفجرت بالبكاء.

- علي حبيبي، وداعًا...

كان حضن أمّي ملاذًا جيّدًا لأذرف دموعي فيه. بعد قليل جاء الحاج صادق والسيّد ناصر وعدة أشخاص آخرين والتراب يغطّي ملابسهم السوداء والمبعثرة. نزلنا الدرج، كانت الباحة خالية، لكنّ الروضة ما زالت تغصّ بالجموع. رغم ذلك، استطعنا أن نعبر من بين الجموع سيرًا على الأقدام، مع أنّ قدمَيّ كانتا ترتجفان ولا قدرة

لهما على المسير، سمعتهم يقولون إنّ شخصين أو ثلاثة أشخاص من أصدقاء علي قد ساءت حالهم ونقلوهم إلى المستشفى.

ازدحم المكان بالجموع حول الضريح، فلم نستطع المسير، قلت في نفسي: «علي، لقد وصلت إلى أمنيتك، لكنّني لا طاقة لي على كلّ هذا الغمّ والفراق».

رآنا أفراد عدّة فصاحوا: «افسحوا الطريق، فأمّ الشهيد وعائلته يتقدّمون إلى الأمام».

فُتِح الطريق، كان الحاج صادق يمسك السيّدة منصورة من إبطها، والسيّد حميد «زوج مريم» يمسك بيد زوجته، كذلك كان أبي وأمّي يتقدّمان ويتحدّثان إلى السيّد ناصر، فقلت: «علي حبيبي، من سيأخذ بيدي! على كتف من سأضع رأسي! علي، لقد تركتني وحيدة باكرًا! ما زلت في التاسعة عشرة من عمري!».

لم أستطع أن أتربّع في جلستي فوقفت في زاوية. وغطّت ورود الزنبق الأبيض ضريح علي، وضعت شادوري على وجهي، وملأت رائحة ماء الورد الأجواء. لم أرغب في التفكير أنّ علي هناك في الأسفل، في أسفل ذاك التراب، كلّا، علي لم يكن هناك، علي هناك في الأعالي، في السماء، أمطت الشادور عن وجهي ورفعت رأسي. رغم صفاء السماء إلّا أنّ البرد كان يلسعني لسعًا، قلت: «علي، أين أنت؟!». وسط السماء! جلت بنظري لكنّني لم أره.

- في أيّ مكان عليّ أن أبحث عنك يا حبيبي!

أحسست بحرارة قربي، ظننت أنّها أمي، نظرت، فلم تكن أمّي هناك، لم يكن أحد قربي. إذاً من أين أتت هذه الحرارة؟ هذه الحرارة جسد من؟! بدت صورة علي جليّة أمامي بذلك الشعر الأشقر والعينين

الزرقاوين، واللحية التي لم تشذّب منذ مدّة طويلة.

كنت دائمًا أقول له: «حبيبي علي، شذِّب لحيتك».

فيجيب: «كلّا، ما زال الوقت باكرًا».

حدّثتُ نفسي: «علي حبيبي، لقد أطلت لحيتك لهذا اليوم؟»، ومع هذه الفكرة تفطّر قلبي وانفجرت باكية، لكن فجأة أحسست أنّه يقف قربي، استندت إلى ذاك الدفء، وسمعت صوت علي يقول لي بتلك اللكنة الهمدانية العذبة: «فرشته، سامحيني، يا وردتي كوني زينبية، عيشي زينبية، زينبية...».

رمت السيّدة منصورة ومريم بنفسيهما على الورود، كانت أكتافهما تهتزّ من البكاء بصمت. أحسست بإحساس غريب، فكّرت إن أردت أن أعيش زينبية، فماذا عليّ الآن فعله؟ وكيف عليّ أن أتصرّف؟!

تملّكني حزن قاسٍ، وأحكم قبضته في عمق حلقومي. عضضت على شفتي، وبصعوبة ذهبت لأجلس قرب قبر أمير. وضعت أصابعي على شكل قبة على القبر، وقرأت الفاتحة وهمست: «أمير عزيزي انتبه لعلي».

عبرت سيّارة رباعية الدفع من أمامي. كانت صورة كبيرة لعلي مُلصقة على السيّارة، عبر علي سريعًا من جانبنا، رحل علي، وهبّت ريحٌ باردة.

انحنى السيّد ناصر ورفع السيّدة منصورة، كذلك تقدّم زوج مريم وأخذها من بين الورود، أمسكت أمّي بساعدي الأيمن وأبي أمسكني بساعدي الأيسر بحنان، أردت أن أبكي ولم أرغب في الذهاب. لم أرغب في أن أنفصل عن علي بهذه السرعة، فقلت: «أمّي لا أريد الذهاب».

بكت أمي.

فقلت لأبي: «أبي، أرغب في البقاء».

فاهتزّت كتفا أبي القويّتان وارتجفت قدماي، وتجمّدت يداي. لقد اشتقت إلى علي سريعًا. في تلك اللحظة أحببت أن يذهب الجميع وأبقى لوحدي. أحببت أن يقف علي إلى جانبي، كما وقف منذ دقائق عدّة، وأسأله: «علي، ماذا يعني أن أكون زينبية؟». أحببت أن لا يكون أحد في الروضة، وأن أبكي وأبكي بصوت عالٍ.

عندما جلسنا في السيّارة، أدار السائق كاسيتًا يبثّ رثاءً ملهبًا للروح، فتذكّرت مصيبة السيّدة زينب من أجل أخيها الإمام الحسين عليه السلام. فبكيت، وضعت رأسي على كتف أمّي وغطّيت وجهي بشادوري، ورحت أذرف دموعي بصمت، وما جفّت دموعي حتّى وصلنا البيت.

14

نجمة الوالد

أُقيمت مراسم العزاء حزنًا على علي في كافة أنحاء المحافظة حتّى الأربعين، بل وحتّى الخمسين يومًا من شهادته.

في الأيّام الأولى كنّا نشارك في المراسم بشكل عائلي. لكن، بدءًا من الأسبوع الثاني كان يذهب فقط الحاج صادق والسيّد ناصر، بعد ذلك صارت المشاركة بالتناوب، فمرّة يذهب الحاج صادق ومرّة يذهب السيّد ناصر.

شيئًا فشيئًا، بدأت الرؤى العجيبة بمداهمتنا، كان بعضها حسنًا وبعضها مكدّرًا. كان الأقارب والجيران يرونه في المنام، فيسرعون إلينا ليخبرونا عن مناماتهم بحماسة وشوق. كان الاستماع إلى المنامات يزيد من شوقنا إلى علي، ويمدّنا بهدوء قلبي.

كان الجميع يراه في المنام في أفضل منزلة وأبهى حلّة. كانت المنامات تروي أنّ علي مرتاح، وحظي بمكانة رفيعة، لكنّه كان قلقًا، قلقًا علينا نحن أهل الأرض، وخصوصًا على أمه.

بعد شهادة علي، اشتدّ مرض السيّدة منصورة سوءًا، بحيث إنّ الحاج صادق والسيّد ناصر اضطُرّا إلى نقلها إلى طهران بعد مرور الأربعين بعدّة أسابيع.

وصلت شدّة الصقيع في تلك الأيّام في همدان إلى أوجها؛ إذ إنّ الثلج وتجمُّد الماء لم يسمحا لأحد بالخروج من المنزل. وهكذا، مع ذهاب السيّدة منصورة إلى طهران، جمعت أشيائي القليلة وحقيبتي، ولففت محمد علي بعدّة بطانيات لحديثي الولادة، وشددت الرحال نحو منزل أمي.

وكالعادة، استقبلني أبي وأمّي بالترحاب. كنت أرتاح أكثر عندهما، فيغمرني شعور أنّ علي في الجبهة وسيعود سريعًا. كانت أيّام الشتاء تزحف ببطء. لم تكن الأنباء الواردة من طهران مرضية وجيدة. لقد تضخّم التّكيُّس في كُليتَي السيّدة منصورة، وأصيبتا بالكسل أكثر من الحدّ الطبيعي، واعتبر الأطبّاء أنّ الحلّ هو في غسيل الكلى. وهكذا، بدأت عمليات غسيل الكلى المنهكة.

في عصر أحد الأيّام، كنت جالسة في البيت مع أبي وأمّي، أنظر من خلف النافذة إلى الثلج المتساقط من دون توقّف. جلست أمّي تحيك لمحمد علي ثيابًا، فسألني والدي: «فرشته، في النهاية ماذا ستفعلين؟».

تعجّبت من سؤال والدي فقلت: «حسنًا، ما سأفعله واضح، سأقوم بتربية محمد علي».

سألني والدي: «فقط!».

قلت: «إن تربية محمد علي تحتاج إلى سنين مديدة».

تدخلت أمّي وقالت:

– فرشته، خلال ذلك، ينبغي لك متابعة الدراسة والتحصيل العلمي.

لم يكن لديّ جلد على الدرس وكتابة الوظائف، فقلت لها:

– كيف سأتمكن من الدرس مع طفل؟

قالت أمّي: «نحن سنساعدك، عليك أن تدرسي».

نظر إليّ والدي وقال: «حسنًا، دَرَسْنا، وماذا بعد الدرس؟».

أدركت قصد والدي من هذا الكلام جيّدًا، لم أتحمّل ذلك فبكيت. كان محمد علي نائمًا في زاوية الغرفة، تقدّمت نحوه بتؤدّة وأنا أبكي كي لا يستيقظ وقلت: «لا شيء، سينتهي عمري ها هنا».

تقدّمت أمّي نحوي والقلق بادٍ عليها، نهضت من مكاني وأردت الخروج من الغرفة. قلت لأبي: «أبي، أتذكر ماذا قلت لعلي ليلة العرس؟! قلت له إذا عاشت ابنتي ليلة واحدة مع رجل صاحب مروءة أفضل لها من أن تعيش العمر كله مع رجل بلا مروءة. إن هذه السنة والثمانية أشهر مرّت كالبرق ومضت كالريح، لقد كانت بالنسبة إليّ ليلة واحدة مع رجل شهم وانتهى. لا أعتقد أنّني سأجد أحدًا مثل علي».

ثمّ نظرت إلى محبسي وأنا أبكي قائلة: «أبي، أتعرف رجلًا أكثر شهامة من علي؟!».

نهض والدي، تقدّم ووقف بجانبي، كانت عيناه حمراوين مليئتين دمعًا. لم أرَه على هذا النحو من قبل مطلقًا. حضنني وقبّلني قائلًا: «كلّا يا حبيبتي، والله لم أرَ أحدًا أكثر شهامة منه، لقد كان شهمًا كثيرًا. لم يَشُبْهُ عيب».

وضع أبي رأسه على كتفي، كنت أحدّق بمحبس زواجنا، ومرّت في ذهني ذكريات أيّام شراء تجهيزات عقد القران. فقال: «فرشته، أنا وأمّك خادمان لك ولطفلك، فقدومك علينا أنت وطفلك في أهداب عيوننا».

بكيت لكلامه، كذلك فعلت أمّي، واستيقظ محمد علي على صوت بكائنا. حملته أمّي وقبّلته. وقف أبي خلف النافذة وقد غطّى الثلج

الفنـــاء الخارجـي بثوب أبيض وقــال: «عندما يحلّ الربيــع سأبني لك طابقًــا على السطح. عليك أن تنظّمي أمورك وتستقلّي، وأخبريني بكلّ مــا تحتاجين إليه لأشتريه لك، لا تحملي همّ شيء، فنحن مدينون لك ولعلي ولولدك».

في السنـــة التاليـــة، عندما حــلّ الربيــع وأصبح الطقس مساعدًا، أحضــر أبــي بنّائين عــدّة، وضعوا أعمــدة الحديد ومــواد البناء على السطح، وتم بناء غرفة ومطبخ وحمام، أمّا القسم المتبقي من السطح فقد أصبح فناءنا الخاصّ.

عندمــا كــبر محمد علــي أكثر صرنا ننــام في ليــالي الصيف على السطح أو على ذاك الفناء.

كان محمد علي يسأل عن والده:

- أين والدي الحبيب؟

- ذهب إلى الله.

- لماذا لا يأتي إليّ؟

- لأنّه يرعانا هناك في الأعلى.

- أنتِ تقولين إنّ الله يرعانا، والجدّ والجدّة وأنتِ ترعونني.

كنت أجيب باختصار، وكالعادة أغيّر مجرى الحديث:

- هل ترى تلك النجمة؟

كان يجيبني بسرور: «نعم».

- إنّ تلك النجمة هي والدك.

كان يفــرح فيمدّ يده ليحضن والده، لكن لا يتمكن من ذلك فيبكي. أحاول تهدئته، لكنّه لا يهدأ، فأحضنه وأقبّله، فتفوح منه رائحة علي.

كنـت أناديه «حبيبي علي» لأتذكّر علـي. كان الجميع ينادي محمد علي «علي» وذلك ليبقى ذكر «علي» بيننا.

كان علي حبيبي في أغلب الليالي ينام باكيًا.

15

الأمّ التلميذة

بدأت بالذهاب إلى المدرسة، واضطُررت إلى دراسة البكالوريا القسم الثاني مجدّدًا. ففي العام 1986 لم أنجح في الامتحانات بسبب عقد القران والزواج وبعدها ذهبنا إلى دزفول. ولكن في العام الدراسي (1988–1989) وبتشجيع وإصرار والدتي تسجّلت للمرة الثالثة في السنة الثانية للبكالوريا.

قلّلت أمّي من ساعات عملها في مشغل الخياطة، كانت تبقى صباحًا في المنزل لرعاية شؤون ولدي علي. مرّ عام على هذا المنوال.

قام مدير مهنية التهذيب بتجهيز إحدى غرف المهنية وجعل منها حضانة أطفال، وذلك من أجل راحة بال المعلمين الذين لديهم أطفال صغار.

كنت أذهب في الصباح أبكر من الجميع وأودع علي في الحضانة، وعند الظهر كنت آخذه بعد مغادرة الجميع كي لا يعرف أحد من التلاميذ أنّني متأهلة ولديّ ولد. ولكن في السنة التالية، ومن أجل الابتعاد عن كلام كهذا سجّلت علي في حضانة خارجية.

حصلت على الشهادة الثانوية في ظروف كهذه. كان علي قد أصبح عمره 4 سنوات.

أصــرّت أمّــي أن أشارك في امتحانــات دار المعلمــين. فعلت ذلك، وقُبلــت. واشتغلــت بالتدريــس معلمةً في صفــوف مرحلــة ابتدائية في مدرســة «22 بهمــن» للصبيان الواقعــة في منطقة صناعــة الجلود في همدان (منوتشهري).

16

خلف صفّ الأشجار

في 16 أيلـول 1995، كانـت قد مضت أيّام عدّة علـى دخول السيّدة منصـورة إلى مستشفـى اكباتان إثـر نوبة قلبية. رغـم أنّ عملية زرع الكليـة تمت بنجـاح، لكن هذه المـرة أرقدتها النوبـة القلبية في سرير المستشفى.

في ذلـك اليوم، ذهبت أنا وأمّي لعيادتهـا. كانت مريم هناك أيضًا مضطربة وهلعة، ما إن رأتنا حتّى انهمرت دموعها:

- فرشته حبيبتي، سيّدة وجيهة، إن حال أمّي سيّئة!

ثمّ نظرت إلى أمّي ورجتها قائلة: «سيّدة وجيهة، باللّه عليك ادعي لها».

وبوساطـة من مريم دخلـت أنا وأمّي إلى قسـم C.C.U وبقيت هي في الخـارج. كانت السيّدة طريحة الفراش، نحيلة وشاحبة الوجه قد أوصلت الأسلاك والأمصال والأنابيب في يديها وأنفها.

وُضـع بالقـرب منها جهاز مراقبـة (Monitor) صغـير يشير إلى دقات قلبها. كان يعطي أرقامًا غير منتظمة:105،180،100،120،200. أمسكـت بيدهـا، شعرت ببرودتها، نظـرت إلى أمّي بقلـق. هزّت أمّي رأسهـا بتأسّف وأخرجت من حقيبتهـا قرآنها الصغير الذي تضعه في

محفظة جلدية ويبقى برفقتها، وقالت: «فرشته أحضري كوب ماء».

ثمّ قالت للسيّدة منصورة بعطف: «سيّدة منصورة عزيزتي، هل أنتِ بخير؟!».

فتّشت عن كوب، كان فوق البراد قرب النافذة إبريق ماء وكوب زجاجي. ملأت الكوب بماء بارد من البراد، وناولته لأمي.

فتحت السيّدة منصورة عينيها بهدوء. عندما رأتني سألتني بمشقّة: «فرشته حبيبتي، أنت بخير؟ علي بخير؟ أين هو؟».

أجبتها مضطربة: «سلام، هل أنتِ بخير؟ أردت أن أحضر علي معي لكنّني خفت أن لا يسمحوا لي بذلك، سأتحدّث إلى مسؤول المستشفى، وغدًا سأحضره حتمًا».

أغمضت السيّدة منصورة عينيها، وانزلقت من طرفي عينيها قطرات عدّة من الدموع واستقرّت على الوسادة، ثمّ فتحت عينيها وقالت لأمّي وهي تبكي: «سيّدة وجيهة إذا متّ، هل يعني أنّني سأرى أمير وعلي...». قالت لها أمّي بحنان وهدوء وكأنّه لا يوجد أيّ مشكلة: «لا سمح الله يا سيّدة منصورة! تأكّدي أنّهما الآن هنا، بالقرب منك، كلّ واحد منهما على ناحية، إنّهما يساعدانك لتتحسّني بسرعة. ومن المقرّر أن يكبر علي ويشتري سيّارة، وسيأتي في إثرنا أنا وأنتِ ويأخذنا في نزهة، فقد حان أن تعيشي حياتك، مدّ الله في عمرك».

زفرت السيّدة منصورة زفرة وقالت: «كلّا سيّدة وجيهة، لقد انتهى الأمر. لا طاقة لي بعد على فراق أولادي، فأنا لم أرهم منذ ثماني سنوات، أريد الرحيل، لقد اشتقت إليهم».

بكت، أغمضت عينيها ولم تُفتحا ثانية. وضعت أمّي المصحف الشريف فوق كوب الماء، ثمّ أعطتنيه وقالت: «بلّلي شفتيها بمنديل ورقي».

أخـذت منديـلاً ورقيًّا من على الطاولة المعدنيـة ورحت أبلّل شفتي السيّدة منصورة بماء الكوب.

فتحت السيّدة منصورة نصف عينيها بهدوء، نظرت إليّ بوهن، ثمّ أغمضتهما ثانية. أشارت لي أمّي إلى قدميها. بلّلت منديلاً ورقيًّا آخر وأزحـت البطانية جانبًا، وضعـت يدي على قدمي السيّـدة منصورة، كانـت قدماهـا باردتـين جدًّا، قلـت لأمّـي بهلـع: «أمـي، لمَ قدماها متجمّدتان إلى هذا الحد؟!».

وكأنّ أمّـي كانت تعلم مـاذا يحدث، فتحت القـرآن ووضعت يدها بهدوء على قلب السيّدة منصورة، وشرعت في تلاوة بضع آيات.

وقـع نظري علـى الشاشـة: 32،20،25،30. كانت خطـوط المنحني تتحوّل إلى خطوط مستقيمة شيئًا فشيئًا.

أمسكـت يد السيّدة منصـورة، كانت باردة جـدًّا، وحبيبات العرق تلمع على جبينها وشفتيها. كانت تتنفّس وتشخر خلال تنفّسها.

نظـرت إلى أمّـي قلقة وأسرعت إلى الخـارج خائفة مرتعبة، كانت إحـدى الممرّضـات قادمـة نحو الغرفـة فقلت لهـا: «أيتهـا الممرّضة، أسرعي يا سيّدة ألطاف إن حال والدة زوجي سيّئة جدًّا».

هرعت الممرّضة إلى الغرفة، كذلك دخلت ممرّضات عدّة أخريات إلى الغرفة بسرعة، وتحلّقن حول سرير السيّدة منصورة. جلست أمّي على كرسي قرب السرير وراحت تقرأ القرآن بهدوء.

وكأنّ شخصًـا وضـع يـده حول حلقومـي، شعرت بالاختنـاق وكأنّ أحـدًا يقبض على قلبي، كانت رائحة الحزن تفوح من كلّ شيء، حينها مثلـت أمامي حقارة الدنيا... يا إلهي! أرحلـت السيّدة منصورة بهذه السرعـة؟! ضاقت الغرفة بي ولم أعد أرى الممرّضات. وقع نظري على

النافذة. لمحت هناك في البعيد خلف صفّ الأشجار الخضراء الباسقة علـي وأمـير، كانا في قلـب السماء. انتشـرت رائحة الحـزن والغمّ في الأرجـاء، مللت من الدنيا، فلم أصـدّق أنّ السيّدة منصورة قد تركتنا سريعًا هكذا!

أخرجتنـا الممرّضـات من الغرفـة، وأحضرن جهـاز الإنعاش، كُنَّ يعطينهـا صدمات كهربائية، كذلك حضر بعض الأطبّاء إلى الغرفة. لكن بعد قليل من دون أن أصدّق، رأيت من الممر أنّ الأنابيب والأسلاك قد فُصِلت جميعها عن بدن السيّدة منصورة.

17

جُرحُ الاثني عشر

رغـم أنّ الأيّام تمرّ دائمًا كالـبرق والريح، إلّا أنّ تلك السنين كانت أصعـب سنـيّ حياتي، وراحت تمـرّ بصعوبة لحظة بلحظـة. بعد وفاة السيّـدة منصورة أصبحـت حياتنا أشدّ محنـة، وأصبحنا أكثر غربة ووحدة.

بعد شهادة علي، اتّخـذ السيّد ناصر والحاج صادق منزلًا مشتركًا وعاشا معًا. كنت وعلي نمضي نهاية الأسبوع معهم دائمًا، واستمرّ هذا البرنامج حتّى بعد وفاة السيّدة منصورة، وخصوصًا أنّ الحاج صادق أجرى عملية زرع كُلى بسبب المرض الوراثي. وبرحيل السيّدة منصورة فقـدت أنا وعلي سندًا قويًّـا. مع كلّ هذا، كانت تمرّ الأيّام بمشقة وغمّ وتمضي بوحدة ووحشة.

في العـام 1998 بلـغ عمر علي 11سنـة، وكان في الصـف الخامس الابتدائـي. بعد أشهر عـدّة أصيب بوعكة صحية فصار يشكو من وجع في معدته، ويرافق هذا الألم غثيان وتقيؤ.

وهكذا كان يبدأ عملنا الشاقّ أنا وأمّي بعد ظهر كلّ يوم. كنّا نأخذ علي ونبحث عن طبيب متخصّص. وبعد إجراء بعض الصور السونوغرافية ومنظار وصور ملونة أخبرونا أنّ علي يعاني من «جرح في الاثني عشر»، ومـع سماع هذا الخبر هوت الدنيا علـى رأسي، لقد ربَّينا أنا وأمّي هذا

الولد على ريش النّعام، فلماذا آلت الأمور إلى هذا المآل؟!

اقتربت الذكرى السنوية لعلي[1]، في كلّ عام كنّا نقيم مراسم الذكرى السنوية ما بين الرابع والثامن من شهر آذر (25–29 تشرين ثاني)، وإذا صادف أن كان يوم جمعة فنورٌ على نورٌ.

اشتغلت أمّي بتحضيرات الذكرى، فنظّفت البيت وجمعت الكنبات، غسلت أكواب الشاي والصحون والسكاكين والمالح، كما دعت الكثير من الضيوف، واشترت الفاكهة والحلوى.

اشتدّ مرض علي في تلك الأيّام، لقد وصل به الأمر إلى أنّه لم يستطع حتّى شرب كوب ماء.

في اليوم الرابع من شهر آذر، اضطررنا إلى تأجيل إجراء مراسم الذكرى حتّى اليوم الثامن، وأخبرنا آخر طبيب بعد إجراء فحوص عدّة مختلفة: «لقد شوهد في الصورة جرح صغير في الاثني عشر، خذوه إلى طهران بسرعة».

في السادس من شهر آذر ومع البحث وسؤال الكثيرين، وجدنا عنوان أفضل طبيب أمعاء في طهران. حجزنا موعدًا، واتجهنا ليلًا بالحافلة إلى طهران.

لم يكن التلفون المحمول متوافرًا لدى الجميع حينها، فأودع أحد الأصدقاء هاتفه النقال أمانة معنا.

لم يكن علي يأكل شيئًا، كان فقط يتهوّع ويتقيّأ. ساءت حاله في الحافلة كثيرًا، حتّى صار المسافرون المرافقون لنا في المقاعد الأمامية والخلفية يساعدوننا من باب المؤازرة والتفكير في حلول. رغم ذلك، كان علي يواسيني ويقول لي: «أمّاه أنا لا أشكو من شيء، إنّي أتعافى».

1- استشهد علي تشيت سازيان في الرابع من آذر ودفن في الثامن منه.

كنـت قد أحضرت معـي حقيبة ملابس، فعندما يتقيـأ أغسل يديه ووجهـه بإنـاء مـاء، وأغير لـه ملابسه. يا إلهـي كم مرّت تلـك اللّيلة بمشقّة! لم تكن تنتهي مسافة الست ساعات إلى طهران.

في النهايـة، مرّت ساعات عدّة على منتصف اللّيل فوصلنا، اتخذنا غرفـة في «بيـت المعلـم» وكان قريبًا مـن المستشفى. أخذنـا علي إلى الطوارئ، فتم الكشف عليه، وكتبوا له وصفة دواء.

ذهـب أبي لشـراء الأدوية، وبقيت أنـا وعلي في بيـت المعلم. كانت حرارتـه مرتفعـة ووصلـت إلى 43 درجـة تقريبًـا، سعيـت جهـدي لإخفاضهـا، لكنّني لم أفلح، ولم يكـن بوسعي فعل شيء، كذلك والدي لم يكن قد عاد بعد. انهمرت دموعي من دون إرادة مني، فولدي توقّف عن محادثتي ومواساتي.

أغمض عينيه وصـار يغلي في الحرارة. بلّلت بالمـاء كلّ الشراشف الموجـودة ووضعتهـا على جبهتـه وبدنـه وقدميه. اتصلـت بالطوارئ فسألوا: «ما مشكلته؟».

- حرارته مرتفعة.

- لا يحتاج إلى طوارئ، انقعي قدميه بالماء[1].

بكيت خلف السماعة ورجوتهم.

أتوا بعد ربـع ساعة لكنّهم لم يفعلوا شيئًا أيضًا، أعطوه إبرة مسكن وقالـوا: «إذا كنت قلقة جدًّا عليه انقليه إلى المستشفى، فعسى يدخلونه هناك».

بعـد ذهابهم انهمكت ثانيـة بتبليل قدميـه. لم تتحسن حال ولدي

1-پشويـه: وهي عادة إيرانية عندما ترتفع حرارة الطفـل يضعون قدميه في طشت ماء. (المترجـم)

الحبيب، ولم تنخفض درجة حرارته.

كذلـك لم أتوصل إلى فعل شيء، ولم يكـن أبي قد عاد بعد. أنا التي طوال هذه السنوات لم يسمع أحد صوت اعتراضي، صرت أنوح وأبكي: «إذًا أيـن أنت يا علي!! إذا كنت أبًا فافعل شيئًا، أقسم عليك بكلّ عزيز لديك، أقسم عليك بالسيّدة الزهراء عليها السلام التي كنت تعشقها. أنت الآن شهيد، هناك في أعلى عليين وترانا. أعلم أنّني مقترفة للذنوب ومرتكبة للمعاصـي، أعلـم أنّ وجهي أسود، اطلب أنت الشفـاء لطفلنا من الله، أتذكـر كـم كنت تحبّ أن يولـد ابننا سريعًا؟ والآن قد أتـى، أحببت أن تسميّـه، فأسمينـاه باسمك كي تبقى دائمًا قربنـا. علي إن طفلك يكاد يهلـك، فديتـك نفسي افعـل شيئًا له! لقـد هلك طفلك. أنـت المعروف بمروءتـك، كان قلبك يتفطّـر على الناس، كنت تعتـبر الأسير ونفسك شخصًـا واحـدًا. عندما كـبر ولدنا بعض الشيء صار جـلّ فرحه أن يحـلّ اللّيل ليجدك في السماء بين النجوم. علي حبيبي، حبيب فرشته، حبيب زهراء زوجتك، تعال إليّ من عليائك! أغثنا اللّيلة أنا وطفلك! دُلَّ ولدك عليك اللّيلـة! انقطع عن العالم الفوقي قليلًا. بالله عليك يا علي ساعدني، فأنا أريد منك علي حبيبي، بالله عليك يا علي!».

لم أدرِ ماذا أفعل وماذا أقول! رفعت يدي نحو السماء وبكيت. كنت أنادي علي علي، والدموع تملأ وجهي.

لم أدرِ كـم مرّ مـن الوقت، لكنّنـي عندما أدرت رأسـي رأيت أنّني أجلس قرب سرير علـي واضعةً رأسـي على وسادتـه وممسكةً بيده. وجـدت وسادته مبلّلة بدموعـي. كان علي حبيبي نائمًـا بهدوء وراحة وطمأنينـة. وضعـت يدي على جبهتـه، فوجدت أنّ درجـة الحرارة قد انخفضت، لكنّني لم أكتفِ. توضّأت وتأزّرت بثوب الصلاة، لا أدري كم ركعة صلّيت تلك اللّيلة، وكم مرّة قرأت دعاء التوسّل وزيارة عاشوراء،

لكنّنـي أتذكّر جيّدًا أنّه بعد كلّ صلاة ودعاء كنت أهوي للسجود وأنوح وأرتجـي: «علـي، لقد قلت أن أكمل نهجك زينبيّـة. أقسم باللّٰه وأقسم بروحك، لقد أكملته صابرة زينبيّة. كلّ ما قيل في وجهي وفي غيبتي لم أكـترث له ولم أتذمّر، أنا ما زلت أعشقك وأعشق حياتنا. فمع ذكراك لم أولـع بأحـد ولـن أولع بأحـد، ففي هـذه الدنيا بات ولدنـا فرحتي الوحيـدة، بعد ذكـراك والتفكير فيـك. علي حبيبي هـو ذكرى منك، قطعـة من وجودك، لقد رعيت ذكراك جيّدًا إلى الآن، لم أدع ظلّ أحد غـير اللّٰه وظلّك فوق رأسه. اطلب حبيبـي علي من اللّٰه كي يعيده إليّ، أنـا أعلم أنّ لا أحد يحبّنا بقدر مـا أنت تحبّنا. اصغِ إليّ اللّيلة، أعدك أن أبقـى وفيّة لك طول العمر. علي أرجوك لا تخيِّبَ طلبي. علي، باللّٰه عليك لا تـردّ رجائي إلى الأرض. إذا كنـت تستطيع فعل شيء فافعل. أيـن يدك الحنون! قلبـي مغموم، قلبي مغمـوم.. امسح بيدك الحنون على رأسي، امسح امسح يا علي جبيني..».

في تلـك اللّيلـة بكيت حزن عمـر بأكمله. ولم يكـن لبكائي ودموعي نهاية.

بعـد كلّ هذه الصلوات والأدعية، وقفت قرب ولدي، كان ابني يغطّ في نوم عميق ويتنفّس بهدوء. قبّلت جبهته. كان المسكين يتألم لشهرين متتاليـين، وتغيّـب عن المدرسـة بسبب مرضه هـذا. وضعت يدي على بطنـه بهدوء، كانت خاويـة وضامرة. قبّلت بطنه وقلـت بحزن: «علي حبيبـي أعلم أنّك هنا، وأنا أستودعك طفلنا، انتبه إليه جيّدًا، أعلم لو أنّـك حيٌّ لأحببت ابنك كثيرًا كجميع الآباء، رغـم أنّني أعلم أنّك حيّ ومتيقّظ أكثر من جميع الآباء».

في اليوم التالي، أخذت علي إلى نفس الطبيب الذي كنت قد أخذت له موعـدًا عنده، وتقرّر أن يجـري له الطبيب صـورة تُدعى التصوير

الطبقـي المحوري قبل المعاينـة. لم يسمحوا لي بالذهـاب معه. أخذوا طفلي وحده، بعد قليل خرجت الممرّضة مضطربة ونادتني، وصلت إلى الغرفـة وقـد زهقت روحـي مئة مرّة قبـل أن أصل، كان ابنـي قد تقيّأ واتّسخت كلّ ملابسه. بدّلت ثيابه بسرعة وقلت: «علي حبيبي لا تجزع، ستتحسّـن الآن». وراح ولدي يواسيني وهـو على تلك الحال ويقول لي: «أمّي حبيبتي، أنا بحال جيّدة، لقد تحسّنت كثيرًا، وخفّ ألمي».

وتقـرّر أن آخذه ظهر اليوم التالي إلى الدكتـور ملك زاده لمعاينته؛ إذ صـادف في هذا اليوم إقامة الذكرى السنوية لعلي. كانت أمّي تتابع كلّ شـيء لحظة بلحظة مـن خلف الجهاز المحمـول، وتسأل عن علي، وتخـبرني عن برنامج الذكرى فتقول: «لقـد جاء كلّ الضيوف، وغصّ المكان بهم. إنّنا نقرأ لعلي ولدك دعاء التوسّل، اسمعي: «يا وجيهًا عند الله اشفع لنا عند الله»».

كان قلبي يتخبّط بالضجيج. وشعرت بعلي أكثر من أيّ وقت. شعرت به جالسًا قربي بيني وبين ولدي، وأتحدّث إليه طوال المدة التي انتظرنا فيها وصول دورنا.

رنّ الهاتف: «..فرشته، اعقدي النيّة».

ارتفع صوت السيدات وهنّ يقرأن معًا: «يا أبا الحسن، يا موسى بن جعفر، أيها الكاظم، يا بن رسول الله..»».

وصل دورنا في النهاية، كان الدكتور ملك زاده طبيبًا متخصّصًا في الجهـاز الهضمي، وشخصًا وقورًا جدًّا. كان يتحدّث بطريقة محترمة ورسميّة. بعد اطلاعه على الصور والفحوصات ونتيجة المنظار. كشف علـى علي وقـال: «يا سيّدة، لا عمل لي مع هذا الملـف والفحوصات، لو سمحتِ جهّزي المريض، سنُجري له عملية منظار في تلك الغرفة».

كان مبلغ 50 ألف تومان في ذاك الوقت مبلغًا كبيرًا. دفعنا هذا المبلغ الزهيد[1]، وأتت ممرّضات عدّة أمسكن بيدَي ولدي وأخذنه.

بعد وقت قليل، نادتني ممرّضة: «فليتفضّل الشخص المرافق لمحمد علي تشيت سازيان».

كان قد تقيّأ ثانيةً. أخرجت من حقيبتي طقم ملابس، ورحت أبكي بينما أبدّل ملابس ابني وأتكلّم همسًا مع علي: «علي، علي حبيبي، لقد رجوتك كثيرًا ليلة البارحة. حسنًا يعني هذا أنّك لم تشفق علينا.

كنت تشفق على الأسرى العراقيّين، وتخلع معطفك وتلبسهم إيّاه. اُنظر، اُنظر ماذا حلّ بنا أنا وطفلك! انظر أيّ معاناة نعانيها! إنّ ولدك سيهلك! علي، معك حق؛ فأنت سعيد هناك في الأعلى، فلماذا عليك أن تفكّر فينا؟!».

وبمشقّة بالغة سيطرت على دموعي كي لا تنهمر. ألبست علي ملابسه وأنا منهكة. عندما خرجت من الغرفة انفجرت بالبكاء.

وقفت قربي ممرّضة حسنة القوام بهيّة الطلعة، بدا وكأنّها أشفقت عليّ، فقالت: «سيّدة تشيت سازيان لا تقلقي كثيرًا، ليس بالأمر المهم، سيتحسّن إن شاء اللّه».

كان صوتها ناعمًا وحنونًا، ذهبت وجلست قرب والدي. اتصلت والدتي وقالت: «فرشته، إننا نقرأ دعاء الجوشن الكبير. اقرئي أنت أيضًا».

سمعت أصوات السيدات يقرأن معًا: «اللهم إنّي أسألك باسمك يا حافظ يا بارئ، يا ذارئ يا باذخ، يا فارج يا فاتح، يا كاشف يا ضامن،

1- نا قابل: الزهيد أو غير المعتدّ به وهي كلمة شائعة الاستخدام في المجاملات الإيرانيّة، وهنا تقصد أنّها زهيدة من أجل ولدها. (المترجم)

يا آمر يا ناهي، سبحانك يا لا إله إلّا أنت الغوث الغوث». [1].

فجأةً، شرعت في البكاء، كان قلبي حزينًا، كم أحببت أن يكون علي في تلك اللحظات إلى جانبي، فكتفاه القويّتان أكثر متانةً من كتفيّ. قلبه أكبر من قلبي، وحاله دائمًا أفضل من حالي، نفسه أكثر اطمئنانًا من نفسي، وتوكّله أكبر. كم أنّ حضوره مريح، وعدم حضوره.. آه آه، ورحت أرثي همسًا: «علي، كم أنّك تركتني باكرًا، لو أنّك موجود لكنت بالتأكيد أكثر هدوءًا منّي، ولعلّمتني كيفية التوكّل. علي ما زلت موجودًا، أعلم أنّك موجودٌ، أعلم أنّك موجود. إذا كنت موجودًا أظهر نفسك، قل إنّك موجود، قل إنّك ترعاني كتلك الأيّام. قل إنّني لم أترمّل، قل إنّ ظلّك ما زال يظلّلني. أنا متأكّدة من أنّ الشهداء أحياء، وأنّ لديهم مكانة خاصّة عند اللّه، قل شيئًا حتّى يزداد يقيني أكثر، قل إنّك موجود دائمًا، ولن تتركنا وحدنا أبدًا. قل إنّك كباقي الآباء قلق الآن على ولدك. قل إنّك عاشق لولدك، قل إنّك تحبّنا. علي، باللّه عليك، حدّد لي اليوم ما ينبغي لي فعله! علي حبيبي دلّني عليك!».

فتحت الممرّضة ذات الصوت الناعم باب غرفة عملية المنظار، ابتسمت وأشارت إليّ كي أدخل. كان ولدي نائمًا على السرير، وجلس الطبيب خلف مكتبه. كان طبيبًا أنيقًا جدًّا.

أشار إلينا بكلّ احترام كي نجلس، ثمّ قال بيقين وجديّة: «سيّدة تشيت سازيان، إنّ ولدك لا يشكو من شيء خطير، إنّه يشكو فقط من بعض الالتهاب المعوي، وسيُعافى منه مع برنامج غذائي بسيط سأكتبه لكم، لا ينبغي أن يتناول الفاكهة النيئة على الإطلاق لعدة أشهر، وحاليًّا يمنع تناول الحبوب والمرق والآش ومرق اللحم والخضار والبهارات

1- المقطع رقم 95 من دعاء الجوشن الكبير.

والحر والمشروبات الغازية». وبينما هو يتكلّم بكيت وأنا أنظر إليه غير مصدّقة، وتابع قائلًا: «وتوجد أدوية عدّة أيضًا، فليتناولها لشهرين».

– المعذرة حضرة الطبيب، لكن أطبّاء عديدين اطّلعوا على نتيجة المنظار في همدان وأجمعوا على أنّ هناك جرحًا في الاثني عشر، وينبغي إجراء عمليّة له».

تناول الطبيب ملف همدان الطبي الكبير بكلّ احترام وأعطاني إيّاه:

– نعم سيّدة تشيت سازيان، هذه الفحوصات تؤكّد أنّ هناك جرحًا في الاثني عشر، لكنّني أؤمن بنتيجة عملية الناضور خاصّتي، برأيكم بأيّهما أثق؟ بعينيّ أم بهذا الملفّ؟!

قال أبي بهدوء وتردّد: «سيدي الطبيب، أنتم تقولون إنّ أطبّاء همدان مخطئون، أم إنّ التحاليل قد تغيّرت؟».

هزّ الطبيب رأسه وقال واثقًا: «كلّا؛ مطلقًا، أنا لم أقصد ذلك؛ لكنّني أثق بعملي. إنّ عملية المنظار التي أجريناها هنا لا تؤكد نتيجة تحاليل ومنظار الشهر المنصرم».

لا يوجد كلام لتداوله، ولم أرغب في أن يكون هناك كلام للتداول أصلًا. أردت أن أصدّق كلام الطبيب ملك زاده بكلّ وجودي. فجأة اجتاح السرور كلّ كياني. نهضت وحضنت طفلي الذي كان نائمًا على السرير وقبّلته. لم تكن نتيجة تحليل منظار همدان مهمة بالنسبة إليّ. المهم عندي كان كلام الدكتور زاده: «ولدك لا يعاني من أي مشكلة».

المهم أنّ ولدي تحسنت حاله؛ والمهم أنّ علي سمع كلامي، وأنّه يهتمّ بنا؛ المهم أنّ علي يقف بجانبي كالطود، المهم أنّني لست أرملة، وأنّ علي كان زوجي وسيبقى؛ المهم أنّ ولدي لديه أب عطوف ويرعاه

دومًــا؛ المهم أنّ علي لم يكن يتيمًــا؛ المهم أنّ علي سواء أكان أم لم يكن فهــو بركة ونعمة لنا. اجتاحني سرور فردوسي عجيب. لقد أجاب علي أمنيتي وحقّق لي ما طلبته.

قبّلــت ولــدي الحبيب بســرور؛ كانت تفــوح منه رائحــة أبيه بشكل عجيــب. وضعت رأسي على صــدره وشممته، تذكّــرت محبس زواجي الذي مــا زال في إصبعي، وضعتــه على شفتي. أغمضــت عيني وقبّلته بعمق، وعبقت في مشامي رائحة قمح تفوح من حقل فسيح.

ملف الصور

(الروضة 11)

أول سفر لي إلى مشهد المقدسة سنة 1350هـ. ش(1971م).

أمّي، أنا، أبي ورؤيا.

يوم العقد: المأذون، عاقد القران، آية الله نجفي، علي، علي محمدي في يوم عقد القران.

علي يوقّع على أوراق العقد.

أنا وعلي، وقد انعكست صورتنا في المرآة.

قرب سفرة العقد: أبي، علي وأنا.

أمّي إلى جهة اليمين، علي وأنا.

أبي، علي، أنا، خالي محمود.

في عيد النوروز لعام 1365 هـ. ش (أواخر آذار 1987م) خلال حفلة عقد القران: من اليمين إلى اليسار: الشهيد محمد أمير تشيت سازيان، الشهيد علي تشيت سازيان، صادق تشيت سازيان (لم يبــقَ من أفراد عائلة تشيت سازيان المؤلّفة من 6 أشخاص سوى الحاج صادق حفظه اللّه).

الشهيــد محمد أمير تشيت سازيــان، السيّد ناصر تشيت سازيان (الأب)، علــي، السيّــد حميد زوج مريم وصهــر العائلة، صادق تشيت سازيان.

السيّدة منصورة وعلي.

السيّد ناصر وأبي ليلة العرس في صيف 1365 هـ. ش(1986م) في همدان. توفى السيّد ناصر عام 1390 (2011م) ودفن في مدافن عوائل الشهداء (روضة همدان). تقاعد أبي ويعيش وحيدًا بعد موت أمّي في منزل ذكرى طفولتنا.

عيـد النوروز لعـام 1366 (آذار 1987م) -الفناء الخارجي لمنزل دزفـول- اليمين: أنا، علي، أبي، أمّـي، أختي نفيسة وزينب ابنة الشهيد هادي فضلي.

الشهيد هادي فضلي، علي.

في شهر بهمن 1365 (شباط 1987م) عندما كنت في الأهواز وجرح علـي ونقلوه إلى مستشفى شيراز. كنت قـد رأيت رؤيا حول هذه الإصابة في اللّيلة السابقة. وقد أخفى عنّي خالي محمود والسيّد محمـد خادم موضوع الإصابة هذه حتّى وصولنا إلى همدان. في هذه الصورة يظهر صديقه ناصر حسيني الذي أعارنا منزله في الأيّـام الأولى لزواجنا في زقاق «قاضيـان»، كذلك لجهة اليمين يظهر علي وإلى اليسار رفيقه في الجهاد السيّد مرتضى موسوي.

لقد جرح علي مرّات عدّة طوال مدّة الحرب. وفي المرّة الثالثة أصيب بالجراح بعد زواجنا، لكنّه قبل الزواج جرح مرّات عدّة. تتعلّق هذه الصورة بما بعد عمليات والفجر2 في العام 1362 (1983م)، يرافق علي في الصورة الشهيد حبيب بخشي نظر.

لواء أنصار الحسين عليه السلام عمليات بدر 1363 (1984م)، الشهيد تُرْك وعلي.

الشهيد مصيب مجيدي وعلي.

من اليمين: الشهيد عين علي، الشهيد مصيب مجيدي، الشهيد حاتمي، السيّد محسن فروتن، علي، نصرت نائيني، حسين علي مرادي، الشهيد محمد رحيمي، مرتضي آزمون محمد يوسفي، فريدون روشنائي (المجاهد الفتى). الصورة في مخيم الشهيد محرمي عمليات بدر 1984.

علي في عمليات والفجر 2.

عمليات والفجر 8 جادة الفاو أم القرى 1364 (1985م).

حسين رفيعي، حسين علي مرادي، الشهيد عباس صالحي، الشهيد بهرام عطاييان، علي.

وحيد ابن عمّي، الحاج السيّد أحمديان رفيق جهاد علي، أبي في دزفول، فروردين 1366 (نيسان1987م).

الشهيد علي أصغر طاهري، علي، محمد خادم 1365 (1986م) في جزيرة مجنون.

وقوفًا في الصف الأول: محمد بختياري، مجيد برتويي، كلشني صدق. الصف الثاني: مصطفى قصاباني، الشهيد حميد نظري، علي، الشهيد حسين ميرزا آغا جاني، أحمد متين خواه.

جلوسًا: الشهيد حسين فلاح، نبي الله مشتريان في جزيرة مجنون 1987 قبل عمليات 20 شهريور.

أحمد حبيبي، الشهيد علي شاه حسيني، علي، السيّد محسن حسيني، الحاج جوادي في خريف (1986) طهران مستشفى ساسان.

سعيد صداقتي دوست، علي، الشهيد محمد إبراهيم مهربان، علي بختياري.

ودا ع علي لأخيه الشهيد محمد أمير تشت سازيان.

علــي في مراسم دفن أخيــه الشهيد محمد أمير تشت سازيان، في روضة الشهداء همدان في شهر تير 1366 (1987).

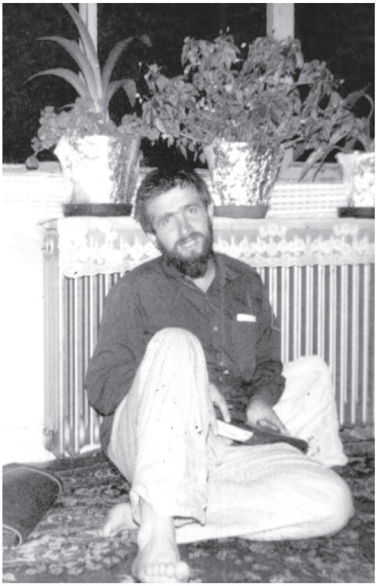

شهر مرداد 1366 (1987) في الشقة الواقعة في شارع مهنية همدان. منزل والد علي. أيّام شهادة أخيه محمد أمير تشت سازيان.

بانه، خريف 1366 (1987) قبل أيّام من الشهادة.

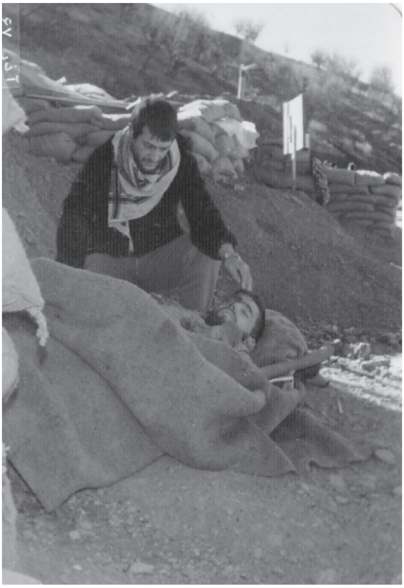

بعـد سـاعـة من شهادة علـي، رفيق جهاده محمد ايـران بور وهو يودّعه. بانه منطقة ماووت.

علي شهيدًا.

الحشـود الغفيرة لأهل محافظة همـدان، حاضنة الشهداء خلال مراسـم تشييع علي. بنظـر المراقبين يعتبر هـذا التشييع حتّى ذاك اليـوم التشييع الأكثر عظمة بعد تشييـع آية الله الملّا علي معصومي همداني.

بعد شهرين من شهادة علي، في ذاك الوقت كان عمر محمد علي 40 يومًا.

مـرور عامين على ولادة محمد علي. مـن اليمين: الخالة الوحيدة لعلـي -الخالة فاطمة- ليلى ابنـة الحاج صادق ومحمد علي في حضن الجدة (السيّدة منصورة) وجدّتي.

توفيـت السيّدة منصورة في العـام (1995م) وتوفيت والدة الشهيد المفقود الأثر محمد فاميل دشتي في العام (2005م).

أنا، محمد علي، كان يبلغ من العمر 6 سنوات. في ابتدائية الرسالة الواقعة على تقاطع شريعتي همدان. كنت أعمل مساعدة في تلك المدرسة، ومحمد علي كان تلميذًا في مرحلة ما قبل الابتدائي (التمهيدي).

وقوفًا من اليمين: حميد زوج مريم، مهيا ابنته ومريم أخت علي. (توفيت مريم في العام 1384 (2005م) على أثر نوبة قلبية، وزوجها حميد توفي في العام 1389 (2010م) على أثر كارثة، أنا، والسيّدة منيرة. جلوسًا من اليمين: ليلى ابنة الحاج صادق، محمد علي شيما ابنة الحاج صادق، مونا ابنة مريم، الجدّة التي توفيت في العام 1386 (2007م)، السيّدة منصورة. الصورة في مغارة علي صدر همدان.

عيد نوروز 1389 (2010م) من اليسار: أبي، محمد علي، زوجة محمد علي، أمّي، نفيسة، أنا.

توفيت أمّي في العام 1390 (2011م) وتركتنا بعد معاناة مع المرض.

نوروز 1394 (آذار 2015م)، أنا محمد علي، ابنه آرمان.

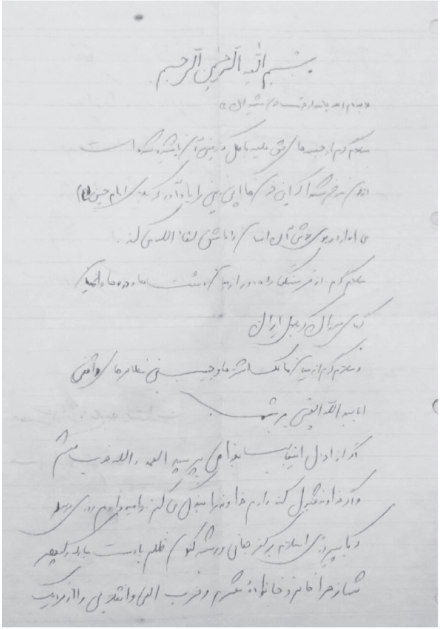

بسم الله الرحمن الرحیم

[illegible]

سلام گرم از جبهه های حق علیه باطل [illegible] است

[illegible] اگر این [illegible] امام حسین (ع)

[illegible] لقاء الله [illegible].

سلام گرم از [illegible]

[illegible] رهبر ایران

و سلام گرم [illegible]

انا لله [illegible]

اگر از اول انقلاب [illegible]

[illegible] خداوند قبول کند [illegible] خداوند را [illegible]

[illegible] اسلام بر کل جهان [illegible]

شما [illegible]

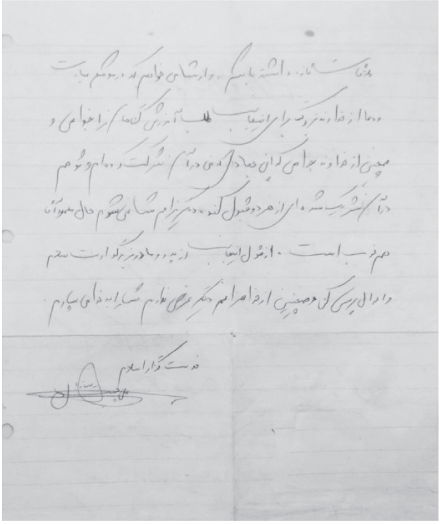

[illegible] و از شما می خواهم [illegible]

و دعا از خداوند [illegible] برای انقلاب طلب آمرزش گناهان را خواهانم و

همچنین از خداوند [illegible]

[illegible] از هر دو قبول کند [illegible]

[illegible] انقلاب [illegible]

[illegible] دیگر عرضی ندارم شما را به خدای [illegible]

خدمتگزار اسلام

[illegible]

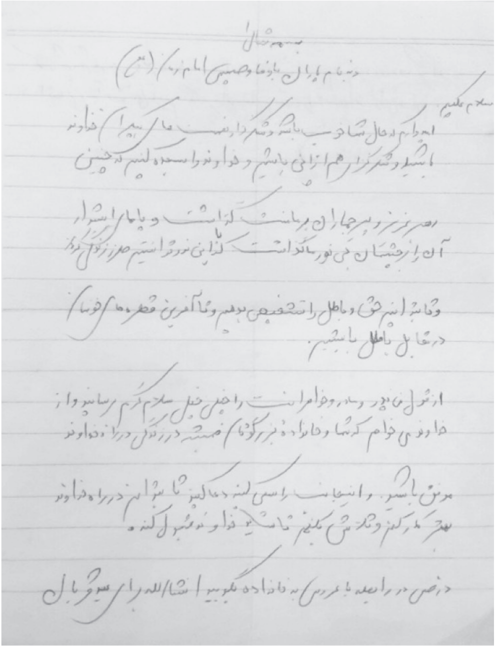

بسمه تعالی

به نام یاران باوفا و حسینی امام زمان (عج)

سلام علیکم

امیدوارم که حال شما خوب باشد و شکرگذار نعمت‌های بی‌پایان خداوند باشید و شکرگزار هم از این باشیم و خداوند را سجده کنیم که چنین

رهبر عزیز و بزرگواری برایمان گذاشت و با یاد امام و شهدا آن را از جنگ ایشان می‌توان نگهداشت که با این نور ما استفاده از زندگی کرد

و تا به این حق و باطل را تشخیص بدهیم و تا آخرین قطره‌های خونمان در مقابل باطل بایستیم.

از شما می‌خواهم و سلام و خواهرانت را خیلی خیلی سلام گرم برسانید و از خداوند می‌خواهم که شما و خانواده بزرگوارتان همیشه در زندگی در راه خداوند

موفق باشید. و انتخابات را سعی کنید دعا کنید تا بتوانیم در راه خداوند بهتر کار کنیم و تلاش کنیم تا شاید خداوند قبول کند.

در ضمن در رابطه با عروسی به خانواده بگویید ان شاء الله برای [illegible]

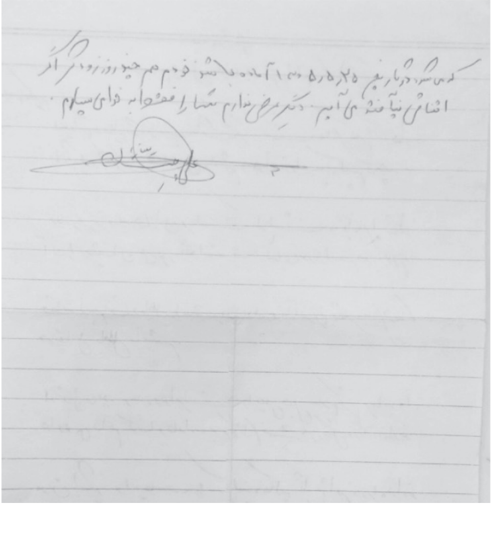

که می‌شود در تاریخ ۵،۵،۲۵ ... آماده باشید خودم هم چند روز زودتر اگر ایشان نیامد می‌آیم. دیگر عرضی ندارم شما را به خدا می‌سپارم.

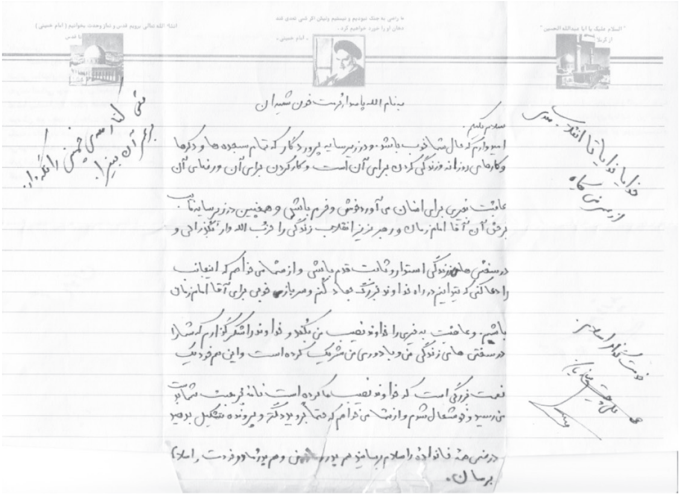

ما راضي به جنگ نبوديم و نيستيم ولیکن اگر کسی تعدی کند دهان او را خورد خواهیم کرد. «امام خمینی»

به نام الله پاسدار حرمت خون شهیدان

سلام علیکم.

امیدوارم که حال شما خوب باشد و در زیر سایه پروردگار که تمام سجده ها و ذکرها و کارهای روزانه و زندگی کردن برای آن است و کار کردن برای آن و رضای آن

عاقبت بخیری برای انسان می آورد خوش و خرم باشی و همچنین در زیر سایه نائب برحق آن آقا امام زمان و رهبر عزیز انقلاب زندگی را حزب الله وار بگذرانی و

در سختی های زندگی استوار و ثابت قدم باشی و از شما می خواهم که انقلاب را دعا کنی که بتوانیم در راه خدا و خداوند بزرگ جهاد کنیم و سرباز خوبی برای آقا امام زمان

باشیم. و عاقبت به خیری را خداوند نصیب من بکند و خداوند را شکر گذارم که شما را در سختی های زندگی من و با دوری من شریک کرده است و این هم خودش

نعمت بزرگی است که خداوند نصیب ما کرده است نامه محبت شما به من رسید و خوشحال شدم و از شما می خواهم که شما برو پیش دکتر و پرونده تشکیل بدهید

در ضمن همه خانواده را سلام برسانید هم پدر و ... و هم پدر ... و خودت را سلام برسان.

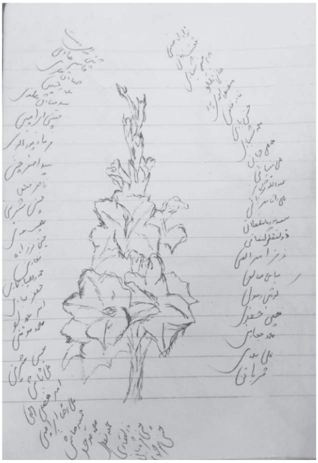

رسائل ورسومات

الأغراض الشخصية لعلي. سجدة، سبحة، ساعة، وقطعة القماش التي باركها الإمام الخميني قدس سره، دفتر تسجيل ذكرياتي وتقويم العام1365 (1986م).

هــذا محبــس زواجنا وله أيضًا حكايــة. وكأنّه حلقة وصل بيني وبين علي.

لم أفصلــه عنّي قط. لقد كنّا طــوال هذه الثلاثين سنة معًا. في إحدى المــرات وقبل سنوات عدّة ذهبت وزميلاتي في التربية والتعليــم بمهمة وأضعته مــن دون انتباه، وأرسل الجميع للبحث عنه. لم نعثر عليه ويئست من ذلك.

عــدت إلى الحافلة، فقال أحدهم لنبحث عنه داخل الحافلة فوجدناه بإعجاز وبشكل لا يقبل التصديق تحت أحد المقاعد.

كذلك في نــوروز 1394 (2015) ضاع المحبس بشكل مشكوك فيه، وبتعبير أدق تمت سرقته، ولم نجد وسيلة للعثور عليه.

مــرّت سبعة أشهــر، كنت في تمام السبعــة أشهر تلك أعيش غصّة ضيــاع حلقة اتصالي بعلي حتّى تمّ العثور عليه بعد سبعة أشهر عن طريق أحد الأفراد بشكل إعجازي أيضًا.

سلسلة سادة القافلة:

تصدر عن دار المعارف الإسلامية الثقافية

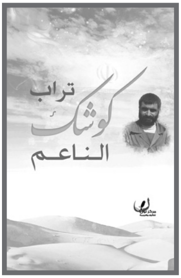

1. تراب كوشك الناعم

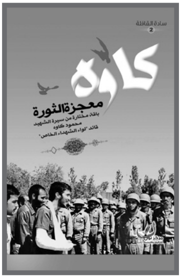

2. كاوه -معجزة الثورة

3. كتيبة كميل

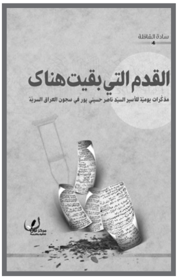

4. القدم التي بقيت هناك

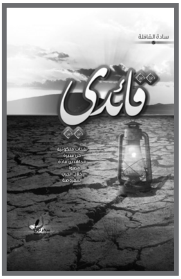

5. قائدي

6. هاجر تنتظر

7. وداع الشهداء

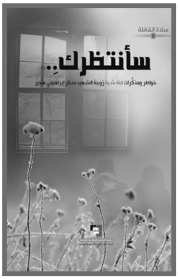

8. سأنتظرك..

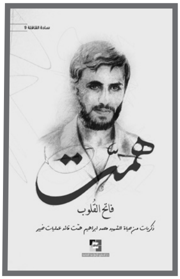

9. همت.. فاتح القلوب

10 . **حفلة الخضاب**

11 . **فرقة الأخيار**

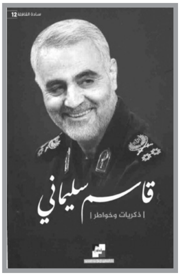

12 . **قاسم سليماني** (ذكريات وخواطر)

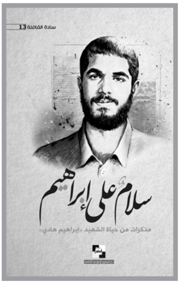

13 . **سلام على ابراهيم**

14 . **نسائم الذكريات النديّة**

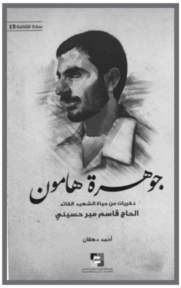

15 . **جوهرة هامون**

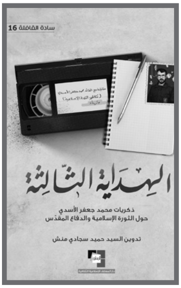

16 . **الهداية الثالثة**

17 . **ملحمة تلّة برهانى**

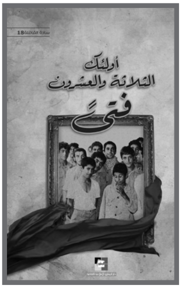

18 . **أولئك الـ 23 فتى**

19 . تلة جاويدي وسر أشلو

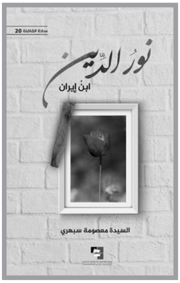

20 . نور الدين ابن ايران

21. دا (ج1) / أماه (ج2)

يصدر قريبًا:

1 . زقاق نقاشها

2 . الفصيل الأول

3 . نهج الأخيار

الروضة
الحادية عشرة

إنـهـا روايــة مـشـوّقـة لـحـيـاة حـافـلـة بالجهاد والإخـلاص، لـرَجُلٍ نـال فـي عنفوان شبابه مقامَ الرجال الربّانيين الكبار.. وقد عبّرت الراوية – شريكة حياته القصيرة – بشفافيّة، عن الصدق والنقاء والإخلاص. كما إنّ قلم الكاتبة المبدع وإنشاءها المفعم بالذّوق؛ بعثَا الحياة في كل هذا [الكتاب].

الإمام الخامنئي.[10/1/ 2017م]

رغم انـزلاق الأعـوام؛ استطاعت السيدة زهـراء أن تسترجعها سـرداً، عامًا بعام، فإذ بها تحملنا بعيداً. تغدو ذاكرتها حبلى بالحكايا والمغامرات، وبينما هي تسردها نتحسّس معها أوقات الحرّ، والشتاء، ونعيش زمناً يتسّع لعام وثمانية أشهر؛ ويضيق ليصبح عمراً بقياس ليلة واحدة. في الكتاب تحكي «فرشته» بلغة قلبها عن عشق لم يترهّل؛.. فمن كان يناديها «يا وردتي» لا يزال في انتظارها ليقدّم لها كل ورود الجنة.

مركـز المعـارف للترجمـة: مركـز متخصـص بنقـل المعـارف والمتـون الإسـلامية؛ الثقافيـة والتعليمية؛ باللغـة العربيـة ومنهـا باللغـات الأخرى؛ وفـق معاييـر وحاجـات منسـجمة مـع الرؤيـة الإسـلامية الأصيلـة.

ISBN 978-614-467-084-2
9 786144 670842

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb